جامعة مولاي اسماعيل

مكناسة

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكناس

العدد 6

1992

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع والنشر محفوظة
1992

الفهـرس

الأدب :

مفهـوم الـرؤيـة السرديـــة في الخطـاب الـروائي بين الائتـلاف والاختلاف

ذ. عبد العالي بوطيب 7

الكتابة التاريخية ذات الطابع الادبي لدى بن حيان الاندلسي

ذ. عبد اللطيف مومن 23

كتابة المقامة عند العرب

ذ. مهـــوش اســدي 33

اللسانيات :

الزمـــن والجهـة

ذ. عبد العزيز العماري 47

مكانة الصواتة في الصرف

ذ. محمـــد الـوادي 55

محاولة للتعريف بنظرية الحواجز عند تشومسكي

ذ. أحمد مخـــوخ 79

النظرية الفونولوجية

ذ. أحمد العلوي 87

التاريـــخ :

ظـاهـرة التســول في المغـرب والأنـدلس خـلال عصر المرابطين والموحدين

د. إبراهيم القادري بوتشيش 115

موارد الامام الطبري عن الفتنة في كتابه : «تاريخ الرسل والملوك»
ذ. محمد أمحزون 125

الحضارة :

مساهمة العرب في تقدم الحضارة الانسانية
د. علال الهاشمي الخياري 151

صورة الحداثة الاوروبية في الكتابات السفارية المخزنية
ذ. عبد السلام حيمر 161

التواصل الفكري والثقافي بين المشرق والمغرب من خلال – الترجمان المغرب – لأبي القاسم الزياني الوزير المؤرخ الأديب
ذ. علال معكول 189

بيوتات مكناسة الزيتون على عهد المولى اسماعيل
ذ. محمد بنعبد الجليل 211

من أجل مقاربة سوسيولوجية للإعاقة العقلية
تأليف ن. دييديريش ـ ترجمة : ذ. أمينة فنان. 219

الأدب

مفهوم الرؤية السردية في الخطاب الروائي
بين الإئتلاف والإختلاف

ذ. عبد العالي بوطيب
كليـة الآداب – مكناس

ملخص :

(تعتبر " الـرؤية السرديـة " من المفـاهيم الاكثـر اهميـة في الدراسـات السرديـة، لأننـا كقراء لاندرك المتن الحكائـي إدراكا مباشرا وأوليـا كمـا في المسـرح مثـلا، وإنما من خلال إدراك سابق له هو ادراك السـارد. الذي يتغيـر بدوره بتغيـر تموضعـاته، واختلاف انواع العلاقات التي يقيمها مع شخصيات عالمه التخييلي، مما يكون له دون شك انعكاسات بالغة علـى شكل تلقينا له، باعـتبـاره تلـق مـن الدرجـة الثانيـة.

والمقالة الحالية تحاول إلقاء الضوء على أهم التطورات التي مر بها هذا المفهوم عبر رحلته الطويلة قبل أن يستقر على تصوره الراهن.)

إن الطبيعـة الاستعـراضية المميـزة للنص الحكـائي، والمتمثلـة في نقل وقـائع متنه وتقـديمها في قـالب لغـوي – شفاهي أو كتـابي – من قبل شخصية أو مجموعة من الشخصيات، محددة بعينها، يستوجب حضور هيئة تلفظية تحول عجز الحوادث في التعبيرعن نفسهـا بنفسها، من جهة، وتشبع بـالتـالي نهم الملتقي كطـرف ضروري للفعل السردي في الاطـلاع عليها من جهـة أخرى. إنها شخصـيـة السارد – (Le narrateur)[هذا – الكـائن – الذي يمثل صـوته محور الـرواية، إذ يمكن ألا نسمع صـوت المؤلف إطـلاقـا، ولاصوت الشخصيـات، ولكن بـدون سـارد لا توجـد

رواية](1) إنه الشخصية الروائيــة التي بدونها سيبقى الخطاب السردي – (في حالة احتمال) –.(2) ولن يتحول لحقيقــة، مادمنــا لا نستطيع تصور حكاية بدون سارد.

وبالمناسبة ينبغي ألا نخلط بأي حــال من الأحوال بينه وبين الكاتب : [فــالســارد ليس أبــدا الكاتب... ولكنــه دور مخلــوق ومتبنى من طــرف الكاتب]. أو لنقل بتعبير آخر إن : [السارد شخصية من خيال مسخ فيها الكاتب].(3) فهــو شخصية متخيلــة أو – كائن من ورق – شأنــه في ذلك شأن بــاقي الشخصيــات الروائــية الأخرى، يتوسل بها المؤلف، وهو يــؤسس عــالمه الحكــائي لتنوب عنــه في سرد المحكي، وتمريــر خطــابــه الإيديــولوجي، وأيضا ممــارسة لعبة الإيهام بــواقعية مايــروى، إذا كان الخطاب يندرج في هذا الاتجاه، كما يتضح ذلك من الرسم التالي :

السارد (le narrateur) = شخصية 1

(شخصية personnage 2))	(شخصية personnage 3)
(مرسلة – عارفــة) ← موضوع – معرفة ←	(متلقيــة – غير عارفــة)

↓

المسرود لــه (le narrataire) = شخصيــة 4] (4)

ومادام هذا الخطــاب كباقي أنواع الخطابات الأخرى، في حــاجة أيضا لمخاطب. يتلقــاه ويستفيد منه : [كل كلام هو أولا حــوار، أي أنه لايمكن أن يصــدر عن شخصيــة منفــردة، وكل كلام مسمــوع يفــرض وجــود

---

1) عبد الحميد عقار : «وضــع السارد فــي الروايــة بالمغــرب» مجلة دراسات أدبية ولسانية عدد 1، سنــة 1985، ص : 24.

2) Françoise Van Rossum-Gyom: critique du roman: éd: gallimard. p: 101.

3) W. Kayser: "qui raconte le roman" in poêtique du récit. éd: points. p: 71.

4) Ph. Hamon: "un discours contraint" in litterature et réalité. éd. points. p: 142.

شخصية متكلم ومخاطب].[5] وبدونه يفقد السرد معناه، ويتحول لهذيان لامبرر له، الشيء الـذي دفع البعض للقول : [فلو لا المتلقي لما كـان هناك سرد].[6] وهو مايفسر حرص الـرواة على أن يكون سردهم دائما استجابة وتلبيـة لدعـوة صـادرة عن المسرود له، إن لم نقـل أنه يتأسس عليـه في بعض الأحيـان، كما هو الشأن في حكـايـة – ألف ليلـة وليلة – [يـراجع بخصوص هذه المسألة ماقاله ج برانس G. Prince في مقاله القيم المعنون (بمدخل لدراسة المسرود له) (introduction à l'étude du narrataire)][7] – باعتباره (أي المسرود له le narrataire) هيئة تلفظية تنبعث مع الهيئة الأولى – السارد(le narrateur)– وتلازمها ملازمة الظل لصاحبه، لاتفارقها مادام حديـث الأنا، هو في العمـق خطاب للأنـت. ولو كـان هذا الأنت، هـو أنا المتكلم ذاته، كما يحصل في المونولوجات مثلا : [لكن مباشرة، وبمجرد ما يعلن المتكلم عن نفسـه ويتسلم مقاليد اللغـة، فإنه يغـرس الآخر أمـامه، كيفما كانـت درجة الحضور التي يمنحهـا لهذا الآخر، إن كل تلفـظ هو، صراحة أو ضمنيا، خطاب يستوجب مخاطبا].[8] وهو مايسمح لنا بالقول بأن كل سرد لايستـوجب فقط سـاردا، ولكن أيضـا مسرودا له، إلا أنـه بالرغم مما لهذه الشخصيـة المتخيلة الأخيرة من أهمية في صنع الخطاب السردي، فإن الاهتمام بها مع ذلك ظل محدودا وضئيـلا، إذا مـاقـورن بحجم الـدراسـات التي خصت بها شخصيـة السارد، وهكـذا و : [منـذ هنري جيمس، ونورمان فريدمـان، إلى واين وبوث، فتزفيتان تودوروف، كثيرهم النقاد الـذين اهتموا بفحص مختلف تجليـات السارد في التخييل، سواء أكـان نظما أو نثرا... وعلى العكس قليل هم الذين اهتمـوا بالمسرود

---

5) ميشال بوتور، **بحوث في الرواية الجديدة**، ترجمة، فريدا نطونيوس. سلسلة زدني علما.منشورات عويدات، بيروت. باريس الطبعة الثانية 1982، ص : 89.

6) د.عبد الفتـاح كيليطو، مقـال تحت عنوان (–زعموا أن : مـلاحظات حـول كليلة ودمنـة بين الرواية والسرد الكلاسيكي.) من كتاب : **دراسات في القصة العربية، وقائع ندوة مكناس**. عن دار مـؤسسة الابحـاث العربيـة، الطبعة الأولى ص: 185.

7) G. Prince: "introduction à l'étude du narrataire". in poétique n° 14-1973. p: 179.

8) Benveniste: problèmes de linguistique générale. Tome II. éd: Gallimard. p: 82.

له... كل هـذا رغما عن الفائدة الحيـويـة الجمة المثـارة عنه في المقـالات الجميلة لكل من بنفنيست Benveniste وياكبسون Jakobson].[9] مما أدى لإحـداث خلط واضـح بينـه وبين مفاهيـم أخرى، قـد يلتقي معهـا بفعل الصدفة المحققة للإستثناء الشاذ عن القاعدة، كالقارئ، والقارئ المحتمل، والقـارئ المثالي، إلى غير ذلك من المفـاهيم التي أشـار إليها ج. بـرانس في مقـاله السـالف الـذكر، وبنـاءا عليه يمكننـا القـول بأن إضفاء الصبغـة الحكائيـة على نص من النصوص، عمليـة مشروطة أسـاسا بتـوفره على العناصر الثلاثة الرئيسية الضرورية لكل خطاب، وهي السارد أو المرسل، والمسرود له أو المتلقي، والمتن الحكائي أو الرسالة :

سـارد ← مـتن حكائـي ← مسـرود لـه

(narrateur) ← fable / histoire ← (narrataire)

(destinateur) ← (message) ← (destinataire)

ومادام المتن الحكائي عبارة عن مادة خام طيعـة في يد السارد، وقابلة لأن تصـاغ بما لاحصر له ولاعـد من الأشكـال التعبيرية، وفقـا لرغبتـه وتمشيا والاستراتيجية المتبناة من قبله نحـو المسرود له، الأمر الذي دفع الكثير من المنظـرين لأن يـولـوا هـذه المسألـة كبير عنـايتهم واهتمامهم، محاولين الإحاطة بها من جميـع جوانبها، سواء من حيث عـلاقة السارد بـالشخصيـات، أو من حيث العـلاقـة التي يقيمهـا بمتنـه الحكـائي أو بمخاطبه... الخ.

ويمكـن اعتبـار مفهـوم – وجهـة النظـر (point de vue) كمقابـل للمصطلـح الانجليـزي –(point of view) – من أبرز قضـايا النقـد الـروائي التي كثر حـولها النقـاش وتشعب بتعدد النقـاد واختـلاف المدارس، خصوصـا بعدمـا أكـد الروائي والنـاقد الانجليـزي المعروف هنري جيمس على أهميتـه أواخر القرن 19: [لعب مفهوم وجهة النظـر دورا كبيرا في النظـريـة، كما في التطبيقـات الأدبيـة، في الـدول

9) G. prince : Op, cit . p : 178.

الانجلوساكسونية منذ هنري جيمس Henry James، فكما أن الرسام يعرض علينا الأشياء لرؤريتها – من منظورما – فإن الروائي يعرضها من وجهة نظر معينة، يجب على بلاغة الخطاب السردي أن تدخلها في الاعتبار]. (10) إلا أن هذا التراكم الكمي في الدراسات المنجزة حول هذه النقطة، لم يواكبه مع الأسف الشديد الوضوح والعمق المطلوبين، بحيث كثيرا ما كنا نجد أصحابها يقعون في خلط أو لبس، كنتيجة طبيعية لغياب الوضوح الذي كانوا ينطلقون منه، وهو ما نبه إليه أحد النقاد المعاصرين بقوله : [إلا أن أغلبية الاعمال النظرية المنجزة عن هذا الموضوع – والتي هي أساسا عبارة عن تصنيفات ـ تشكو في اعتقادي من خلط فظيع بين ما أسميه هنا الصيغة والصوت (mode et voix) أي بين السؤال المتعلق بمن هي الشخصية التي توجه بوجهة نظرها المنظور السردي ؟. وبين سؤال من صنف آخر بخصوص من هو السارد ؟ أولكي نختصر الحديث، بين السؤال عمن يرى ؟ والسؤال عمن يتكلم ؟]. (11)

ولعل ما ساعد على ذلك صعوبة المصطلح وتشعبه، وما دخله من ضبابية وسوء فهم عند استعماله من قبل المهتمين، فهو مائع، وغير محدد لدرجة يوحى معها بما لا حصر له من الأشياء والمفاهيم : [و– وجهة النظر – مصطلح ذو دلالات متعددة منها :

1 – أنه قد يعني فلسفة الروائي أو موقفه الاجتماعي أو السياسي أو غير ذلك.

2 – وقد يعني في أبسط صوره في مجال النقد الروائي، العلاقة بين المؤلف والراوي وموضوع الرواية]. (12) وهو مانرمي إليه هنا، وإن كان من الصعب – أحيانا – الفصل بين

---

10) Groupe U: rhétorique générale. éd: points. p: 187.
11) G. Genette; figures III. éd: Seuil . p: 203.
12) انجيل بطرس سمعان ـ من مقال تحت عنوان: «وجهة النظر في الرواية المصرية» بمجلة فصول، عدد خاص بالرواية، رقم: 2، سنة 1982، صفحة: 103.

فلسفة الروائي ومـا اختاره من أساليب فنية. ولإبراز بعض مظـاهر هذا الخلط بالملموس، سنعمل على استعراض نماذج من تصنيفات وآراء بعض هؤلاء المنظرين بخصوص هذه النقطة، بنوع من التسلسل التاريخي، كما أوردها ج. جنيـت في كتابـه (وجوه III) قبل أن ننتقل بعـد ذلك لإعطاء التصور النهائي الـذي استقرعليه هذا المصطلح حـاليا ولمختلف أشكال تجلياته على مستوى النصوص الحكائية.

وهكـذا نجـد النـاقـديـن كلينث بـروكس وروبير بين وارين Cleanth Brooks et Robert Penn Warren يقترحـان سنة 1943 نمذجة من أربعـة أقسـام لما اصطلحا عليـه آنـذاك (focus of narration) (foyer narratif) كمقابـل لمصطلـح وجهـة النظر الحالـي (point de vue). وهـذه النمذجـة على الشكـل التالي :

	أحـداث محللـة مـن الداخـل	أحـداث محللـة من الخـارج
سارد حاضر كشخصية في العمل.	(1) البطـل يحكـي حكـايتـه.	(2) شـاهد يحكـي حكايـة البطـل.
سارد غائب كشخصية عن العمل	(4) المؤلف المحلل أو الكلي المعـرفـة يحكي الحكاية	(3) المؤلف يحكـي الحكاية من الخارج

(13)

ويعلق ج. جنيت على هذه النمذجـة قائلاً بأن المحور العمودي (داخلي – خارجي) وحده يرتبط بوجهة النظر، بينما المحور الأفقي (الحضور – الغيـاب) فيخص في نظـره مشكل الصوت في الـروايـة(la voix). أوهوية

---

13) G . Genette . Op . Cit . p : 204.

السارد كما يطرحها ج. جنيت، دون أن تكون له أية علاقة بموضوعنا، مما يمكننا من القول بأن لافرق بين الخانة رقم 1. ورقم 4. ولا بين الخانة رقم 2. ورقم 3.

وفي سنة 1955 ميز الناقد الألماني ف. ك. ستانزيل F.K. Stanzel – ثلاثة أصناف من الوضعيات السردية الروائية وهي :

1) وضعية المؤلف الكلي المعرفة، أوما أسماه بالألمانية. (L'auktorial érzâhlsituation).

2) ووضعية السارد المشارك في العمل الروائي، أوما أسماه بـ (L'ichérzâhlsituation).

3) وأخيرا وضعية المحكي المسرود بضمير الغائب، أوما أسماه بـ (La personale érzâhlsituation).

وهنا أيضا، يلاحظ ج. جنيت خلطا واضحا بين شخصيتي المتكلم والرائي (qui voit et qui parle) مما دفع هذا المنظر للتمييز بين الحالتين. – الثانية والثالثة – لاختلاف بينهما على مستوى وجهة النظر.

وفي نفس السنة أي 1955، قدم الناقد نورمان فريدمان–(norman fredman) – تصنيفا أكثر تعقيدا مكونا من ثمان حالات موزعة لأربع مجموعات على النحو التالي :

أ ـ السرد الكلي المعرفة	بتدخل من الكاتب
	بحياد من الكاتب
ب ـ السرد بضمير المتكلم	أنا ـ الشاهد
	أنا ـ البطل أو الشخصية الرئيسية
ج ـ السرد الكلي المعرفة	السرد الكلي المعرفة الانتقائي
	السرد الكلي المعرفة التعددي
د ـ سرد موضوعي محض	الطريقة الدرامية وهي افتراضية ويصعب تمييزها عن الثانية
	طريقة الكاميرا، وهي عبارة عن محض تسجيل دون اختيار ولا تنظيم

(14)

14) G . Genette . Op . Cit . p : 204-205.

وهكذا نلاحظ أن الانتقال يتم بشكل تدريجي من وجهة نظر المؤلف الذاتية في الصنف الأول، إلى مايمكن اعتباره الطريقة الموضوعية المحايدة في السرد، كما في الصنف الأخير، حيث تقدم المادة دون تدخل من المؤلف، كما لوكانت تنعكس على عدسة الكاميرا، مرورا بالحالات الوسطية التي يعتمد فيها المؤلف على وعي شخصية أو مجموعة من الشخصيات في تقديم متنه الحكائي، مع الإشارة إلى أن الحالة الثالثة والرابعة، كما يؤكد ذلك ج. جنيت، ليس لهما مايميزهما عن الحالات الأخرى، غير أنهما تسردان بضمير المتكلم، إضافة إلى أن التمييز بين الحالتين 1 و2 يقوم على أساس الصوت لاوجهة النظر. نفس الخلط، اللاإرادي طبعا، وقع فيه واين بوث Wayne Booth، سنة 1961. حين عنون مقالته المتعلقة بمشاكل الصوت بـ (المسافة ووجهة النظر – dis-tance et point de vue) والتي يميز فيها بين. المؤلف الضمني(l'auteur im-plicite) –وبين السارد المقدم وغير المقدم – المصرح به وغير المصرح به (Le narrateur représenté ou non représenté) كما يميز في نفس الوقت بين السارد الجدير بالثقة وغير الجدير بها (narrateur digne ou indigne de confiance) دون أن يذكر لنا الفرق بين الصنف الأول والثاني، أما الصنف الثالث عند بوث فهو ذاك الذي يكون فيه السارد شخصية تعلن عن نفسها في الرواية بأشكال مختلفة، وهو قابل ليقسم بدوره لأصناف فرعية، وهي :

1) الراوي الملاحظ أو الراصد :(observateur).

2) الراوي المشارك في الأحداث : (narrateur - personnage).

3) الراوي العاكس للأحداث : (Le narrateur reflécteur).

ويلاحظ أن هذا التصنيف ينطلق، كما هو واضح، من معيار المسافة الفاصلة بين المؤلف والقارئ وشخصيات الرواية، مما يجعله أقرب لدراسة مشاكل الصوت منه لوجهة النظر.

واخيرا وفي سنة 1962، أخذ الناقد برتيل رومبير Bartil Romberg تصنيف ستانزيل stanzel – فأكمله بإضافة حالة رابعة، هي المحكي

الموضوعي التي تقابل الحالة السابعة من تصنيف فريدمان، وهكذاأصبح لدينا تصنيف رباعي يتكون من :

1) محكي ذو مؤلف كلي المعرفة : (récit à auteur omniscient)

2) محكي ذو وجهة نظر : (récit à point de vue)

3) محكي موضوعي : (récit objectif)

4) محكي بضمير المتكلم : (récit à la première personne)

وهو ما يعكس شذوذ الحالة الرابعة عن معيار تصنيف الحالات الثلاثة الأولى.

إلى جانب هذه الدراسات، توجد دراسات أخرى معاصرة، يمكن اعتبارها أسلم من السابقة، سواء من حيث الوضوح، أو من حيث ضبط المفاهيم، ومن جملتها تلك التي قام بها كل من جون بويون J. pouillon في كتابه (الزمن والرواية temps et roman) وت. تودوروف T. Todorov في مقالته المعنونة بـ (مقولات المحكي الأدبي) (Les catégories du récit littéraire) وكذا ج. جنيت G genette في كتابه (وجوه figures III ـ III).

وهكذا، فإذا كنا كقراء لا ندرك المتن الحكائي إدراكا مباشرا وأوليا، كما سبقت الإشارة لذلك، إلا من خلال إدراك سابق له هو إدراك السارد، الذي يتغير بدوره بتغير تموضعاته واختلاف أنواع العلاقات التي يقيمها مع شخصيات عالمه التخييلي، مما يكون له دون شك انعكاسات واضحة على شكل تلقينا له، وبالتالي قراءتنا له، ذلك أن هذه النظرة(regard) أو :[الطريقة التي يتم بها إدراك الحكاية من قبل السارد].[15] وإن شئنا الدقة أكثر.هذا [المظهر الذي يعكس العلاقة بين ضمير هو في الحكاية، وضمير أنا في الخطاب، أي بين الشخصية والسارد][16] هو ما يرمي إليه النقاد من وجهة النظر، بالرغم من اختلاف مصطلحاتهم وتنوعها. وقد

---

15) G . Genette . Op . Cit . p : 175

16) T. Todorov: "les catégories du récit" in l'analyse structurale du récit: communications 8. éd: point. p. 147.

حصر ج. بويون J.pouillon مختلف أشكال تمظهر هذه الرؤيات في ثلاثة، نعرضها نقلا عن مقال تودوروف السابق، مع ملاحظة بسيطة، وهي أن المسألة تتخذ على المستوى العملي التطبيقي، مظهرا آخر مغايرا، وأكثر تعقيدا، مما ستبدو عليه في المستوى النظري، الذي يسعى دائما ليكون واضحا وبسيطا : [لأن التجربة الروائية علمتنا ذلك، فليس هناك نماذج لوجهات النظر مرسومة على أساس شكل واحد. ومدعمة بانسجام خالص، ولكن ولكي نتجنب أن ننساق بعيدا، يجب علينا أن نتصرف هنا بالطريقة الأكثر تبسيطية].[17] وهذه الرؤيات هي :

1) **الرؤية من الخلف(vision par derrière)**[18] وتستخدم عادة في الروايات الكلاسيكية – بلزاك، فلوبير – ويتميز السارد فيها بكونه يعرف كل شيء عن شخصيات عالمه، بما في ذلك أعماقها النفسية، مخترقا جميع الحواجز كيفما كانت طبيعتها. كأن ينتقل في الزمان والمكان دون صعوبة، ويرفع أسقف المنازل ليرى ما بداخلها وما في خارجها، أو يشق قلوب الشخصيات ويغوص فيها ليتعرف على أخفى الدوافع وأعمق الخلجات، تستوي عنده في ذلك جميع الشخصيات على اختلاف مستوياتها، إنها بالنسبة له كتاب يطالعه كما يشاء، كل هذا كي يزودنا بتفاصيل عالم يهيمن عليه بشكل تام.وكأنه إله، ويفترض أن تحكى الروايات التي من هذا النوع بضمير الغائب. ويرمز تودوروف لهذه الرؤية بالمعادلة [سارد) شخصية].[19] أي أن السارد أكبر معرفة من الشخصية، وقد تعرضت هذه النظرة للطعن من طرف بعض النقاد لمالها من انعكاسات سلبية على تماسك ووحدة العمل الروائي، فهذا هنري جيمس يقول معلقا عليها : [إن هذا القص أدى إلى التفكك وعدم التناسق، حيث إن الانتقال المفاجيء من مكان إلى مكان، أو من زمان إلى زمان، أو من شخصية إلى شخصية، دون مبرر بل

---

17) T. Todorov . Op . Cit . p : 147.
18) T. Todorov . Op . Cit . p : 147.
19) T. Todorov : Op . Cit . p : 147.

دون الانطلاق مـن بؤرة قصصية محددة تكـون نتيجته التشتـت وعدم الترابط العضوي بين المقـاطع المختلفة في الـرواية، ولـذلك نادى بضرورة اختيار بؤرة مركزية، تشـع منها المادة القصصية أو تنعكس عليها.][20]

2) **الرؤيـة – مع (vision - avec)**[21] وهـي رؤيـة سرديـة كثيرة الاستعمال، خصوصا في الموجـة الجديدة للكتابة الـروائية، حيث يعرض العالم التخييلي من منظور ذاتي داخلي لشخصيـة روائية بعينها، دون أن يكـون له وجـود موضـوعي محايـد خارج وعيهـا، ولعل هذا مـا جعل الناقـــدة البلجيكيـــة فرانســـواز فان روســـم كيون Françoise van Bossum Gyom تسميها بالـواقعية الفينومينولوجية – الظـاهراتية –[22] (réalisme phénoménologique) إن السارد هنا بالرغم مـن كونه قد يعرف أكثـر ممـــا تعـرفـــه الشخصيـات، إلا أنـــه مع ذلك لا يقـــدم لنـــا أي تفسيرللأحداث قبل أن تصل الشخصيات ذاتها إليه، ويمكن أن نميز هنا شكـلا فرعيـا يتم الحكي فيـه بضمير المتكلم، وبـذلك تتطابق شخصيـة السارد بالشخصية الروائية، دون أن يؤثر ذلك على طبيعة العمل الروائي ويحوله لأوتوبيوغرافية. لأن ذلك متوقف أساسا على نوعية التعاقد المبرم بين الكاتب والقارئ، أهو تعاقد أوتوبيوغرافي أم روائي ؟ –[23] كما يشير لذلك فيليب لوجون Ph. le jeune. ولا علاقـة له إطلاقا بنـوعية الضمير المستعمل في السرد، وهكـــذا يمكن أن يتحـول الحكي بعـــد ذلك لضمير الغـائب دون أن يفقـد القـارئ الإنطبـاع السـابق المتعلق بكـون الـراوي شخصية مشـــاركة في الروايـة، ويمثل تودوروف لهذه الـرؤية بالمعـادلة [سارد = شخصية][24] كـدليل على التســاوي الحاصل فيهـا من حيث المعرفة بين السارد والشخصية، على عكس الرؤية السابقة.

---

20) د. سيزا قاسم : **بناء الرواية، دراسة مقارنة في – ثلاثية – نجيب محفوظ،** دار التنوير للطباعة والنشر.الطبعة الأولى 1985، ص : 181 – 182.

21) T. Todorov. Op , Cit . p : 148 .

22) Françoise van Rossum-Gyon : Op , cit , p : 135 .

23) Ph. Lejeune. Le pacte autobiographique. éd: seuil. p: 44.

24) T . Todorov . Op , Cit. p : 148 .

3) **الرؤية من الخارج(vision du dehors)**[25] وهي نادرة الاستعمال بالمقارنة للسابقتين، وفيها يكون السارد أقل معرفة من أي شخصية، [السارد ، الشخصية].[26] وهو بذلك لايمكنه إلا أن يصف مايرى ويسمع دون أن يتجاوز ذلك لما هو أبعد، كالحديث عن وعي الشخصيات مثلا، إن الأمر هنا لايعدو أن يكون مجرد مسألة تقنية متواضع عليها، لأننا إذا ما افترضنا جهلا كاملا للراوي بكل شيء، فهذا يعني أن الرواية لن يكون لها أي معنى وتصبح غير مفهومة.

وإذا كان ج. بويون قد توقف عند الحالات الثلاثة السابقة، فإن تودوروف اعتبراها ناقصة فعمل على إتمامها بإضافة حالة رابعة متفرعة عن الرؤية الثانية يسميها [vision stéreoscopique ـ الرؤية المجسمة][27] التي نتابع فيها الحدث الواحد مرويا من قبل شخصيات عديدة، مما يمكننا من تكوين صورة شاملة ومتكاملة عنه.

وإذا ما انتقلنا لجيرار جنيت، فإن أول ماسنلاحظه هو استبعاده لمصطلحي(الرؤية vision) و(وجهة النظر point de vue)لما لهما في اعتقاده، من طابع – بصري – (visuel) –واستبدالهما بمصطلح – التبئير (la fo-calisation) الذي استلهمه من مصطلح الناقدين بروكس ووارين (Focus of narration) وهكذا يطلق إسم محكي غير مبأر أو تبئير في درجة الصفر (récit non-focalisé ou focalisation zéro) كمقابل لمصطلحي بويون وتودوروف. الرؤية من الخلف، والسارد ، الشخصية.

بينما يسمى الرؤية – مع، التي يكون فيها السارد = الشخصية من حيث المعرفة، بالمحكي ذي التبئير الداخلي (récit à focalisation interne). وتجدر الإشارة بالمناسبة إلى أن مسألة التمييز بين هذا الصنف من التبئير والتبئير – الخارجي. لاعلاقة له إطلاقا بنوعية الضمير المستعمل في الحكي – متكلم أو غائب – لأنه قد لايعود بالضرورة على الذات المدركة. أي الشخصية، بقدرما يعود على الذات

---

25) T . Todorov . Op , Cit. p : 148 .
26) T . Todorov . Op , Cit. p : 148 .
27) T . Todorov . Op , Cit. p : 148 .

المتكلمة أي السـارد : [فاستعمال – ضمير المتكلم – خلافا لما يقـال بأنه يطـابق بين شخص السـارد والبطـل، لايـوجـه إطـلاقـا تبئير المحكي في البطل][28] أو كما قـال تـودوروف : [المحكي بضمير المتكلم لايبـرز صـورة سارده، بـل يجعلها أكثر إضمارا].[29] وفي مقابل هـذا يرى ج. جنيت أن المعيار السليم لبلوغ ذلك، يكمن في الفـرق الموجود بين ماأسماه رولان بارت R. Barthes في مقـالته (مـدخل للتحليل البنيـوي للمحكي) [بالصيغـة الشخصية أو الذاتيـة والصيغـة اللاشخصيـة أو اللاذاتيـة [mode personnel et a personnel] [30] بغض النظر عن نوعيـة الضمير المستعمل، وهكذا فـالصيغة الأولى – الشخصيـة – يمكن التعرف عليهـا من خلال عملية إعادة كتـابة المقطع بضمير المتكلم، إن لم يكن مسنـدا إليه أصـلا، فإذا لم يتطلب منـا ذلك سوى استبـدال ضمير بضمير، مع الابقاء على صيغتـه التركيبية الأصلية على ماكـانت عليه. كما في المثـال التالي : (رأي شخصـا مسنـا في صحـة جيدة) نحـولها لضمير المتكلم فنقول : (أرى شخصا مسنا في صحة جيدة) فلا شيء تغير سوى الضمير. تأكدنا أننـا أمام مقطع مبأر داخليا، بالـرغم من إسناده لضمير الغـائب، لأن صيغتـه شخصيـة، ولا تتطلـب أكثـر من استبـدال ضمير بضمير، أما في الصيغـة غير الشخصية، كأن نقـول مثلا عن فـلاح وهو يشاهد المطـر يتهاطل : (إنه يبدو مسرورا من تهاطل المطـر) فإن مسألة إعادة كتابتها مسندة لضمير المتكلم شيء صعب جدا، ويقتضي تغيير البنية التركيبية الأصلية الكليـة للجملة، بفعل تواجد كلمة – يبـدو – الدالة على الصيغة غير الشخصية التي تحول دون هذا التحويل، كما تؤكد في الوقت ذاته على أن التبئير هنا خارجي.

والحق أن السبق لاكتشاف هذه الحقيقة اللسانية لايعود لرولان بارت R. Barthes بقدرما يعود لبنفنيست Benveniste الذي أكد في بعض مقالات كتابه الهام (مشاكل اللسانيات العامة problèmes de linguistique générale)

---

28) G . Genette , Op , Cit. p : 148 .
29) Groupe U . Op , Cit. p : 189
30) R. Barthes , "introduction à l'analyse structurale des récits". in l'analyse structurale du récit: communications 8. éd: points. p: 26.

على أن الصفة الشخصية (personnel) لضميري المتكلم والمخاطب، (أنا / أنت) تقابل الصفة اللاشخصية (non personnel) – لضمير الغائب – ولعل فيما تحمله صفة الغائب من الدلالات مايكفي لتأكيد ذلك.)[31].

نعود لنقول بأن جيرار جنيت يقسم التبئير الداخلي لثلاثة أنواع هي :

أ – محكي ذو تبئير داخلي ثابت (récit à focalisation interne fixe)
ونموذجه المثالي هو رواية (السفراء les ambassadeurs) لهنري جيمس التي قال عنها لوبوك : [إن جيمس في – السفراء – لايخبرنا بقصة عقل سستريثر، إنه يجعل هذا العقل يتحدث عن نفسه، إنه يمسرحه]،[32] لأنه يعرض كل شيء من خلال وعي شخصية واحدة، مما يؤدي حتما لتضييق مجال الرؤية، وحصرها في شخصية واحدة بعينها، لدرجة تصبح معها الشخصيات الأخرى مسطحة، كما ذهبت لذلك الناقدة البلجيكية – فرانسواز فان كيون –، مادامت لاتدرك إلا من خلال عيون الشخصية التي يقع عليها التبئير.

ب – محكي ذو تبئير داخلي متنوع (récit à focalisation interne variable).[33] والنموذج المجسد لهذه الحالة، هو رواية (السيدة بوفاري لفلوبير : Madame Bovary - FLAUBERT) حيث يبدأ السرد مبأرا على شخصية شارل، ينتقل بعدها لشخصية – إما Emma – قبل أن يعود من جديد ليركز على شخصية شارل charles.

جـ – ثم محكي ذو تبئير داخلي متعدد (récit à focalisation interne multiple)[34] كما يحدث في الروايات البوليسية، وروايات المراسلة مثلا التي يتم فيها عرض الحدث الواحد مرات عديدة ومن وجهات نظر

---

31) Benveniste , Op . Cit , p : 225 .

32) رونيه ويليك، أوستين وارين، **نظرية الأدب**. ترجمة : محيي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية 1981، ص : 235 – 236.

33) G. Genette, Op , Cit , p : 207 .

34) G . Genette , Op , Cit , p : 207 .

شخصيـــات مختلفـة. كما هـو الشأن فـــي روايـة (العلاقـات الخطـرة (les liaisons dangereuses).

أما حالـة الرؤية من الخارج حيث السارد أقل معـرفة من الشخصية (السارد (الشخصية) فيسميها ج. جنيت [بالمحكي ذي التبئير الخارجي récit à focalisation externe][35] كبعض روايات مـابين الحربين العالميتين، الأولى والثانية، المعروفـة بروايات (Dashiel Hammett). أو بعض قصـص ارنست هيمنغواي E. Hemingway (القتلة thekillers) حيث نتابـع حياة وسلوك الشخصيات خارجيا مع السارد، دون أن نتمكن من ولوج عالمها الداخلي، عالم العواطف والأفكار.

إلا أنه إذا كـانت هذه هـــي كل التبئيرات الرئيسيـة المعروفـة في عالم الكتابة السردية، فإن الروائيين سيرا على عادة كل الفنانين والمبدعين نادرا ما يلتزمون بها، بل إننا غالبـا مانجدهـم يسعـون لهدمهـا والتحـرر من سلطـاتها، ممتطين في ذلك كل الوسـائل والامكـانات المتـاحة لهم في هـذا المجال، وفي هذا الاطار يمكن أن نـدرج كل أشكال [التحريف والأفساد – altération][36] وكذا عمليات [الخلط فيما بين الأنساق le mélange des systèmes][37] التي قد يمارسهـا القائم بالسرد بين الفينة والأخـرى، لإحداث تغيير تبئيري معزول وآني داخل سياق منسجم مثلا، كخرق منه للقاعدة العامـة المهيمنة، مما تكـون له انعكـاسات واضحة على مستـوى القراءة، كفعل يتم التلاعب به هـو الآخر عن طريق التلاعب السـابق، وقد حاول ج. جنيت في كتابه(وجوه III) تشخيص بعض هـذه الحالات، فلاحظ أن هناك صنفين اثنين يمكن إدراكهما : [ويقـومان إما على إعطاء معلـومات أقل عما هـو مبدئيـا ضروري، وإما على إعطـاء معلومـات أكثر ممـا هو مبدئيا مسمـوح به داخل إطار التبئير المنظم للكل][38] ويسمى الأول – حذفـا جزئيـا – (paralipse)، أمـا الثـانـي فيطلـــق عليـــه إســـم

---

35) G . Genette , Op , Cit , p : 207 .
36) G . Genette , Op , Cit , p : 211 .
37) R . Barthes . Op , Cit , p : 26 .
38) G . Genette , Op , cit , p : 211 .

(paralepse). ومن الأمثلة الكلاسيكية للحالة الأولى، السكوت المتعمد من قبل السارد في السرد المبأر داخليا عن ذكر بعض الأفكار والحقائق الداخلية للبطل، التي لها أهمية قصوى في المتن، والتي لايعقل بأي حال من الأحوال تناسيها أوتجاهلها من قبل البطل موضوع التبئير، كما فعلت الكاتبة أكاثا كريستي (agatha christie) في روايتها البوليسية التي تحمل عنوان (الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة). (39)

أما الصنف الثاني فيجد مرتعه الخصب والمفضل، فيما يسمى عادة بالروايات النفسية المعروفة بهجوماتها المكثفة على دواخل الشخصيات من قبل السارد في محاولة منه لتزويدنا نحن القراء، بأكبر قدر ممكن من المعلومات الخاصة بها.

---

39) R . Barthes . Op , cit , p : 26 .

الكتابة التاريخية ذات الطابع الأدبي
لدى ابن حيان الأندلسي

ذ. عبد اللطيف مومن
كلية الآداب – مكناس

ملخص :

لقد حاول الأندلسيون إثبات ذاتيتهم وأصالتهم عبر عدة سبل وطرق حضارية : أدبية وعلمية وفكرية وعمرانية. أما في ميدان الأدب فقد بدأت الشخصية الأندلسية تتبلور منذ نهاية القرن الرابع الهجري لتعرف أرقى مراحل نضجها وخصوبتها مع مجيء عصر الطوائف والمرابطين، وكما برز شعراء الأندلس وقتداك في عالم الشعر فقد لمعت أنجم ناثريها إسوة بلمعان شعرائها وظهر من طرق أبواب فنون نثرية مستحدثة أو مستطرفة وذلك مثل صنيع ابن حيان [ت 469 هـ] شيخ مؤرخي الأندلس الذي انتهج في كتابة التاريخ طريقة فنية بديعة ذات أسلوب أدبي متميز هي مايصح تسميته بـ "الكتابة التاريخية ذات الطابع الأدبي" حيث يعمد هذا الأديب المؤرخ (أو المؤرخ الأديب) إلى تسجيل الحوادث التاريخية – في كتابيه " المقتبس " و " المتين " خاصة – بطريقة لم تكن معهودة لدى من سبقه، ذلك أنه استطاع أن يوفق بين نقل الحدث التاريخي بأمانة علمية وبين صياغته بأسلوب أدبي قوي ذي ألفاظ جزلة متينة حتى لكأنها قدت من صخر، وصور بلاغية متفردة في تصورها وخيالها،وعبارات متماسكة، وذلك بغية إذهاب الملل عن نفس القارىء الذي ينفر من الألفاظ والعبارات الجافة، وبذلك تتحقق العبرة من معرفة التاريخ كما هو شائع عند المؤرخين العرب قديما.

تعتبر الكتابة التاريخية عند العرب – قديما – فنا من الفنون الأدبية، وقد نظروا للتاريخ على أنه علم إنساني مكتوب بأساليب أدبية ترقى إلى مستوى فني رفيع [1]، ورأوا أن الغاية منه تنحصر في معرفة تواريخ الاحداث الماضية والحاضرة، وأخذ العبرة والموعظة منها. ويعرف ابن

1) راجع مقالا للدكتور مصطفى الشكَعة في هذا الشأن نشر في مجلة المناهل المغربية العدد 29 الخاص عن " ندوة ابن حيان " ص 144.

خلدون التاريخ بقوله : ((... إن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال...)) [2] أما خليفة بن خياط في " تاريخه " [ت 240 هـ] فيرى أن فائدة التاريخ تتجلى في كونه يطلع الناس على ((أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم – يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ص " يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج " [3])).

وقد اهتم الأندلسيون بالكتابة التاريخية منذ القرن الثالث الهجري فكان ابن حبيب الالبيري (ت 238هـ)[4] أول من كتب في التاريخ قبل الطبري بأكثر من نصف قرن إلا أن عمله كان بسيطا محدودا. ويأتي القرن الرابع فيظهر بين الأندلسيين من يواصل هذا اللون من الكتابة إلى مستوى رفيع من الإجادة والتنوع في الوقت ذاته. ومن أهم المؤلفات التاريخية في هذا الوقت " تاريخ علماء الاندلس" لابن الفرضي (ت 403 هـ)[5] و" تاريخ قضاة قرطبة " لأبي عبد الله الخشني (ت 361 هـ)[6] " وتاريخ افتتاح الأندلس " لابن القوطية[7]. ويبقى كتاب ابن الفرضي المشار إليه أهم كتاب يجمع مابين الأسلوب الأدبي والموضوع العلمي التاريخي.

---

2) المقدمة : ص 3 طبع دار البيان.[غفل من ذكر أية معلومات أخرى].

3) سورة البقرة الآية : 189 – تاريخ خليفة ابن خياط : 15/ تحقيق سهيل زكار طبع وزارة الثقافة ـ دمشق 1967.

4) تنظر قطعة المقتبس التي نشرها الدكتور محمود على مكي ص 105– طبع دار الكاتب العربي – بيروت 1973.

5) تراجع عنه الذخيرة ق 1م 2 ص 614 (تحقيق د. إحسان عباس) ط 2 دار الثقافة بيروت ثم نفح الطيب : 2/ 129 (تحقيق د. إحسان عباس) دار صادر– بيروت سنة 1968.

6) يراجع عنه ترتيب المدارك للقاضي عياض : 6/ 267 ضبط ونشر محمد بن تاويت الطنجي – منشورات وزارة الاوقاف – الرباط. السلسلة التاريخية.

7) تراجع عنه مقدمة تاريخ افتتاح الاندلس تحقيق عبد الله أنيس الطباع بيروت 1957. دار النشر للجامعيين.

وقد عد الأندلسيون التاريخ أدبا رفيعا حيث يقول المقري نقلا عن ابن سعيد ((وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستطرفات الحكايات أنبل عندهم وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم...[8])).

ويعد ابن حيان الأندلسي (ت 469 هـ)[9] أول أديب ومؤرخ في الأندلس أدرك المغزى من كتابة التاريخ حيث نستطيع استشفاف ذلك من خلال مدونيه التاريخيين الكبيرين " المقتبس من أنباء أهل الأندلس " " والمتين " ولا يقارن في ذلك إلا بابن خلدون[10]. ويظهر أن اهتمام صاحبنا بالكتابة التاريخية راجع الى طبيعة شخصيته المتميزة بدقة الإحساس والملاحظة والإحاطة والشمول، مع تأمل الأحداث ومحاولة إعطائها أبعادا ميتا فيزيقية فلسفية، كما أن معاصرته لعهدين متباينين : عصر الاستقرار والعظمة الأندلسية على عهد المنصور (من 366 هـ - 392 هـ) وابنه عبد الملك (من 392 هـ - 399 هـ) العامريين، وعصر الفتنة القرطبية (399 هـ) والضعف والانهيار، بصرته - أي معاصرته هاته - بأحوال الدول والملوك واضطراب أمور الدنيا مما دفعه الى هاته الكتابة التاريخية.

ومن الأكيد أنه استفاد من مناهج الكتابة التاريخية السابقة لعصره، فانتقى منها منهجا دقيقا وسليما يمكن تسميته ب " المنهج التكاملي " وهو الذي يحاول وضع الأحداث في سياقها الاجتماعي والسياسي والفكري، والحضاري عامة، كما يؤمن بقاعدة " الحتمية التاريخية " التي يدل عليها استعماله لعبارات تعليق الأحداث على المشيئة الإلاهية. وإن تبنيه لهذا المنهج كان يدفعه إلى تحصيل معرفة واسعة، وميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعرض من أخبار، والتدقيق في الروايات ولذلك : ((وصفه المؤرخون والمترجمون له بأنه كان صادق الرواية...

---

8) نفح الطيب : 1/ 222. ت. د إحسان عباس.

9) تنظر مقدمة قطعة المقتبس التي نشرها الدكتور محمود علي مكي ص 7.

10) يراجع الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة لأحمد هيكل ص 387 - نشر وطبع دار المعارف بمصر - ط 4 - سنة 1968.

ولـو بقيت كتبه لكشفت نـواحي كثيرة من النواحي الغـامضة في تـاريخ الأندلس))[11] ولكي نعرف قيمـة الكتابة التاريخية عنـد ابن حيان يكفي أن نقول بأن ابن بسام (ت 542 هـ) اعتـمـد في تأليفـه " ذخـيرته " على تاريـخ صاحـبـنا الموسـوم بـــ " المقـــتـبـس " وكـذا على " المتين " أو على مؤلـفـات أخـرى ضمنها كتـابه " الذخيرة " من غير أن يصرح بها، كما أنها لم تصلنا لنعرف حقيقة ذلك. وهذا الأخذ والاقتباس واضحان في قولـه : ((وعولت في ذلك على تاريـخ أبي مـروان بـــن حيـان، فأوردت فصولـه، ونقلت جملـه وتفاصيله...))[12] ومن هذه النماذج التي تـؤكد اعتماد ابن بســام على ابن حيـان ونقله منـه حـرفيا – لقـولـه فأوردت فصوله ونقلت جمله وتفاصيله[13] – قوله عن وقعـة قنتيش التي حدثت بين البرابرة بقيادة سليمان المستعين وأهل قرطبة بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبـار (المهدي) سنة 400 هـ والتي انتهت بهزيمـة هـذا الأخير ودخول البربر قرطبة : ((وأصيب في تلك الوقعة من المؤدبين خاصة نيف على ستين، أعـريت سقـائفهم في غـــداة واحـدة منهم، وتعطل صبيـانهم لعدمهم وأصيب فيها زريوط الطنبوري[14] وأقام الطنبوريون عليه مأتما مشهودا بعد الحادثة وهلك في تلك الوقعة أخلاط من الناس، وكان بعض الظرفاء يقـول : من كل طبقـة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل، فإنها ألصقـت في الصميم في قتل قنبـــوط وزريـــوط المغني ونمطهما، فهيهات أن يخلف الدهر مثلهما))[15].

ويتحدث عن ابن دراج القسطلي مصـورا الحالة السيئة التـي آل إليها حتى اضطر أن يستجدي حكام الأندلس خلال عصر الفتنة فلم يبلوا غلته ولا سدوا رمقه[16] – باستثنـاء خيران العامـري صاحب ألمريـة – رغم كونه أوحـد شعراء العصر، وفي ذلك يقول : ((وأبـو عمر القسطلي سباق

---

11) ظهر الإسلام : 3/ 275 لاحمد أمين – نشر دار الكتاب العربي – بيروت ط 5 – 1969.

12) الذخيرة ق 1 م 1 ص 18.

13) تنظر " " ص 49.

14) لم أقف على حقيقة شخصيته.

15) لم أقف على حقيقة شخصيته.

16) الذخيرة ق 1 م 1 ص 44.

حلبة الشعـراء العامـريين، وخاتمة محسني أهل الأنـدلس أجمعين وكان ممن طـوحت به تلك الفتنـة الشنعاء، واضطـرته الى النجعـة، فاستقـرى ملوكها أجمعين، مابين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى، يهز كـلا بمـديحه، ويستعينهم على نكبتـه، وليـس منهم من يصغي لـه، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من علقه...))[17].

الخصائص الفنية والمعنوية للكتابة التاريخية عند ابن حيان.

1) الاقتباس من القرآن أو التأثر بأسلوبـه كما يقول في مفتتـح كتابه "المتين" : ((لا الغابر بما مر على الماضي مزدجـر، حكمة بالغة فما تغني الندر[18] " إذ كل مقدر كائن، وكل مـربوب مسخر[19] " أو كما يقول في موضع آخر على سبيل السخرية – حكاية عن عجوز ماتت فأقيمت عليها نواحة وتصدر مـوكب جنازتها أبو الحزم بن جهور[20] – : ((فسبحان الكبير المتعال[21] نـاقل الاحوال، مبـدل العسر يسرا[22])) فقوله "سبحان الكريم المتعال" مقتبس من قوله تعالى : " عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال وقوله " مبـدل العسر يسرا" مأخوذ من قـوله تعـالى: " إن مع العسر يسرا ".

2) الاستشهاد بالشعر، ولكن هـذا لايحجب الحقيقة التاريخية[23] بل يوضحها أكثر.

3) توظيف التشابيه والكنايـات والاستعارات والتنويع فيها، والميل الى التصويـــر الشعـــري كقولـه :

---

17) الذخيرة ق 1 م 1 ص 60 – 61.
18) هذه آية من سورة القمر رقم ترتيبها 5.
19) الذخيرة ق 1 م 2 ص 575.
20) الذخيرة : ق 1 م 2 ص 596.
21) سورة الرعد : الآية 9.
22) سورة الشرح : الآية 5 .
23) يراجع في هذا الشأن كتاب : النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين للدكتور حازم عبد اللـــه خضر ص 193 منشـورات وزارة الثقافـة والإعـلام بـالعراق، سنـة 1981 طبـــع دار الرشيـد..

((هـذا فرس بهيم الشيـه... قد غـربلـه أهيله أشـد غربلـة " حيث يستعمل استعارتين غـريبتين، أو كقوله ونعي إلينـا فلان الدغل، غـازله السل، كالأفعوان الصل " حيث يوظف في العبـارة الثانيـة استعارة، وفي الثالثة تشبيها.

4) اعتنـاؤه بإبـراز الإطار الجغـرافي والاجتماعي والسيـاسي للمترجم له[24].

5) كثرة المترادفات المتوازية كقوله عن أ فول عصر بني أمية : ((وأما عثرة الأشراف الأموية، فتقلب بهم الـزمان، وغبر أحوالهم الحدثان...))[25] أو كقوله في ترجمة أحـدهم : ((من رجل معدن من معادن الجهل والأفن والغباوة... واستظهر بما رأى الناس فيه من شـدة وطأة المجاعة بما شاء من وفور الزاد، وكثرة الطعـام، ونفاسة البر وسعة الثروة...))[26] ((وهو يعمد إلى هذا اللون الأسلوبي كثيرا حين يريد أن يعمق الإحساس بوضع أو موقف أو منظر، وله فيه تفنن متميز))[27] أو كقوله – مشيدا بسيرة القـاسم ابن حمود حينما تـولى الخلافـة فحاول إحقـاق الحق وإزهـاق البـاطل، وإقامـة دولة العـدل والشريعة ممـا جعل الناس يطمئنـون على أرواحهم وحرمهم وأموالهم : ((لما بويع القاسم بن حمود بعد ست ليال من مقتل أخيـه أحسن تلقي الناس وأجمل مـواعيـدهم وأخرج النـداء في أقطار البلد بأمـان الأحمر والأسود وبراءة الذمة مـمن تسور على أحد، وأقر الثـلاثة الـذين فتكوا بأخيـه بجريمتهـم ونـفوا عـن جميـع الناس المواطأة والتـدليس فقتلهم القـاسم لوقتـه وأطفأ النـائرة بدولتـه وتنسم الناس روح الـرفق وبـاشروا ظـل الأمـن واطمأنت بهم الـدار وأمر بإسقاط التقويـة وأظهر البراءة منها وأقر القـاضي والحكام والخدمة على منازلهـم))[28].

---

24) تراجع مقالة للدكتور محمد مفتاح بمجلة المناهل العدد 29 الخاص بندوة ابن حيان.

25) الذخيرة ق 1 م 2 ص 606.

26) الذخيرة ق 1 م 2 ص 598.

27) مقال للدكتور إحسان عباس بالعدد الخاص بالمناهل حول ندوة ابن حيان.

28) البيان المغرب : 130/3 [يلحظ عدم وجود فـواصل أو نقط بالنص].لابن عذاري : تحقيق ومراجعة. ج، س كولان وليفي بروفنسال – نشر وطبع دار الثقافة – بيروت، ط 3.

فقوله " أحسن تلقي الناس وأجمل مواعيدهم" إن هما إلا مترادفان لمعنى واحد، وكذا الشأن بين "باشروا ظل الأمن" وبين "واطمأنت بهم الدار" أو في قوله " وأقر القاضي والحكام والخدمة على منازلهم" ويعلق الدكتور إحسان عباس على هذه الخصائص –مرة أخرى – بقوله : ((وكان ابن حيان خير من يمثل النثر الأندلسي لاعتماده على نفسه في حوك العبارة وبنائها على الحدة والعنف وكثرة المتعاطفات وترتيبها على نحو خاص والإغراب في الاشتقاقات...))[29].

6) اتخاذه السجع – غير مفرط فيه – وسيلة فنية قصد إحداث جرس موسيقي مؤثر في نفس القاريء إلا أنه لا يتكلفه تكلفا مقيتا إسوة ببعض كتاب عصره، ويصف الدكتور أحمد هيكل هذه الخاصية معلقا عليها بقوله : ((ومن أهم ما يلاحظ على كتابة ابن حيان التاريخية أسلوبه الأدبي الممتاز الذي يعرض فيه التاريخ، وهو أسلوب لا يصطنع المحسنات ولا يفتعل القعقعة الكاذبة...))[30] وقد رأى باحثون آخرون أن ابن حيان لا يتعسف في طلب السجع، وفي طليعتهم الدكتور إحسان عباس الذي نراه يقول ((ولو قيس ابن حيان إلى كتاب عصره لكان في طليعة من لا يعتمدون السجع ولا يطلبونه، غير أن سجعه أكثر سطوعا في رسائله الإخوانية))[31].

7) اصطناعه لأسلوب وسط بين الابتذال المتدني وبين الزخرفة والتنميق وجزالة التعبير، أي أنه كان ينتهج سبيل السهولة والبساطة غير المسفتين وفي ذلك يقول إحسان عباس : ((ولعل ابن حيان هو الكاتب الوحيد الذي اشتق لنفسه أسلوبا أدبيا رفيعا لم يعتمد فيه تقليد الكتاب

---

29) تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة" ص 333. نشر وطبع دار الثقافة – بيروت – ط 5 سنة 1978 .

30) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص 388.

31) من مقال له بمجلة المناهل عدد خاص بندوة حيان والمشار إليها آنفا ص 114 ثم تراجع مقالة أخرى للدكتور مصطفى الشكّعة بنفس المجلة ص 178 – 179 وأخرى أيضا للدكتور محمد مفتاح بنفس المجلة ص 255 ثم " مقدمة " الدكتور محمود على مكي لقطعة المقتبس التي نشرها ص 130.

الآخرين وهو فوق سهولة الأسلوب التاريخي ودون الأسلوب المسجوع إيثارا للرونق اللفظي))،[32] ويتبنى المستشرق الهولندي دوزي نفس الحكم الأدبي، ثم يضيف إلى هذا أن ابن حيان : ((رغم التزامه هذه السهولة، لايهمل جانب الجمال في أسلوبه، ويبعث في كلامه دائما حماسا وغنى وطابعا غالبا من الجد...))[33].

8) استعمال أسلوب وسط بين الإيجاز والإطناب، أو استعمال كل واحد منهما في موطنه المناسب[34].

9) استعمال عبارات غريبة مثل قوله : يبس العرفج – ثبج عظيم – دكدكها...[35]

10) استشفاف الخلفية الخلقية في كل حكم أو رأي يصدره كقوله مثلا : ((ولو كان فلان من البخل بالمال، والكلف بالإمساك، والتقتير في الإنفاق بمنزلة بذبها ملوك عصره، لم يرغب قط في صنيعة ولاسارع الى حسنة، ولاجاد بمعروف)).[36]

11) إبداء أحكام وملاحظات نقدية أدبية حول مضامين الصور الشعرية التي يستشهد بها أحيانا.[37]

كما يصدر أحكاما نقدية حول أدباء الأندلس في ثنايا " تاريخه " ترفعه إلى مكان بارز في الصف الأول من النقاد.[38]

---

32) تاريخ الأدب الأندلسي " عصر الطوائف والمرابطين " ص 282.
33) تاريخ الفكر الأندلسي : بالنثيا ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص 211. مكتبة النهضة المصرية – ط 1 سنة 1955 – نشر الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.
34) تراجع مقالة للدكتور حازم عبد الله خضر بمجلة المناهل العدد الخاص بابن حيان ص 211.
35) الذخيرة ق 1 م 2 ص 600 – 601.
36) " " " ص 587.
37) تراجع مقالة الدكتور حازم خضر عبد الله بمجلة المناهل العدد الخاص بابن حيان ص 194.
38) تنظر " مقدمة " الدكتور محمود على مكي لقطعة المقتبس التي نشرها ص 134.

12) ميله إلى النـزعة القصصية والحوارية التي تـذكر بعنصر الحوار المسرحي حتى يجعل القارىء في تشوق لمعرفـة مكونات الحدث التاريخي فـلا يشعـر بـالملل كما يحصل مع كثير من المؤلفـات التـاريخيـة ذات الأسلـوب الجاف، وفي ذلك يقول الـدكتـور محمود على مكي : ((والملكـة القصصيـة لدى ابن حيـان جديـرة بأن نمعن في تأملها، والـواقع أن ابن حيان لو لم يكن مـؤرخا لكان من أعلام فن كتابة الـرواية والقصة، هذا دون أن يخل بـالسرد التـاريخي الصحيح الصـادق))[39] أما الـدكتور إحسان عباس فيرى أن أسلـوب ابن حيان يتأرجح بين الوصف السردي وتصويـر الشخصيات، ولكنه فـي الحالتيـن مغـرب يحـاول الابـتـكـار والتـفـرد))[40] ولعـل رأي الـدكتـور أحمـد هيكـل[41] يسـير فـي هـذا الاتجـاه وإن كان أقرب إلى رأي الـدكتـور محمـود علـى مكي.

إن ابن حيان هو المؤرخ أو الأديب العربي الأول الذي أدرك أن العلاقة بين الأدب والتـاريخ وثيقـة لا انفصـام بينهما، ومعنى ذلك أن الحدث التـاريخي يعطي للمادة الأدبيـة مضمـونـا غنيـا ذا أبعـاد إنسـانيـة وميتافيـزيقية، كمـا أن الأسلوب الأدبي يضفي علـى هـذا الحـدث إهابا مـشـرقـا أخـاذا للنفـوس ((حتى ليبدو التاريخ قصصا ممتعا بأسلوب شائـق مـمـتـع لايشعـر معـه القـارىء بملل أو ضجـر أو يحس فيه بجفاف الأسالـيـب التاريخـيـة أحيانـا لذى عـدد مـن المؤرخيـن)).[42]

والحق أن ابن حيـان أديب متذوق للصـور الأدبية والبلاغيـة ذو قلم سيال مما كان يؤهله لاحتلال مـرتبة أدبية رفيعة، إلا أن إغرامه بالبحث التاريخي وتعليله حجباه عن إبراز مـوهبته الأدبية وإن كانا لم يستطيعا إقبارها في نفسه ولو أنه تفرغ للكتـابة الأدبية لكان واحدا من أبرز أدباء الأندلس[43] يـدلنـا على ذلك تلك الرسـائل التي كـان يتبـادلها مع بعض أصفيائه أو تلك التراجم التي أنشـأها حول بعض معاصريه.[44]

---

39) تنظر "مقدمة" المرجع السابق ص 132.

40) تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين" ص 282.

41) يراجع في هذا الشأن كتابه الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ص 338.

42) تنظر مقالة للدكتور حازم عبد الله خضر بمجلة المناهل المشار إليها كثيرا ص 194.

43) تنظر مقالة للدكتور مصطفى الشـكـعـة بمجلة المناهل المشار إليها كثيرا ص 159.

44) تراجع الذخيرة ق 1 م 1 ص 575 – 614.

لقد عرف فن التأريخ عند العرب مـؤرخين عديدين – سواء من كانوا قبل ابن حيان أم من جاؤوا بعـده – إلا أنهم لم يحصلوا على تلك الشـهرة التي أحيطت بابن حيان – باستثناء ابن خلدون – وليس هناك من تعليل مقنع لهذه الظاهرة إلا في كون صاحبنـا أراد أن يكون مؤرخا فكان أديبا، وهذا يعني أن شـهرته لم تنبع من كونه "مؤرخ الأندلس" فقط بل ومن كونه زعيم الكتابة الأدبية للتاريخ[45] خلال عصر الفتنة والطوائف.

وقد حاول بعض الباحثين أن يعثر على أديـب مؤرخ شبيه بابن حيان فلم يجد شخصية أقـرب إليه في طريقتـه من أبي حيان التوحيـدي، مما جعله يطلق عليهما إسم "المؤرخين الكاتبين "[46]. أما الدكتور محمود على مكي فيرى أن ابن حيـان أتى ليكون ((تتـويجا لهذه الحركـة الأندلسيـة التـاريخية التي تقـدمت بسرعـة مطـــردة خـلال القـرن الســابق (يعني القـرن الرابـع الهجري) فاعتبر بحق أميـر مـؤرخي الأنـدلس، إذ فـاق كل من مضـــوا قبلـــه، ولم يتم لهذا القطـــر أن يخـــرج قـرينـــا لـه بعده)).[47]

وأخيرا فإن أثـر ابن حيـان لم تمـح رسومـه بذهابـه بل استطاعـت طريقتـه في كتابـــة التـــــاريخ أن تجد - رغم المدة الزمنيـة الفاصلة – تابعا أمينـا وفيا لتقاليدهـا تمثل في شخصية ابـن الخطيب (ت 776 هـ) الذي وضـع مؤلفات تاريخية سلكت نفس النهج الذي اصطنعه ابن حيان قبـله بـثـلاثـــة قـرون. وتبـقـى " أعـمال الاعـلام " و " الإحاطة في أخبـار غرناطة " و " الكـتيـبة الكامـنة " من أفضلها ترسما لخطى هذه الطريقة واستيعابا لخصائصها.

---

45) ينظر مقال الـدكتور حازم عبد اللـه خضر بمجلة المناهل المشار إليهـا آنفا ص 192 ثم مقال الدكتور الشـكَـعـة ص 174 وص 185 ثم مقال الدكتور مفتاح ص 222 بنفس هذه المجلة.

46) ينظر كتاب بعض مؤرخي الإسلام لعلي أدهم ص 73 – 90. سلسلة الثقافـة العامة – نشر وطبع المؤسسة العامة للدراسات والنشر – القاهرة – 1966.

47) من " المقدمة " التي وضعها لقطعة المقتبس التي نشرها ص 106.

كتابة المقامة عند العرب

الاستاذ ملك الشعراء بهار
ترجمة الاستاذة مهوش أسدى

التقديم :

منذ ألف سنة، والمقامة حية ترزق في التراث الاسلامي[1]، ويبحث عنها في مباحث الادب المقارن، واليوم نجدها في مجال المسرح، وعرفت عامتنا مثل أدبانا بأن المقامات نوع من القصص القصيرة، الزاخر بالحلية اللفظية، يرويها " راو " عن " بطل " يقوم بمغامرات ما. وقد يكون هذا البطل ناقدا اجتماعيا أو سياسيا، او يكون فقيها في مسائل الدين واللغة، يجيد بديهة وارتجالا. والمقامات – اذن – توصيف العادات والسنن التي تسود طبقات الناس، وبيانه في المجتمعات العمومية.

وقيل بأن مبتكر هذا الضرب من الانشاء هو بديع الزمان الهمداني (ت:398هـ)، تعتبر مقاماته كنزا حاويا لذخائر اللغة العربية، امتاز بها هو ومقلده الحريرى (ت 516 هـ) دون غيرهما.

لم يقتصر شأن المقامات على العرب وحدهم، بل كسائر اجناس الادب العربي، اهتم بها الفرس وألم بها دارسو الفارسية. ونلاحظ بأن " مقامات حميد الدين " تقليد فارسي لمقامات بديع الزمان، وعلى نمط مقامات الحريري التي حازت أهمية وشهرة بالغة في أوساط الادب الفارسي.[2]

---

1) هذه العبارة، اقتبست من عنوان مقال للدكتور أسعد علي / مجلة الاخاء الايرانية / ع 12 / سنة 13 / طهران.

2) أنظر تاريخ الادب في ايران / ادوارد براون / تعريب الشواربي / ط مصر / ص 439.

وهنـاك رأى خـــاص لامير الادب الفـارسي المعـاصر، الاستـــاذ ملك الشعـــراء بـهـــار (1304 – 1370 هـــ) حـــول أصـل مـصـــطـلـــح المـقـامـات – فـي العربيـة والفارسية – الذي أتى به في كتابه الفارسي : "سبكشناسي" في تاريخ تطـور النثر الفارسي[3]، واختص الاستاذ فصلا خاصا منه للمقامـات وناقش فيه " كتابة المقامة عند العرب "[4].

لقد نقلت مناقشـة الاستاذ المحقق، ورأيه الموضوع من كتـابه المذكور أعلاه، ومن لغته الفارسية – وهو مـا أقدم لكم في السطور التالية – لكي أعـرب بها لدارس الادب العـربي، وجهـا من وجوه التقـارب بين الادبين العربي والفارسي، والله مستعان.

التعريـــب :

" يقال ان المقامة، هي المجلـس أو الجماعة من الناس، أو الخطبة، أو العظة، أو الرواية التي تلقى في مجامع الناس، جمعها : المقامات. ومقامات الزهاد في مجلـس الملوك معروف، أنهم كانوا يقـولون كلمات في نصحهم وموعظتهم. وترادف هذه الكلمة – أيضا – " مجلس كَفتن "[5]، أي قول المجلس والموعظة على المنبر، أو على المحافل، وهـو الذي كان يطلق عليه – فيما بعد – "التـــذكـيـر "أو" مجلـــس كَـويي[6] لان المجلس يـــرادف "المقام ".

ثم يأتي الاستاذ ملك الشعراء بهار، في هامش مقاله المذكور، في كتابه " سبكشناسي " 324/2 طبعة طهـران، بشرح حول مصطلح " المقـامة " ويقول بأن :

" لا تـرتبط المقامـات – بالاحتمال الاغلب – بأى معنى من المعـاني المذكـورة، بل يجب ان نحسبها تـرجمة لـ " كَـاثا " أو " كَـاس " أو "

---

3) كتاب سبكشناسي (معرفة الاسلوب) في تاريخ تطـور النثر الفارسي / الطبعة الثانية / مطبعة جامعة طهران / سنة 1958م.

4) أنظر : ص 324 من ج 2من كتاب سبكشناسي : (كَـفتارينجم – مقامه نويسي در عرب).

5) مجلس كَـفتن : Majles - goftan

6) مجلس كَويـــي: Majles - goiy

كَاه"[7] لأن مــن معاني " المقام " في ايران اللحــن الموسيقى، ويقولــون :

– فلان كس مقام ميزند. (يلحن فلان مقاما).

– فلان كس مقام مينوازد : (يعزف فلان مقاما). أو يقولون :

– مقامى خواند. (غنى مقاما). أو :

– مقامى زد. (نقر فلان مقاما. أو غنى مقاما).

وتلفظ عامة الناس في خراسان[8] هذه الكلمــة " مقوم " بضم الميم الاول وسكون الميم الاخير ويتصور بأن هــذا المعنى قد بقى في ايران من " مزديسنان "[9] وأن كلمة " كَاه " اعنى " كَاثا " ترجمت يوما ما الى احــدى معانيهــا، وهي " المقام "، لان كــانت " كَــاه " ات أو المقامــات المذكورة ممتزجة بالالحان الموسيقية، ولأن كان لاشعارها الهجائية، نفس الموازنة والفــواصل والقرائن والقطع والسكوت الــذي نلاحظه في المقــامات

---

7) كَــاثــا : Gatha، كَــاس : Gasse، كَــاه : Gah، لفظ أوستائي في مراحل تطوره الثلاث، تطور خلال تطوراللغة، وباحدى معانيه العديدة، وهو فصل من كتاب الافستا، كتاب ديني المجوس يشتمل هذا الفصل على أنــاشيد، ذات أشعار هجــائية، المشتملــة على فواصل، وكل فصل على قطعات، ولكل قطعة مصاريع، ولكل مصراع لها هجاءات مــا. وللفظ " كَــاه " معاني عديدة، منها بعض ما ورد في المعجم الفارسي فرهنك معين :

الف = كَــاه Gah من الفهلوية : كَــاس Gasse، : عرش، مسند، كرسي، مكان... وفي مصطلح النرد والشطرنج : يك كَــاه = البيت الاول. دوكَــاه = البيت الثاني....الخ.

ب – كَــاه Gah من الفهلــوية : كَــاس Gas (في الموسيقى) : لحن، غنــاء، نشيــد. ومن المصطلحات الموسيقيــة في ايــران : سه كَــاه = المقام الثالث، جهار كَــاه = المقام الرابع...

(لفظ " سجاه، المصطلح في الموسيقيــة الاندلوسية، مصطلح دخيل من الفارسيــة وأصلــه : سه كَــاه (المقام الثالث).

8) خراسان : Xor-asan اقليم في شمال الشرق لايران الحاليــة، يجاور افغانستان شرقــا وروسيا شمالا، ومعناها كما ورد في معجم البلدان / ج 2 / ص 409 / ط طهران :

".. وقيل خر إسم للشمس بالفارسية، وآســان : كأنه أصل الشيء ومكانه..." وجاء في المعجم الفارسي فرهنك معين : " خراسان Xorassan من الفهلــوية : Xavarasan : مشرق / مقــابل بابل : مغرب ". وعاصمــة هذا الاقليم هي : مشهد، ومدنه المشهورة هــي : نيسابور، طوس، سبزه وار، و... ولهذا الاقليم تأثير كبير في الادبين العــربي والفارسي، وبيئتة الادبيــة – البيئة الخراسان – في عصرى الاموى والعباسي، معروفة.

9) مزديسنان Mazda - yasnan : اتباع زراتشت، نبي المجوس.

العربية، ولهذا فمصطلح " مقام خواندن "[10] (تلحين المقامة) الذي هو ترجمة صحيحة لـ : " كَاه خواندن "[11] صار معروفا في اوساط الايرانيين قديما.

وفي الادب الفارسي، قد لقب البلبل بـــ : " زند خوان "[12] أي مغنى كَاثا والأفستا[13]. وهذا يبين بان تلحين الافستا وزند، كان نوعا من الموسيقى والمقام، كما ان لـ " بيد خوانى "[14] في الهند، عنوان خاص. وفيما بعد راجت المستعربة نفس المعنى بعد انصرافها عن الجانب المذهبي الزرادشتى، ومراسيم مزديسني[15]. ثم وضع اللغويون وجوه التسمية للمقامة والمقامات.

" مجلس كَفتن " او القراءة القصصية الملحنة، تعنى اصطلاحا " تكيه بصوت " (الاتكاء على الصوت)[16]، ما تزال معمولا بها في البلدان الاسلامية، ولا شك ان الزهاد في مجالس الملوك كانوا يؤدون كلامهم بلحن خاص، وبالنغمة التي يكون لها تأثير أكثر في المستمع. ومن العجيب أن المتسولين من ايرانيين وعرب، لا يزالون يظهرون السؤال ملحنا ومسجعا وبالموازنة. وهذا أثر باق عن كيفية بيان الزهاد والفقراء الحقيقي في المجالس والخوانق. والمقامات، من صنف هذه القراءات التي تؤدى للقراءة القصصية أو للوعظ في المجالس العمومية. وقد كانت لها اسجاع لطيفة والحان جميلة وعبارات مقبولة وشعريات. وقد استفاد كتاب المقامة العربية من هذه المعاني، ووضعوا هذه التسمية على

---

10) مقام خواندن : Magam - khandan

11) كَاه خواندن : Gah - khandan

12) زند خوان : Zand - khan، زند = تفسير الافستا، وخوان = قاري، أي : مقرى زند، مقرى تفسير الافستا.

13) الافستا : الابستاق : أوستا Avesta كتاب زرادشت نبي المجوس، ولغة دينهم ايضا.

14) – بيد خوانى : Bied khani : قراءة بيد، تلاوة بيد (كتاب ديني عند الهنود).وبيد : بالكسر، بلغة اهل الهند، اسم كتاب مشتمل على احكام دين الهنود وباعتقادهم كتاب سماوى « آنندراج» (أنظر معجم، اندراج).

15) مزديسنى Mazda yasni : منسوب باتباع زراتشت.

16) تكيه بصوت، باللغة الفارسية تعني الاتكاء على الصوت، مصطلح فارسي في علم اللسانيات يرادف : Accent - musical.

أقـاصيصـهم الموضـوعة. لأنهم كـانـوا يلحنـونها في المجالس والأنـديـة والمحافل وكان الناس يتلذذون بها. ولا تتناسب معاني المقامات الواردة في كتب اللغـة، وأصل : قـام، يقوم، مقـامـا. ومن الـواضـح أن وضعت تلك المعاني بعد أن صار هذا الاسم علما على الفقرات المذكورة".

(هنـاك ينتهي الهامش الـذي أضـافـه الاستـاذ المحقق لشرح كلمـة "المقامات" ثم يقول):

"والمقامات التي نقصد هاهنا، تعنـي الروايات والخرافات التي يؤلفها شخص مـا، ويلقيهـا بنفسـه أمـام جمع من النـاس، بعبـارات مسجعـة وملحنة، أو يكتبهـا هو ويلقيها آخـرون في المحافل العامـة او في المجالس الخاصة، ويطربون بلحن الكلمات وباسجـاعها التي تشبه سجع القمري وهديل الحمام.

وهناك تختلف الآراء حول أول من كتب المقامة باللغة العربية ؟

يعتقد الحريري (وهو المتوفى عام 516 هـ)[17] – في مقدمة مقاماته – بأنها هي من مبتكـرات بديـع الزمـان الهمذاني، ويـؤيـد الآخرون رأيـه بـالمتـابعة. ويعتمـد بعض المتأخـرين من العلماء على روايـة أبي اسحق الحصري، بأن الواضـع الحقيقي للمقامات،[18] هو ابن دريد (ت391 هـ). ويظن الآخر على بديع الزمان بأنه لم يتأثر من الآثار المتفرقة الباقية من ابن دريد، وهو في فنـه مبتكر. من الواضـح ان تسمية " المقـامات " هي من ابـداعـات بديع الـزمـان، واما ابن دريد فقـد سمى مجالسـه ب " الاحاديث ".

وبديع الزمان، هـو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني (358 – 398هـ)، الشاعر والكاتب المشهور عند العرب والفرس، الذي قال الثعـالبي في حقـه بأنـه :" استمطـر بعطاءات ملـوك الـديلم وآل زيـار،

---

17) وهو أبو محمد قاسم بن علي الحريري، صاحب المقامات (464– 516هـ). (بنقل عن هامش ص 325 مـن كتاب سيكشناسي / ج 2).

18) راجع زهر الاداب للحصرى / ط 2 / القاهرة / ص 307 / الجزء الاول " النثـر الفني ". ويعتقد بعض أهل الفضل بأن بديع الزمان قـد اقتبس كتابة المقامة من استاذه أبي الحسين أحمد بن فارس، المتـوفى سنة 395، ولكن لا وجود لمقـاماته. (تاريخ الادب العربي / ص : 396، منقول عن كتاب سيكشناسي، ج 2/ص : 326).

ونيمروز، والغزنـويين، وبصلاتهم وجوائزهم، وكانت له شهـرة بالغة في بغداد وبلاط الخلفاء... "[19].

ومقامـات بديع الزمـان، هي الاقاصيص المروية التي عـرفت ببطلها الخيالي " أبي الفتح الاسكندري " – مخلوق فكر بديع الزمان – وكذلك شأن راويها " عيسى بن هشام " الذي يروي لطائف الحيل وزبد أعمال البطل، في عبارات مزينـة لطيفة، يجتاز العبرة والاعجاب والفـرح والتقدير لسامعيه وقرائه.

قال الثعالبي : ".. وأملى (بديع الزمان) أربعمائة مقامة ". غير انه لم يصل لنـا أكثر من اثنين وخمسين مقـامـة طبع في استانبـول، وليس في طبعة طهـران، وفي غالب النسخ الخطيـة الموجودة منهـا اكثر من أربعين مقامة.

زاد بديع الزمان الهمذاني – بكتابة مقاماته – الى حرية الكتاب. ومن عهده أي من أواخر القرن الرابع الهجري، أشاع في النثر السجع والتكرير والاطناب والاسهاب، وغيرها من الصنائع البديعية، اشاعة تامة.

استعمال السجع وتقليـد الكهنة، والاقتفـاء بالآيـات القـرآنية كـانت ممنوعـة ومكروهة في فترة طويلـة من الزمان، وكان الادبـاء العرب – في القرنين الثـالث والرابـع من الهجرة – يجادلـون حولها، ويتـدبرون على اثبات عـدم كراهيتهـا وجوازهـا، وصاروا يخترعـون الخطب والـرسائل المنسوبـة الى أئمة الدين والخلفاء والاقـدمين، حتى أصبح السجع مقبولا

---

19) – لقد مدحه الثعـالبي في كتابه يتيمة الدهر / ط : دار الكتب العلميـة / ج : 3 – 4 /ص: 256، وقال عنه : ".. و احمد بن الحسين بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك... فارق دنيـاه في سنـة ثمانيـة و تسعين و ثلاثمائة.. و كـان يترجم مـا يقترحـه عليـه من الأبيـات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة، بـالابيات العربية، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع الى عجائب كثيرة لا تحصي..فـارق همذان سنة 380، وقـد درس على ابي الحسين بن فـارس،.. وورد حضرة "الصاحب ابـي القاسم"، فتزود من ثمارها وحسن آثارها،.. ثم قدم جرجان، ـ وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية، ولما استقرت عـزيمته على قصد "نيسابور"، اعانه " الصاحب" على حـركته، وازاح عللـه في سفرته، فـوافاهـا في سنة اثنين وثمانين وثلثمائة، ونشر بها بـزه، واظهـر طـرزه، واملي اربعمائة مقامـة نحلهـا ابا الفتـح الاسكنـدري في الكدية.

عند عامة الناس، حيث نجد وزراء كـ : "ابن العميد"[20]و" الصاحب بن عباد "، وكتاب كـــ : الصابى[21]، وأمراء كـ : شمس المعـالي قابوس[22]، يطرقون هذه الطريقة، وهم من طلائع هذه القافلة.

ولم يمض زمان – وكما أشرنا – فانهض الحريري (464 – 516هـ) وقلد البـديع، وزين مقاماته بـالتكلفة والصنعة. وهكذا وتخاطفـوا هؤلاء الكتاب كل ما كان عند الشعراء وسووا النثر مع النظم.

" تأثير كتابة المقامة العربية في الادب الفارسي ":

" يتبين لنا خلال تجربتنا بـأن كل ابداع واختراع، مما وقع في الادب العربي، من اتيان بصنعة أو اظهار تكلفة، أو بيان طرافة في معنى جديد، فبعد قرن ظاهر مثله في الادب الفارسي..."

وهكذا ويأتي الباحث الاستـاذ ملك الشعراء بهار، بشرح حول كيفية خلق النثر المصنوع في الادب الفارسي وظهور كتـابة المقامة في هذه اللغة، وفي القرن السادس الهجري، ويلاحظ بأن :

"..أقـدم مـــوضع استعمل فيـــه لفظ المقـامـــة، كتـاب "التـــاريخ البيهقي"[23]، حيث نجد فيه عنوان :

---

20) ابن العميـد، ابو الفضل، ولـه من الكتب : كتاب ديوان رسائله، كتاب المذهب في البلاغات. أنظر : الفهرست / لمحمد بن اسحق بن النديم / ط : القاهرة.

21) الصابي، وهو ابـو اسحق ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهروز، مترسل بليغ شـاعر عالم بالهندسة والغالبطيه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر، توفى قبل الثمانين وثلثمائة. (الفهرست / ص 199 / القاهرة).

22) شمس المعالي، قابوس بن وشمكَير الزياري، حاكم طبرستان (366 – 403 هـ) ومؤلف كتاب قابوسنامه كتاب مشتمل على موضوعات تتصل بمباديء الاخلاق وقواعدها، وقد ألفه شمس المعالي في سنـة 405 هـــ، ووجهه الى ابنـه " كَيلانشاه " في اسلـوب نثـرى بين الصناعـة والبساطة وذلك بلغتـه الفارسية. طبع هذا الكتـاب في طهران.(انظر تاريـخ الادب في ايران / ادوارد براون / تعريب الدكتور الشواربي / ط مصر، وايضا كتاب سبكشناسي / تأليف ملك الشعراء بهار).

23) كتاب تاريخ البيهقي : من أمهـات كتب التاريخ والادب الفـارسي في القرن الخامس الهجـري ومؤلفه هـو ابوالفضل محمد بن الحسين البيهقـي، ولد سنة 385 هجرية في قرية حارث آباد البيهـــق (في محافظة خراسان)، وتوفى سنة 470 هجرية. (انظر: تاريخ ادبيات درايران / الدكتور ذبيح الله صفا / طهران).

" المقامة في معنى ولاية العهد بالأمير شهاب الدولة مسعود وما جرى من أحواله ": كما نجد هذه الكلمة في تسمية كتاب " مقامات أبي نصر مشكان " الذي ورد محمد العوفى[24] بعض فصوله في كتاب " جوامع الحكايات "[24]. ليس هذان مصدران تقليدا للمقامات العربية، ولكن هناك كاتب فارسي آخر قلد بديع الزمان الهمذاني والحريري معا. واسمه كما ورد في تذكرة " دولتشاه السمرقندى " الفارسية هو : " القاضي الامام حميد الملة والدين، عمر بن محمود المحمودي البلخى "[25] قاضي القضاة بلخ الذي توفي سنة 559 الهجرية، والذي يمدحه " الانورى " – الشاعر الفارسي الشهير – والابيات الآتية من شعره تشهد باهمية مقامات القاضي حميد الدين، ومدى اعجاب الفرس وتقديرهم له :

هرسخن كان نيست قرآن يا حديث مصطفى
أزمقامات حميد الدين شداكنون ترهات

اشك أعمى دان مقامات حريري وبديع
پيش آن دريای مالامال از آب حيات

شاد باش اي عنصر محموديان راروى تو
روكه تومحمود عصري مابتان سومنات

---

24) محمد العوفي، وهو سديد الدين (نور الدين) محمد بن محمد العوفي البخاري، من مشاهير العلماء والكتاب الفارسي، في اواخر القرن السادس واوائل القرن السابع الهجري، ومن أعقاب عبد الرحمن بن عوف، ولذا اشتهرت عائلته بالعوفى. ومن تأليفاته : كتاب جوامع الحكايات ولوامع الروايات باللغة الفارسية، يتضمن الفوائد التاريخية والأدبية، وذلك في أربع أجزاء، و كل جزء منه في خمسة وعشرين باب. طبع في طهران بتصحيح وتنقيح الاستاذ الدكتور محمد معين.

25) انظر تاريخ الادب في ايران / لادوارد براون / تعريب الدكتور الشواربي / ط القاهرة / ص 439.

آز مقامـات توكَـر فصلي بخـوانـم بـر عـدد

حال ازنا منطقى جذر أصم بابد نجـات[26]

وأمـا أقدم مـوضـع وردت فيه مقـامـات حميد الـدين – بعد مـدائح الانوري– فهـو في كتاب "جهـار مقالـه" (المقالات الاربعـة) للعروضى السمرقندي[27] الذي ألفه سنة 551 أو 552، أي في عام تأليف المقامات أو سنة بعـده. ثم ورد ذكره في ديبـاجة كتـاب " مرزبـان نامـه " للكاتب السعد الـديـن الوراويـني، الـذي ألفـه ما بـيـن سنتي 608 – 612 [28].

---

26) هذه الابيات للشاعر الفارسي المشهور، أوحد الدين محمد بن محمد الأنوري الأبيوردي، وعدد الابيات المذكورة، عند ملك الشعراء بهار ستـة، كما هو عند براون في كتابه تاريخ الادب، وقد ترجمها الدكتور الشواربي عند تعريبه كتاب تاريخ الادب على النحو التالي :

1 ـ كل كـلام لا يكون من الاحاديث النبـوية أو من القرآن وآياتـه – اصبح بعد مقامـات "حميد الدين " من لغو القول وترهاته.

2ـ فاعتبر مقـامات " الحريري " و" بديع الزمـان " هي دموع العميان – وأما مقـامات حميد الدين فهي البحار المليئة بماء الحياة.

3 ـــ فاسعـد حالا... يـامن أنت طليعة الشعـراء المبـــرزين – وسر قدمـا. فانك محمـــود هـذا العصـــر.
(سلطان محمود الغزنوي الذي غزا الهند وفتحها)، وما نحن الا اصنام " سومنات " (المعبد الهندي التي حطم " محمود " ما بها من الاصنام).

4 ـ ولو أنني قرأت فصلا من مقاماتك علي العدد – لينجو الجذر الاصم حالا وبغير منطق.

27) أحمـــد بن عمـــر بن علي الملقب بـ :" نجم الـدين " المشهـــور بتخلصه الشعـري (لقبه الشعري " النظامي العروض السمرقندي " نسبـة الى سمرقند، من الشعراء الكتاب الفارسي في القرن السادس، وسبب خلـود اسمه –كما يقول ادوارد براون في تاريخ الادب في ايران– فيرجع الى كتـابه : چهارمقاله أي (المقـالات الاربعـة) في (الكتـابـة – والشعـر – والطب – والنجوم) تأليف بـاسلوب نثري متين خـال عن الزوائد غـاية في الاتقان، طبع عـدة مرات في ايران، وآخر طبعه بتصحيح وتنقيح الاستاذ العلامة الدكتور محمد معين. وكتاب چهار مقالة تصحيح معين، مقرر جـامعي، ترجم الى الانجليزية، كما تـرجم عدة مرات الى اللغة العـربية آخر تعريب هذا الكتاب هو للاستاذ محمد بنتاويت.

28) سعـد الديـن الـوراويني : المنســوب الى " الوراويـن " وهي كما يقول صاحـــب معجم البلدان : " بليـدة طيبـــة، كثيرة الخيرات والميـاه، التي تقع في جبـــال اذربيجـان بين أردبيل وتبريز... ".
وقد قـام الوراويني بنقل وتلخيـص كتاب مرزبان نامه من تأليف مـرزبـان بن رستم بن شروين ومن لهجته الطبرية الى الفـارسية الادبية، وباسلـوب نثري مصنوع، وذلك فيما بين سنتي 607 – 622 وقدمـه الى "الاتابك أزبك بن محمـد بن ايلدكز" ووزيـره " ابي القاسم هرون بن علي دندان ".

ثم يـأتي " العـوفي " بذكره في كتـاب " لباب الالباب " الذي ألفـه سنة 617، ويذكر فضائل القاضي حميد الدين بأنه قرينة الصابي وأبي نواس، في النثر والنظم، ويشرح رسائله[29]. وأخيرا ويأتي ابن الأثير بذكر وفاته في حوادث سنة 559، ويقـول :"ولـه مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريري بالعربية "[30].

وكان القاضي حميد الدين – بمقاماته – يقصد متابعة مقامات البديع والحريري، الاثنين معا.

وليست مقـامـاته على نمط مقـامـات الحريـري فقط – كما زعم ابن الاثير – لان القاضي، اولا : لم يبحث عن التكلفات والصنـائع، واللزوم ما لا يلزم التي ملئت مقامات الحريري، ثانيـا : ان اكثر مقاماته – على وجه التقريب – تـرجمة ونقل لخرافات بـديع الزمـان الهمذاني، مثل مقـامته الاثنين وعشرين، أي :"المقـامـة السكباجيـة " التي هي تـرجمة لفظيـة للمقامة المضيرية لبديع الزمان، وتقليد صرف لها ".

وهناك يذكر الاستاذ المحقق الخصائص الاسلوبية لمقامات الحميدي، ويحسب تسعة عشر مورد منها، ويشرح كل مـورد من مواردها، ويقارن هذا الكتاب بترجمة نصر الله المنشي، ويجده أقل نضجا وجزالة منه، كما يلاحـظ بأن كتاب " كَـلستان " لسعدي الـشـيـرازي (ت694هـ)[31].

---

29) كتاب لباب الالباب : يعتبر من أهم الكتب في تـاريخ الادب الفارسي، نظـرا الى ما ورد فيـه من تراجم بعض الشعراء الذين كانت أخبارهم تنـدرس كلية، ولو يرد قبل ذلك ذكرهم. وقد ألفه "عوفي" قبل كتابه الآخر جوامع الحكايات الذي سبق ذكره في الهامش المرقم (24).

30) أنظر : كامل التواريخ / حوادث سنـة 559 / تأليف أبي الحسن عـز الـدين علي بن محمـد الملقب بابن الاثير / ط :القاهرة.

31) كتاب كَـلستان (روضة الورد) : من أجمل ما انتجه الفكـر الانساني، كما قاله ادوارد براون في كتابه تاريـخ الادب في ايران . ويعتبر فاتحة الـدراسات الادبيـة التي تقدمت لطلبـةاللغة الفارسيـة. وهو نـوع من المقامـات ومجموعة من الحكـايات التي صنفهـا الشاعـر الفارسي الشهير " سعـدي الشيرازي " (606 – 691هـ) مـن ملاحظـاتـه المختزنة وتجاربه المكتنزة، ضمن اسفـاره المتعددة، مسطـور في اسلـوب منثور، يختلط بـه كثير من الأبيـات المنظومـة بالعربية والفـارسية، ترجم كتاب كَـلستان الى جل لغـات العالم. وترجمـه الاستاذ محمـد الفـراتي سنـة 1962م إلى العربيـة وطبعـه بـدمـشـق، تحـت سلسلـة "روائـع الأدب الشرقـي".

أكثر فصاحة وأعذب نطقا منه وأما في كيفية بداية مقامات الحميدي ونهايتها، فيقول :

" تبتدى مقامات حميد الدين كلها على روال واحد، مثلما تنتهي كذلك. ويأتي حميد الدين بعبارة :" حكايت كرد مرادوستى كه " (حكى لى صديق) في بداية كل مقامة، كما يختلف بطل روايته عند الخاتمة دائما مضافا بقوله : " ندانستم كه كجارفت " (ولم اعرف اين ذهب بعد). ثم يبين هذا المعنى باسلوب عصره، بقطعة من أجود شعره، المشحون بتشبيهات ربيعيات وقطعات جذابة. كما تحتوي مقاماته على موضوعات علمية كثيرة، في الادب والفلسفة، والفقه والتصوف، تشهد على فضل مؤلفها وأستاذيته ".

ويختم الاستاذ مقاله بعد اختيار " المقامة السكباجية " كنموذج من مقامات الحميدي، ويدخل فيها علامات الكتابة الحديثة، ليرتقي لطف كلام حميد الدين، ويثير رغبة قارئه عند المطالعة :

"المقامة السكباجية "[32] :

---

32) سكباج، وسكباجية، بكسر الاول، معرب : سكبا، سركه با، مطبوخ البقولات والخل وهو عنوان لمقامة الاثنين وعشرين، من مقامات القاضي حميد الدين، وتقليد من المقامة المضيرية لبديع الزمان الهمذاني، كما ورد ذكره في تعريب المقال المنتخب.

وأما مؤلف كتاب سبكشناسي فهو الاستاذ ملك الشعراء بهار، محمد تقي بن محمد كاظم صبوري، آخر من تلقب في ايران بملك الشعراء – بعد والده – ولد في مدينة مشهد، حاضرة محافظة خراسان الحالية، وقد درس العلوم العربية والفارسية، في مسقط رأسه، على أبيه، وعلى بعض المعاريف من أدباء خراسان، كما أخذ ينظم الشعر، وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، وقد اصبح شعره، وهو في سن العشرين، موضع اعجاب الأدباء الفارسية، ونقاد آدابها في عصره. وكان الانتقاد الصفة الغالبة لشعره. وعند ما عمت النهضة الدستورية جميع أنحاء ايران، سنة 1314هـ / 1901م، وتغيرت أحوالها الاجتماعية والسياسية، اصدر بهار جريدة باسم نوبهار (الربيع الجديد)، ثم جريدة تازه بهار (الربيع الطازج)، بينما كان يهتم بالمطالعة وتثقيف نفسه، وتحصيل المزيد من العلوم والمعارف وانتخب نائبا في المجلس الايراني، ولهذا انتقل الى العاصمة، ونقل جريدته نوبهار ايضا من مشهد الى طهران. وهناك انشأ جمعية باسم " انجمن أدبي دانشكده " وأصدر مجلة دانشكده أي (دار العلم والكلية) التي كان لها أثر بالغ في تجديد حياة النهضة الادبية في ايران، ولكن لقى بهار من ورائها السجن والتبعيد مرتين، أحدها سنة 1348 هـ. والثاني سنة 1353هـ، تقلد بهار منصب التدريس بجامعة طهران التي هو من مؤسسيها. كما شارك في تأسيس "فرهنگستان "أي الاكاديمية الايرانية سنة 1358هـ/1935م. =

"حكايت كـرد مرادوستى كه دركَـفتار أمين بود، در أسرار ضمين، يـيـشـرو ارباب وفا، وسردفتر أصحاب صفاكه :... ".

(حـكـى لى صـديـق، الـذي كـان أمـيـنـا فـي كـلامـه، وضـمـيـنـا في أسـراره، رائـد ارباب الوفـاء، وديـبـاجـة أصحاب الصفـا، بأنـه : ... الـخ).

= لقـد أصيب الاستـاذ في السنـوات الاخيرة من عمـره، بمـرض السل – وذلك من جـراء سجنه ـ الـذي أقعـده من أي نشاط ما عـدا نظم الشعر، وتغلب عليه مرضـه في ربيع عام 1952م / 1375هـ، حيث تـوفى، عن عمر يناهـز ست وستين سنة، ودفن في مصيف شميران قرب طهران.

يعتبر " بهار" أمير الشعر الفارسي، خلال القرن الرابع عشر الهجري، وهو زعيم المجددين في النظم والنثر الفارسي الحديث. وكان له الماما تـاما باللغة العربية وآدابها، وكان يستعين كثيرا بالكلمات العربية الفصحى في نثره ونظمه.

كانت لـ " بهار " مكتبة تحتوي الالاف من الكتب القديمة الخطية والمطبوعة، خاصة دواوين الشعراء العـرب من قبل الاسلام وبعده، ومن المعـاصرين أيضا. وكذا كتب في اللغة العـربية، قواميسها وموسوعاتها.

لقد ترك الاستاذ بهارآثارا كثيرة من نتاج أفكاره، منها :

1 – ديوانه الشعري الكبير، بالفارسية، المطبوع في مجلدين ضخمين.

2 – تصحيح كتـاب تاريخ سيستان بالفـارسية، ومن تأليفـات القرن السـابع الهجري، لمؤلف مجهول.

3 – تحقيق وتصحيح كتـاب مجمل التواريخ والقصص مـن تأليفـات القـرن السادس، وقـد صرح مؤلفـه المجهول، في مقـدمة الكتـاب بأنه ألف كتـابه هـذا، سنة 520هـ في عهـد حكم السنجرومحمـود بن ملكشـاه السلجوقي. ويحتـوي الكتاب، تاريـخ ايران والعـرب والخلفاء وسلاطين ايران حتى أوائل القـرن السادس الهجري، ولمؤلف هذا الكتاب تأليف آخر في أخبار البرامكة .

طبع كتابان تاريخ سيستان و مجمل التواريخ والقصص على نفقة وزارة المعارف الايـرانية، وباشراف المحقق على الطبع والتصحيح والتنقيح.

4 – ترجمة رسالة النفس لأرسطو.

5 – كتـاب سبك شناسي (معرفـة الاسلوب)، في تـاريخ تطور النثـر الفارسي، في ثـلاث مجلدات مطبـوعة، وهـو مقرر جـامعي لتـدريس تاريـخ التطور الفـارسي. وكان الاستـاذ " بهار " مؤسس كرسي هذه المادة، ومدرسها في جامعة طهران، وفي مدرسة العليا للاساتذة بطهران.

(لمزيد من التفصيلات حول حياة الاستاذ " بهار " وآثاره، يمكن الرجوع الى فرهنك فارسي معين والمعجم الفارسي، لغت نامه دهخدا وأيضا دراسات في الادب المقارن للدكتور بديع محمد جمعة / الطبعة الثانية / بيروت / سنة 1980).

اللسانيات

الـزمــن والجهــة

عبد العزيــز العمـاري
كليــة الآداب – مكناس–

ملخص :

يـلاحظ المتتبع لكتب النحـو والبلاغـة العـربيين أن دراسة النظـام الـزمني والجهوي في العـــربية لم يحظ بما يستحقـه من الأهمية. وفي هذه المقـالة ساحاول أن أقوم بمقاربة هذا الموضوع، حيث سأناقش المصطلحات التالية : الزمـن، الجهة (= Aspect)، النمـط (= Mode)، النمطيـة (= Modalité)، التناسب الزمني (Concordance de temps).

1 – أهتم النحـاة العرب بالـزمن الصرفي، حيث كـانوا يعزون الـزمن للبنيـة الصرفية لـلأفعـال، وللأدوات مثـل : لم، لن، وللظروف، وأهملـوا الـزمن النحـوي الـذي يحدده السياق الجملي أو الخطـابي، فـاستمـروا يقسمون الزمن إلى الأحياز الثلاثة : الماضي، الحال، المستقبل، وهذا تقسيم منطقي. وغـالبا ما يعبرون عنـه بخليط من المقـولات الشكلية والمعنـوية، فيقـولـون مثـلا : الماضي والمضـــارع والأمـر. الماضي معنى زمني، ولكن المضارع ليس كذلك، فهو شكل يصلح أن يعبر بواسطته عن معنى زمني يـدل على الحال أو المستقبـل أو الماضي. و" الأمـر " كـــذلك ليس معنى زمنيا، وإنما هو نمط (Mode) قد يدل على معنى زمني.

وقد تنبـه بعض الباحثين المحدثين في الميدان اللغـوي إلى هذا النقص، فحـاولوا إعـادة النظر في النظـام الزمني والجهي العـربي، فكانت نتـائج

بحثهم مهمة، وقد استطاع تمام حسان أن يحدد الجهات الزمنية العامة[1].

لكن المشكل الذي يفرض نفسه يتمثل في صعوبة التمييز بين الجملة التي تتوفر على مسند واحد (=الجملة البسيطة) وبين الجملة التي تتوفر على مسندين (= فعل 1، عفل 2) أي على زمنين (ز1وز2)،

ذلك ما تمثله الجملتان على التوالي :

أ – استأصلت من جسمي شوكة

ب – استأصلت من اعتقاده أن تكون خائنا

اعتبرنا الجملة (ب) جملة مركبة، لأنها تتركب من مسندين يطرحان مشكل التناسب الزمني. وهذا الاعتبار لايتناقض مع القاعدة الأساسية، وهي أن كل جملة تعامل معاملة الجملة البسيطة عندما يتعلق الأمر بالمواقع التركيبية : فعل، فاعل، مفعول 1، مفعول 2. وعندما يميز M.Gross بين الفعل الرئيسي (Verbe principal) والفعل المصدري (Verbe de la complétive)، فإنه يهدف إلي التمييز بين نوعين من الجمل، وإن لم يصرح بمصطلح جملة مركبة أو معقدة.[2]

2 – تعتبر مقولة الزمن مقولة معقدة، ولا أدل على ذلك من وجود تسميات مختلفة : الزمن الصرفي، الزمن النحوي، الزمن المنطقي، الخ. وقبل أن نتتبع تطور مختلف الآراء في هذا الموضوع، لابد من التركيز على مبدإ أساسي : إن لكل لسان نظاما زمنيا خاصا به. هذا ما يؤكده H. Weinrich: " لابد أن توضع لكل لغة وظيفة زمنية خاصة بها.[3] ويؤكده أيضا J. Lyons: " من غير الممكن عرض التنوع الكبير للأنظمة الزمنية التي نجدها في مختلف اللغات "[4]. رغم ذلك، فإن هذه

1) اللغة العربية : معناها ومبناها – ص : 240 – 260.

2) M. Gross Méthode en syntaxe, pp: 65 - 75

وانظر كذلك كتابه :

Grammaire transformationnelle: syntaxe du verbe, p: 21

3) – Horald Weinrich - le Temps, p: 11

4) J. Lyons - Linguistique Générale - p: 234.

الخصوصيـة لاتمنع من وجود خصائص مشتركـة. يرى Jespersen أن الزمن الحقيقي يعكس الزمن النحوي ويقترح الشكل التالي :

حيث يساوي " قبل " الماضي، ويساوي " الآن " الحال أو الحاضر، ويساوي " بعد " الاستقبال. ثم يقسم الماضي إلى ما قبل الماضي وما بعده، ويقسم الاستقبال الى ما قبل الاستقبال وما بعده، فينتج عن هذا التقسيم نظام زمني متكون من سبعة أحياز تتوفر عليها كل الالسن جزئيا أو كليا.(5) لكن J. Lyons يرى أنه من الممكن تصور تقسيمات أخرى، فنقطة الصفر النظرية قد تتداخل مع حيز الماضي، مما يؤدي الى التقسيم الثنائي التالي : ماض / لاماض، وقد تتداخل مع حيز الاستقبال، فيكون الناتج هو : استقبال / لا استقبال.(6) فكأننا نريد أن تنتظم الأحياز الزمنية حول حيز زمان الحال الذي يعتبر زمن التحدث.(7)

رغم ملاحظات J. Lyons فإن فرضية Jespersen تبقى مقبولة لأنها تتميز بالشمولية، حيث تصح لأن تطبق على الانظمة الزمنية المختلفة. والمشكل المطروح هو : ما هو المجال الذي يصلح أن يطبق فيه هذا التقسيم الزمني ؟ يختلف الباحثون في هذه القضية، فمنهم من يرى أن النظام الزمني لايمكن أن يحدد داخل الجملة منعزلة عن سياق أكبر (= هو الخطاب)، ويقترحون الانطلاق من النص عند دراسة كل نظام زمني. هذا ما يدعو إليه H. Weinrich(8) ومنهم من ينطلق في دراسته من الجملة

O.Jespersen - La philosophie de la grammaire pp: 359, 360, 363. (5
وانظر كذلك كتابه :
- J. Loyons - Linguistique Générale - p : 234.
- J. Loyons - Linguistique Générale - p : 234. (6
- T. Todorove et O. Ducrot - Dictionnaire (7
Encyclopédique - p: 398.
- H. Weinrich - Le Temps - p: 13. (8

دون أن ينسى أن اللجوء إلى عناصر خارج الجملة أمر ضروري. وهذا هو العمل الذي يتبناه أغلب الباحثين في هذا الميدان.

يعبر عن الزمن النحوي بوسائل مختلفة، فلا يقتصر التعبير عنه على صيغة الفعل[9]. يصدق ذلك على كل الالسن، ففي العربية، مثلا، يرى تمام حسان أن " الزمن النحوي وظيفة في السياق يؤديها الفعل أو الصفة أو ما نقل عن الفعل من الاقسام الاخرى للكلم كالمصادر والخوالف "[10]. ويضع C. Rocher، في الاطار نفسه، قاعدة دقيقة : لتعريف البنية الزمنية للجملة، يجب أن ندخل في الاعتبار ثلاثة عوامل :

- دلالة الصيغ الزمنية
- دلالة ظروف الزمن
- البنية الزمنية للسياق الذي يعبر عنه الفعل[11].

لكنه يؤكد على ضرورة وضع قواعد دقيقة توضح تفاعل هذه العوامل[11]، وعلى ضرورة الاعتماد على المنطلق الزمني، لأنه يستطيع تزويد الباحث بوسائل ناجعة للوصول الى الهدف[11]. غير أن H. Weinrich يرى ضرورة الفصل بين الاشارات الزمنية (التواريخ والظروف)، لانها غير ثابتة وغير متواترة، وبين الازمنة الناجمة عن الافعال، لانها تتميز بالثبات والاستقرار[12]. وفي الواقع فان التكامل بين كل هذه الوسائل يصبح في بعض الاحيان أمرا ضروريا.

3 – ويطرح السؤال التالي نفسه : هل يمكن الحديث في العربية عما يسمى في الانحاء الغربية بالنمط (Mode) ؟ يرى بعض الباحثين في الميدان اللساني العربي أن الجملة المصدرية المصدرة ب (أنْ) والذي يكون الفعل بعدها مضارعا منصوبا تعتبر " Subjonctif " وأن الجملة المصدرية

---

9) P. Fabre et C. Baylon - Grammaire Systématique p: 81.

10) اللغة العربية: معناها ومبناها، ص: 240.

11) C. Rohrer - Quelques remarques sur l'analyse de la forme progressive de l'anglais p: 29.

12) H. Weinrich - Le Temps - p: 17.

المصـــدرة ب (أنّ) تعتبر " Indicatif "[13]. إذا تبنينـا هـذين المصطلحين الغـربيين، فإن شكلي الجملتين المصـدريتين يكـونـان عبـارة عن نمطين مختلفين. وقد أحس بعض النحاة العرب بضرورة هذا التمييز، حيث تفيد الجملة المصـدرية المصـدرة ب (أنْ) التحقق،[14] وتفيد الجملة المصـدرية المصدرة ب (أنْ) (والتي يكون الفعل المضارع بعـدها منصوبا) الاحتمال. ورد في شرح الكـافية أن (أنْ) " تكـون في المضـارع مصـدرية نـاصبـة مخلصـة للاستقـبـال "[15]. والاستقـبـال غالبا ما يكـون متضمنا لمعنى الاحتـمـال. معنى هـذا أن شكـل الجمـلـة التي تـأتي مبـاشرة بعـد الأدوات المصـدرية تـدل على نمـط معيـن. لكن اعتـبار النمط الناتـج عن أنْ ج معادلا لما يسمى فـي الفرنسيـة : "Subjonctif" والنمط الناتـج عن أنّ ج معـادلا لما يسمـى فيها " indicatif" فيه تعسـف.

فما هو النمط، إذن ؟ يرى J.Lyons أن النمط، كالزمن، يعبر عنه غالبا بواسطة شكل الفعل أو بواسطة مساعد يلحق الفعل[16]. يمكن أن تنطبق هذه الملاحظة على النمط في الجملة العربية.

أما النمطيـة فهو الموقف الـذهني للمتكلم إزاء الحدث الـذي يعبر عنه بواسطة الفعل[17]. يتمثل هـذا الموقف الذهني من خـلال أشكال مختلفـة يعبر عنها، عـادة، في النحو بـالاثبات والشك والافتراض والامـر والتمني، الخ[18].

ويعبر عن النمطية كذلك بواسطـة المساعد النمطي نحو : يجب، يمكن، الظروف، الخ[18]. والنمطية، بهذا المعنى، معروفـة في النحو العربي، حيث يكثـر استعمال المصطلحـات التاليـة : الطمع، الترجي، التمني، الاشفـاق، الظن، الشك، اليقين،الخ، وهي مصطلحـات مشحـونة بـدلالات تعبر عن

---

13) A. Hilmu Ibrahim - "La structure de base des complétives" - p: 326.

14) سيبويه، ص: 116، ج 3

15) وردت هذه الإشارة في الهامش 4 ـ الاستربادي ـ شرح الكافية في النحو ـ ج 2ص : 233

16) J. Loyons - Linguistique Générale - p : 235.

17) P. Fabre et C. Baylon - Grammaire Systématique p: 76.

18) نفسه، ص: 76 ـ 77.

موقـف المتكلـم الـذي يساهـم فـي تحـديـد نمط الجملـة المصـدرية وزمنهـا.

4 – أما الجهة فترتبـط دائما بمقولة الزمن. وقد اختلـف الباحثون في تعـريف هذا المصطلح، فمنهم من ضيق مجالـه ومنهم من وسعه. يـرى تمام حسـان " أن الجهة تخصيص لـدلالـة الفعل ونحوه، إمـا من حيث الزمن وإما من حيث الحدث[19] ". وقد لاحظ أن العـربية تتـوفر على " تسع جهات للماضي وثلاث للحال وأربع للاستقبال ".[20]

وتعتمد بعض الابحـاث اللسانية في تحديـد الجهة على مفهومي التام (=Perfectif. accompli) واللاتـام (=Inaccompli, Imperfectif). ويـرى J. Dubois أن تقابل هذين المفهـومين هو الذي يحدد الجهة. [21] ويؤكـد H. Weinrich هذه الملاحظة[22]. لكن سبل التعبير عن التام واللاتام تختلف من لسان لـآخر، فالعـربية، مثـلا، تعبر عن التام بصيغ فعليـة بسيطة : خرج زيد، أو بصيغ مركبة : كان يلعب.

لكن التقابـل بين التام واللاتـام لا يحدد الجهة الـزمنية بـدقة، لانهما عامـان. لذلك ينبغي الالتجـاء الى وسائل أخرى مخصصـة، كالاستعـانة بالعناصر المسـاعدة من أفعال وأدوات. تعتمد العربيـة، مثلا، على عناصر مساعدة نحو : كان، يكون، قد، الخ. الجهة، إذن، أوسع من أن تنحصر في مفهومى التمام واللاتمام.

5 – أما التناسب الزمني فمجال يتسع للمشاكل التي سبق ذكرها. إن الفعل الـرئيسي (= الفعل المحـور) يفـرض قيودا دلاليـة وتـركيبيـة على الجملة المصـدرية بصفتهـا جملة خـاضعة أو تـابعة. وبمعنى آخـر فإن الفعل الرئيسي يتحكم دلاليا وتركيبيا في الجملة المعقدة التي يقودها.

يحدد الفعل الرئيسى بدلالته الداخليـة الملازمة له نمط وشكل الجملة المصدريـة ويحدد زمنه وجهته زمن وجهـة الجملة المصدريـة، فإذا كان

---

19) تمام حسان ـ اللغة العربية ـ ص: 257

20) نفسه، ص: 245 ـ 246.

21) J. Dubois - Grammaire Structurale du français : Le verbe - p: 176.

22) H. Weinrich - Le Temps - p: 107.

زمن الفعل الـرئيسي يدل على الحال، فبـالامكان، نظـريا، أن يكـون الفعل المصدري متـزامنا مع زمن الفعل الـرئيسي أو سابقـا عليه أولا حقـا به. وعندما يكون زمن الفعل الرئيسي دالا على الماضي أو الاستقبال فإن زمن الفعل المصدري يحدده زمن الفعل الرئيسي ودلالتـه الداخلية، حيث يكون زمن الفعل المصدري، نظريا، متزامنا معه أو سابقا عليه أو لاحقا به. وقد ترفض الدلالـة الداخلية للفعل الرئيسي علاقة زمنيـة معينة، كأن يرفض الفعل " يتمنى " علاقة التزامن مع الفعل المصدري.

6 – نستنتج ما يلي :

أ – إن التناسب الزمني مسألة معقدة تحتاج إلى دراسة متأنية.

ب – إن العلاقات الزمنية ذت طبيعة جهية.

ج – إن الصيغ الفعلية لا تكفي وحـدها للتعبير عن الـزمن أو الجهة بدقة.

د – إن الفعل الـرئيسي في الجملة المعقدة يلعـب دورا كبيرا في تحديد الجهة الزمنية.

المصادر والمراجع :

1 – بالعربية :

– الاستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن.
شرح الكافية في النحو لابن الحاجب – دار الكتب العلمية – 1979 – بيروت.

– تمام حسان.
اللغة العربية : معناها ومبناها – دار الثقافة – البيضاء – سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر.
كتاب سيبويه – تحقيق عبد السلام محمد هارون – عالم الكتب – بيروت.

2 – بالفرنسية :

- Amr hilmi Ibrahim :
" La structure de base des complétives" - Revue :
Linguistique Investigations - amesterdam 1978.

- Baylon, C et Fabre, P : Grammaire systématique de la lan gue françа ise - Nathan - 1978.

- Dubois, J :
Grammaire structurale du français : Le verbe - Larousse - 1967.

- Gross, M :
Méthodes en Syntaxe - Hermann - Paris - 1975.

- Gross, M :
Grammaire transformationnelle : Syntaxe du verbe. Larousse 1973.

- Jespersen, O:
La philosophie de la grammaire - trad. fr :
Anne - Marie Léonard - Minuit - 1971.

- Loyons, J :
Linguistique Générale : Introduction à la Linguistique théorique - trad. fr : F. Dubois - Chartier et D. Robinson - Série : langue et langage - Larousse - 1970.

- Roher, C :
Quelque remarques sur l'analyse de la forme progressive de l'anglais - langage N° 64 - 1981.

مكانة الصواتة في الصرف العربي

ذ. محمد الوادي
كلية الآداب ـ مكناس ـ

ملخص :

هذا المقال هو عبارة عن قراءة لسانية في مباحث الصرف العربي القديم. وتهدف هذه القراءة الى إقامة الحدود بين ماهو صرافي وماهو صواتي في أبواب الصرف العربي، بالاضافة الى ابراز مكانة الصواتة في أبحاث النحاة والصرفيين القدامى، والذي دفعنا الى معالجة هذا الموضوع هو ما لحظناه من تداخل بين الابواب الصرافية المحضة مثل :
التكسير والتصغير والتذكيروالتأنيث، والجمع والنسبة... وبين الابواب الصواتية المحضة مثل : الادغام والاعلال والحذف والنقل والتقاء الساكنين... في مباحث الصرف أو التصريف.
هذا التداخل الذي حمل البعض على الاعتقاد أن القدماء اهتموا بتركيب اللغة العربية وصرافتها دون الاهتمام بصواتتها. والواقع أن التحليلات الصواتية التي تقدم بها النحاة والصرفيون القدماء لاتقل أهمية عن تحليلاتهم التركيبية أو الصرافية، بالاضافة الى أنها – على قدمها – تقف شامخة أمام أحدث النظريات الصواتية.

1 – مستويات التحليل اللساني في اللغات الطبيعية

1.1 – المستوى الصواتي

في كل لغة طبيعية، يميز اللسانيون بين عدة مستويات في التحليل اللساني، فهناك مستوى صواتي ينظر فيه الى اللغة كبنية تتكون من عدد من الوحدات اللغوية غير الدالة : الصوتيات Phonemes وعدد هذه الصوتيات محدود في كل اللغات الطبيعية، بحيث لا يقل عن عشرين

صوتية، ولايتجاوز الخمسين[1]، ومجموع هذه الصوتيات هو الذي يشكل أبجدية Alphabet لغة من اللغات.

وأبجدية كل لغة تستمد من مادة أصواتية كلية، تتوزع على الجهاز النطقي ابتداءا من الشفتين والى حدود الحنجرة. ويرى سابير Sapir أن الامكانات التي يتوفر عليها الجهاز النطقي غير محدودة ولكن كل لغة تختار من هذه الامكانات عددا محدودا من المواقع، أي المخارج[2]. وحسب Bernard Pottier فإن عدد الصوتيات في اللغات الطبيعية قد يبلغ 14 صوتية كحد أدنى كما في Tahitien و 81 صوتية كحد أقصى كما في L'oubyth (إحدى لغات القوقاز)[3].

وعموما فإن المعدل العام للصوتيات الذي يشكل أبجدية من أبجديات اللغات الطبيعية يتراوح بين عشرين وأربعين صوتية.وعناصر كل أبجدية تقوم بينها علاقات معينة، إن على المحور المنسقي axe paradigmatique أو على المحور المركبي axe syntagmatique، وتتمثل هذه العلاقات في أن ما يحدد المحتوى الصواتي لصوتية من الصوتيات هو ما يميزها من سمات مع باقي الصوتيات الأخرى التي توجد معها داخل نفس النسق.

فإذا تناولنا مجموعة من الصوتيات العربية، كالمجموعة الاسنانية /ت، د، ط / فاننا نجد أن التاء من سماتها المميزة.

[– متواصل، – مجهور، – مطبق]، بينما الدال [–متواصل، +مجهور، – مطبق] وفي حين أن الطاء [–متواصل،– مجهور، +مطبق]. وما قلناه عن هذه الصوتيات ينطبق على باقي صوتيات النسق العربي، بحيث يمكن القول إن ما يميز صوتية عن أخرى، هو الاختلاف في القيمة التي تأخذها سمة من السمات المميزة distinctive features. هذه السمات التي تكون إحداها موجبة في صوتية وسالبة في أخرى.

---

1) انظر : Hjelmslev. L Le langage , p: 61 .

2) انظر : Sapir, E. Le langage, p : 50 .

3) انظر كتاب La phonologie, les écoles et les théorie s, p. 5 - 8.

وهكـذا تتشكل بنيـة النسق الصـواتي للغـة من اللغـات عن طـريق مجموعة مـن التقابلات oppositions الصواتيـة، بحيث يمكن القـول بعد دوسوسير (1916 ، ص. 169) إن ما يميز علامة لسـانية عن أخرى هو ما يقابلها بباقي العلامات اللسانية الاخرى في نفس النسق.

وتجدر الاشـارة، ان هنـاك تفـاعـلا بين العـلاقـات التي تقـوم بين الصوتيـات على المحورين المنسقي والمركبـي، ويتمثل هذا التفاعـل في انه نـاذرا مـا تدخـل نفس الصوتيـة في علاقـة تنـاوب alternance وتجمع groupement في نفسـن الآن. ويفهـم مـن كـلام ليـامسليو (1936)[4] Hjelmslev أن هذه خـاصية كلية في كثير من اللغـات الطبيعية، وتتمثل في أن الصـوتيـات حين تأتلف فيما بينهـا لتكـوين صرفيـة من الصرفيـات المعجميـة أو النحويـة، تخضـع في تأليفـاتها لقيود نسقيـة، وتتميز هـذه القيود بثلاثة مظاهر:

1.1.1 مظهـر كلي Universel

ويتمثل في أنـه في كل اللغات الطبيعيـة، وانطلاقـا من أبجديـة معينة، هناك تأليفـات ممكنة واخرى غير ممكنـة بين صوتيات هذه الابجـدية او تلك. وقد اوضـح تروبتزكوي (1939) (5) أن صياغة قواعد تأليفية في أية لغة طبيعية يستوجب :

أ – وجود وحدة مـركبة، تعمل داخلها هذه القواعـد التألبفية، ويرى تروبنزكـوي، أن هذه الوحدة هـي الصرفية ونعتقـد أن هذه الصرفية، في اللغة العربيـة، وفي كل اللغات السامية كالعبرية والأرامية والأكدية...الخ، هي صرفية الجذر root وليس صرفيـة الجذع stem كما هـو الحال في اللغات الهندأوربية.

ب – تحديد المواقع التي تتجمع فيها الصوتيات، في أول الصرفيات أو في حشوها، أو في آخرها. ويمكن تحديـد هذه المواقع في اللغة العربية على النحو التالي :

---

4) المرجع السابق، ص 117.

5) انظر : Principes de phonologie . p : 270 .

- (ف ع) : أي فاء الصرفية وعينها.
- (ع ل) : أي عين الصرفية ولامها.
- (ف ل) : أي فاء الصرفية ولامها.

1.1. 2 – مظهر نمطي typologique

ويتمثل هذا المظهر في أن اللغات التي تنتمي الى نفس الاسرة اللغوية، كالأسرة السامية – الحامية sémitique - Chamito أو الاسرة الهندأوربيةindo - européen تشترك في المفاهيم والميادىء وكذا القوانين العامة التي تحكم قواعد التأليف بين الصوتيات داخل نفس الاسرة اللغوية.

وهكذا فإن مفهوم الجذر في اللغات السامية مبني على أساس صامتي consonantique أما الحركات فلا تكون جزءا من الجذر، بل يلجأ إليها في حالات الاعراب flexion والاشتقاق dérivation (6).

وهذا ما يفسر أن كتاباتها لاترسم إلا الصوامت، وتأتي الصوائت عرضا فوق أو تحت الصوامت.

أما مفهوم الجذر في اللغات الهندأوربية فينبني على أساس مقطعي بحيث يكون الجذر أحادي المقطع mono-syllabique في هذه اللغات ويتكون من صامتين تتوسطهما حركة نحو : pet ،men(7).

1. 3.1 – مظهر خاص idiosyncrasique

ويتمثل هذا المظهر في أنه بالاضافة إلى القيود التأليفية الكلية التي تشترك فيها كل اللغات الطبيعية، وكذا القيود النمطية المشتركة بين اللغات التي تنتمي إلى نفس الاسرة اللغوية، فإن كل لغة طبيعية تنفرد بقيود تأليفية خاصة بها، انطلاقا من العلاقات المنسقية والمركبية القائمة بين العناصر التي تشكل بنيتها الصواتية.

---

6) انظر مجلة : La linguistique n° : 2 - 6 (1970, p: 88)

7) المرجع السابق (ص. 100).

ومن ثم، فإن ما يبدو غير ممكن من تأليفات في لغـة ما، يكون ممكنا في لغة أخـرى، بما أن كل لغة تملك قيـودها التأليفيـة الخاصة بها. فمن ذلك مثـلا أن متواليـات نحو : krk، vlk غير ممكنة في اللغـة الفرنسيـة، ولكنها كلمات جيدة في اللغـة التشيكية[8]، ومن ذلك أيضـا أن الكلمـة في اللغة الفرنسية قد تبدأ بصامتين متتابعين نحو travail، placard، وفي اللغة الانجليزية قد تبدأ الكلمة بثلاثة صوامت متتالية نحو street، Spring،ولكن اللغـة العربيـة لاتسمح لا بهذا ولا بذلك، وإذا اقتضت الضرورة أن تبـدأ كلمـة عـربية بصـامتين متتـابعين، كما هـوالشأن في فعل الأمـر وبعض المصادر، فإن اللغة العربية تتلخص من هذا الوضع باقحام حركة قبلهما، والأصل في هذه الحركـة المقحمة أن تكـون كسرة، كما يقول سيبـويه في الكتاب[9] (4 / 146) كقولنـا : انطلق انطلاقا، واحترم احترامـا، واستخرج استخراجا... الخ

كما أن اللغة العربية لا تسمح بتكوين جذر من الجذور من صوتيات ذات مخارج متماثلـة أو متقـاربـة، وهذا شيء نبـه إليـه بعض اللغـويين القدماء كابن جني في كتابه " سر صناعة الاعراب " [10]، وابن فارس في " الصاحبي في فقه اللغة " [11]، وابن دريد في معجم " جمهرة اللغة[12]، وذلك في معرض حـديثهم عن شروط الفصاحـة اللغويـة التي من بينها، بـالاضـافـة الى عـدم الخروج عـن الاوزان العـربية والاطـراد في الاستعمال، عـدم التأليـف بين صوتيـات ذات مخـارج متماثلـة أو متدانيـة[13].

---

8) انظر : Hjelmslev, L.Le langage, p : 62 .

9) وانظر مايقوله ابن جني في كتابه اللمع (ص. 311 وما بعدها) عـن هذا الموضوع، أما القاعدة الصواتية التي تقحم هذه الحركة فقد بينا صياغتها الصورية في الوادي (1990 ص. 103).

10) انظـر الفصـل العـاشـر مـن هـذا الكـتـاب (ص. 812 - 820) وكتـاب الخـصـائـص (1 / ص. 54 و 63).

11) انظر ص. 87 ومابعدها.

12) انظر الجزء الاول ص 6 ومابعدها.

13) للمزيـد من المعلومات عن شروط الفصـاحة اللغوية انظـر باب "معرفة الفصيح" في المزهر للسيوطي (ج 1، ص. 184 - 213).

وعموما فإن ما يقبلـه النسق العربي على محور التعاقب لا يستسيغه على محور التأليف أو التركيب كما يقول الاستاذ إدريس السغروشني في كتابـه مدخل للصـواتة التوليـدية (ص.103) فإذا عـدنـا إلى المجمـوعـة الاسنانية / ت، د، ط / وراقبنا تناوباتنا في المعـاجم العربية، فإننا نلاحظ أنها تتعـاقـب في نفس المواقع من المداخل المعجميـــة كما يتضـح ذلك من خلال هذه الجذور المستمدة من معجم مقاييس اللغة لابن فارس :

فاء الجذر	عينه	لامه
(ت ر ز)	(ب ت ر)	(ر ب ت)
(د ر ز)	(ب د ر)	(ر ب د)
(ط ر ز)	(ب د ر)	(ر ب ط)

وبما أن هذه الصوتيات تدخل في علاقة تناوب فيما بينها، فإننا نتوقع – انطلاقا من الفرضية السـابقة – ألا تشكل مجتمعة ومدخلا من المداخل المعجمية، وبالتـالي جذرا من الجذور في اللغة العربية، وهذا مـا يتأكد لنا حين نعود إلى أي معجم من المعاجم العـربية، حيث لا نعثرعلى جذور من هذا النوع :

* (ت د ط)، * (د ت ط)، *(ط د ت)، * (ط ت د)، * (ت ط د)،

* (د ط ت).

1. 2 – المستوى الصرافي :

بـالاضافـة إلى المستـوى الصواتي الـذي ينظـر فيـه إلى اللغة كبنيـة صواتية تتشكل من عـدد من العناصر المحدودة التي تقوم بينهـا علاقات معينة، تبرز، اللغة كبنية صرافية structure morphologique. تتكون من عدد غير محدود من الوحـدات اللغوية الدالة، هي الصرفيـات او المـورفيمـات morphèmes.

وهذه الصرفيات هي إما صرفيات معجمية m. l'exicaux وهي وحدات لغويـة تحيل على شيء مادي أو معنوي يـوجد في الـواقع الخارجي، وإما صرفيات نحوية m . grammaticaux وهي وحدات لغـوية تحيل على معنى من المعاني النحـوية في نسق من الانسقـة، مثل الصرفيات النحـوية التي تدل على المضـارعة أو التعريف أو الـرفع أو النصب أو الجر أو العدد أو النوع في النسق العربي.

وكما يميز اللسانيـون بين الصوتيات وبدائلها، أي الألـوفونات allo-phones [14] يميزون كذلـك بين الصرفيات وبدائلها، أي الألـومرفات al-lomorphes، وسبب هـذا التمييز يعود إلى أن بعـض الصرفيات النحـوية تكـون لها صور مجردة على المستـوى التحتي، وتأخـذ أشكالا وصـورا متعددة على المستوى السطحي المنطوق.

فمن أمثلـة ذلك أن صرفيـة الجمع plural في النسق الانجليـزي هي صرفية نحوية مجردة، على المستوى التحتي، وهذه الصرفية تأخذ صورا متنوعـة على المستوى السطحي المنطـوق، وذلك حسب المحيط الاصواتي الذي تظهر فيه[15]. فتارة تحقق بواسطة [S−]، كما في قولنا : cat : cats وأخرى بواسطة [Z −] كما في قـولنـا : : boys : boys، وأخـرى بواسطـة [iz −] كمـا في قولـنا : rose : roses، ومن ثم يمكـن القـول إن [s −، z −، iz-] هي بدائل صرفية لنفس الصرفية الدالة على الجمع في النسق الانجليزي.

ونظير ذلك في النسق العـربي أن صرفيـة الـرفع هي صرفيـة مجردة تتمظهر في عدة أشكال وصور على المستوى السطحي. فأحيانا تحقق هذه الصرفية بواسطـة ضمـة كقولـنا: جـاء أحمـد[ء ح م د + د

---

14) وهـذه البـدائل على ضربين : بـدائل سيـاقيـة variantes contextuelles أو ألـوفونـات مقيدة allophones conditionnés كقولنا إن للراء العربية بـديلان سياقيان أحدهما يكون [+ مطبق] بجـوار الفتحة أو الضمـة أو الأصوات المطبقـة، كقولنـا رسول، رسل، قـرطاس، مرصود... الخ والثـاني يكون [− مطبق] بجوار الكسرة او الياء كقولنا : رسـالة، ريح. أما النوع الثاني فيسمى البدائل الحرة variantes libres أو الوفونات حرة allophones libres كقول بعض العرب القدماء في ثم : فم، وفي حتى : عتى، وفي أن : عن،... الخ.

15) عن الطبيعة الأصواتية لهذه المحيطات انظر :
(Gleason, 1967, p :52).

وأخرى بواسطة ضمة بعدها نون ساكنة، تسمى نون التنوين[16] كقولنا جاء زيد [زَ ي د +ُ + ن] وأحيانا أخرى بواسطة واو قبلها ضمة كقولنا جاء أبوك [ءُ ب + ُ و + ك +َ]، ومن ثم يحق لنا أن نقول إن [ُ ،ُ+ ن،ُ و] هي بدائل صرفية لنفس الصرفية النحوية الدالة على الرفع في النسق العربي.

وكما يمكن للصرفية الواحدة أن تحقق بواسطة عدة بدائل صرفية كما هو الشأن بالنسبة لصرفية الجمع في الانجليزية وكذا الفرنسية وصرفيات الجمع والرفع والنصب والجر... في اللغة العربية، يمكن أن تحقق صرفية من الصرفيات النحوية بدون صورة كتابية graphique أوأصواتي phonétique إطلاقا، وهو ما يسمى بالصرفية الفارغة " le morphème zéro"، فمن ذلك مثلا، أن الصرفية الدالة على الفاعلية في البنيات الامرية، تحقق في كثير من اللغات بدون صورة كتابية أو أصواتية، كقولنا في الانجليزية : go out والتقدير(you) go out وقولنا في الفرنسية : sors والتقدير: (toi) sors وقولنا في العربية : اخرج، والتقدير : اخرج (أنت)، حيث اعتبر النحاة القدماء الفاعل ضميرا مستترا تقديره : أنت، وإذا اختفى الفاعل كصرفية معجمية، اختفت معه علامة الاعراب كصرفية نحوية.

وكما أن الصوتيات في تسلسلها لتكوين الصرفيات، تخضع في تأليفاتها لقيود صواتية صارمة، تجعل بعض التاليفات ممكنة، وأخرى غير ممكنة، فإن الصرفيات في تسلسلها لتكوين الكلمات أو المركبات تخضع لقيود نحوية صارمة كذلك، هذه القيود التي تمنع مثلا التاليف في اللغة العربية بين صرفيات الجر والافعال، أو بين صرفيات الجزم والاسماء... الخ.

3.1 المستوى التركيبي :

رأينا في الفقرة (1.1) أن اللغة كبنية صواتية تتكون من عدد محدود من العناصر، أي الصوتيات، التي تأتلف فيما بينها وفق شروط معينة

16) وهذه النون لاقيمة إعرابية لها. لان حركة الاعراب هي الضمة أما النون الواقعة بعدها فهي من مخلفات النسق السامي القديم.

لتكوين الصرفيات، ورأينـا في الفقرة (2.1) أن هذه الصرفيات تكـون إما معجمية أو نحوية، والتأليف بين النـوعين من الصرفيات هو الذي يعطي كلمة من الكلمات في اللغة العربية، فجملـة مثل : ضرب زيد عمرا، تتكون من ست صرفيات، ثلاث صرفيات معجميةهي : [ضـَ ر ـَ ب]، وهي صرفيـة معجميـة تدل بصيغتهـا على حـدث الضرب في زمن معين هـو الماضي، وتحتـاج هذه الصرفيـة المعجمية إلى صرفيـة نحـوية أخـرى هي الفتحة [ـَ][17] لتصبح كلمة. والكلمة الثانية تتكون من صرفيتين كذلك، الأولى هي : [زـَ ي د]، وهي صرفيـة معجمية تـدل على اسم شخص، أما الثـانية فهي [ـُ + ن]، وهي صرفية نحـوية تفيد معنى الفـاعلية في جملتنا السابقة[18]. أما الكلمة الثالثـة فتتكون من صرفيتين كذلك، الأولى هي : [عـَ م ر] وهي صرفية معجمية تحيل على اسم شخص، والثانية هي [ـُ + ن]، وهي صرفيـة نحـويـة تدل على معنى المفعـوليـة[19] في الجملة السابقة.

وهكذا فإن الصرفيـات المعجمية لا تصبح كلمات في اللغة العـربية إلا بعد أن تتصل بها الصرفيات النحوية التي تسمى أحيانا باللواصق affix-es، وهي التي تحدد بعض المعاني النحوية للصرفيات المعجمية : كالنوع والعدد بـالنسبة لـلافعال، والفـاعلية والمفعـولية والجر والإضـافة... الخ بالنسبـة للأسماء والصفـات وغيرها من المقـولات التركيبية التي تـأخذ صرفيـات الاعراب للـدلالة على وظيفـة من الـوظائف النحـوية في اللغـة العربية. وتحديـد هذه الوظائف، ورصـد مواقعها وسياقـاتها المختلفة في الجملة العربية هو الذي يشكل مباحث علم النحو أو التركيب syntaxe.

وعموما فإن تكوين كلمـة من الكلمات العربية، يقتضي في مرحلة أولى تأليف جذر من الجذور انطـلاقا من صـوتيات الابجديـة العربيـة، وهذا الجذر يفرغ في قـالب حركي، هـو الصيغة schèma التي تحدد بصورتها

---

17) وكلما اتصلت هذه اللاحقة بجذع الفعل الماضي، دل هذا الجذع على المفرد المذكر الغائب.

18) وقد تدل هذه الصرفية على معاني نحـوية أخرى، وذلك حسب السياق التركيبي الذي تظهر فيه الوحدة المعجمية التي تلصق بها كالمبتدأ والخبر ونائب الفاعل والبدل... إلخ.

19) وقد تدل هذه الصرفية على معاني نحـوية أخرى، وذلك حسب السياق التركيبي الذي تظهر فيه الوحدة المعجمية التي تلصق بها كالتميز أو الحال او الاستثناء... إلخ.

الصواتية والصرافية نـوع المقولة التركيبية : (مصـــدر، اسـم، صـفة، فعل، اسـم فاعل، اسـم مفعـول... الخ) وحين يفرغ الجدر raçine في صيغة من الصيغ يعطينا جدعا radical وهذا الجدع تلصق به بعض اللواصق التي قد تكون سوابـــق préfixe كصرفيـة المضارعـة، وهمزة التعـدية، وصرفيـة التعريـف... الخ وقد تكـون أحشاء infixes كتـاء الافتعال وألف فـاعل والتضعيف... الخ، وقد تكون لواحق suffixes كبعض عـلامات الاعراب، والصرفيـات الـدالـة على النـوع (التـــذكير والتأنيث) أو العـدد (التثنيـة والجمع)... الخ.

فبناء الكلمة العربيـة يقتضي كل هذه الامور مجتمعة، ويمكن أن نمثل لهذا البناء انطلاقا من جملتنا السابقة على النحو التالي.

جـــــذر + صيغـــــة = جـــذع + لاصقـــة = كلمـــــــة	
(ض ر ب) + ف ـَ ع ـَ ل = ض ـَ ر ـَ ب + ـ = [ض ـَ ر ـَ ب ـَ]	
(ز ي د) + ف ـَ ع ل = ز ـَ ي د + ـُ + ن = [ز ـَ ي د ـُ ن]	
(ع م ر) + ف ـَ ع ل = ع ـَ م ر + ـَ + ن = [ع ـَ م ر ـَ ن]	

وهكذا فإن جملتنا السابقة : ضرب زيد عمرا، تتكون من ثلاث كلمات، وكل كلمة من صرفيتين، وكل صرفية من عدد من الصوتيات (20) والحدود الفاصلـــة بين المكونـات المباشرة للجملـــة السابقـــة يمكـن توضيحـــها كالتـالي :

≠ ≠ ض ـَ ر ـَ ب + ـَ ≠ ز ـَ ي د + ـَ + ن ≠ ع ـَ م ر + ـَ + ≠ ≠

فالعلامة (≠ ≠) تـدل عـلـى حـــد الجمـلـة phrase boundary والعلامـة (≠) على حـد الكـلـمـــة word boundary والـــعـلامـة (+) علـــى حـد الصرفـيـة morphene boundary.

---

20) وكل صوتية يمكن تحليلهـا إلى حزمة Faisceau من السمات المميـزة لأن السمة trait هي الوحدة الدنيا التي يقف عندها تحليل الوحدات اللغوية إلى مكوناتها.

2 ـ تداخل مباحث الصواتة والصرافة في الصرف العـربي القديم.

حـاولنا في القسم الاول من هـذا المقـال إقامـة الحدود الفاصلـة بين المستويات الأساسية[21] للتحليل اللساني في اللغات الطبيعية، وسنحاول في هـذا القسم أن نبين الحدود الفاصلـة بين هـذه المستويـات في التراث اللغوي العربي القديم.

فإذا عدنـا إلى ما كتبه النحاة والصرفيـون القدماء عن اللغة العـربية، فإننـا نجـدهم يفصلـون بوضـوح تـام بين صرف العـربية ونحـوهـا. فـالتصريف في اصطـلاحهم " كلام على ذوات الكلم، والنحـو كـلام على عوارضـها الداخلة عليها "[22]، أي أن التصريف علـم يبحث في التغييرات التي تطرأ على بنية جذع الكلمـة، أما النحو فعلم يبحث في التغييرات التي تتعـاقب على جـذع مـن الجـذوع لتحـديـد وظيفتـه النحـوية أو الاعـرابية.

وعموما فإن الفصل بين مبـاحث علم النحو ومباحث علم الصرف أو التصريف واضـح في كتب النحـاة والصرفيين العـرب القدمـاء. ومـا ليس واضحـا في تصنيفـاتهم هـو الفصل بين مبـاحث الصرافـة morphologie ومباحث الصـواتة phonologie بـالطريقـة التي أوضحنـاها في الفقـرات السابقة.

وهكذا فإن القـارىء لكتاب سيبويـه يستطيع أن يميز بـوضوح بين مباحث علم النحو، كأبواب المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والتوابع... الخ، وما أن يصل القـارىء الى مباحث التصريف حتى يصطـدم بتداخل

---

21) نقصد بـالمستويات الأساسيـة للغة من اللغات مستـوياتها الصواتية والصرافيـة والتركيبية، فهذه مستويـات لغوية أساسيـة لأن أي تغيير يمس أحدها يـؤدي حتما إلى تغيير بنية اللغة والانتقال من حالـة لغوية état de langue إلى حالـة أخرى، أما مستويـات التحليل الأخرى، كالمستوى الدلالي والتداولي فتعتبـر ثانويـة، لان دلالة الألفاظ تتغير بتعاقب الأجيال وتنوع المقامات والسيـاقات، ولكن ذلك لايؤثر في بنيـة اللغة، ولاينقل رقعة الشطرنج مـن حالة إلى حالة أخرى.

22) ابن يعيش، شرح الملوكي في التصريف (ص 18 – 19).

الابـواب الصرافيـة والصـواتية، وهـذا التـداخل غير مقصـور على كتـاب سيبويه بل وارد كذلك في كتب النحاة والصرفيين الذين جاءوا بعده.

ويكفي أن نعود إلى بعض المتون العربية القـديمة، كمتن الشافية لابن الحاجب، ليتبين لنا، أنـه يدرج تحت مباحث التصريف الابـواب الصرافية وكذا الابواب الصواتية المحضـة التي لا علاقة لها بالصرف أو !التصريف، يقول ابن الحاجب في متن الشافية[23] :

" التصريف علم بأصـول تعـرف بها أحـوال أبنيـة الكلم التي ليست بإعراب...

وأحوال الابنية قـد تكون للحاجة : كـالماضي، والمضارع، والامر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة،وأفعل التفضيل، والمصدر، واسمي الزمـان والمكان، والـآلة، والمصغر، والمنسـوب والجمع، والتقـاء الساكنين، والابتداء والوقف، وقد تكون للتوسع في الكلام، كالمقصور والممدود، وذي الزيادة، وقـد تكون للمجانسة كـالامالة، وقد تكـون للاستثقال كتحفيف الهمزة، والابدال، والاعلال، والادغام، والحذف ".

يفهم من كلام ابـن الحاجب أن التغييرات التي تطرأ على بنية الكلمة على ضربين :

أ – تغييرات تطرأ على آخـر جذع الكلمة العربيـة، وهي التي تدخل في مباحـث علم النحو، ومن فـروعه علم الاعـراب الذي يبحث في العـلامات الاعرابية التي تلصق بالجذوع لتحديد وظائفها النحوية أو التركيبية.

ب – تغييرات تطرأ على بنية جذع الكلمة العربية، وهي التي تدخل في مبـاحث علم التصريف. وواضح مـن خـلال النص السـابق أن هـذه التغييرات على نوعين :

1 – تغييرات صرافيـة، وهي التي تحدد نـوع المقولـة التركيبيـة التي تسنـد لجذع من الجذوع (مصـدر، اسم، صفـة، فعل، اسم فـاعل، اسم مفعول... الخ).

23) مجموع مهمات المتون (ص. 497 – 500).

2 – تغييرات أصواتيـة تعود إلى تعـامل الاصوات، وتـأثير بعضـها في الآخر داخل بنية الجذع، الامر الذي يؤدي إلى بعض التغييرات الاصواتية التي تـدرس في إطـار علم الاصـوات التعـاملي phonétique combinatoire كالمماثلة assimilation ويدخل فيها عدة أبواب صواتية في الصرف العربي، كباب الابدال assimilation partielle وباب الادغام assimilation totale وباب القلب mutation ، وباب تخفيف الهمزة amuissement أو allégément وباب الحذف effacement الذي يدخل فيه التقاء الساكنين والوقف pause وغيرها من الابواب الصواتية التي يمكن دراستها في ضوء هذه الظاهرة الصواتية أو تلك.

ونفهم من كلام ابن الحاجـب، من خلال الابواب الـواردة في نصه، أن التصريف كعلم يبحث في التغييرات التـي تطـرأ على بنيـة جـذع الكلمـة لايقصد بـه ما يسمى في الاصطلاح اللساني الحديث بـالصرافة morpho-logie بـالمفهـوم الـذي أوضحناه أعـلاه. وإنما المقصـود بـالتصريف في اصطـلاح ابن الحاجب وكـذا باقي النحـاة والصرفيين العـرب القدمـاء – الصرف – صواتة la morphophonologie، وهذا يتضح لنا جليا من خلال الأبـواب التي ذكرهـا ابن الحاجب نفسه في معـرض تعريفـه لمصطلح " التصريف "، هذه الأبواب التي يمكن تقسيمها إلى :

أ – أبـواب صرافيـة محضـة، مثـل الماضي، والمضـارع، والامـر، واسم الفاعل، واسم المفعول، والصفـة المشبهة وأفعل التفضيل، والمصدر، واسم الزمان، واسم المكان، واسم الآلة، والتصغير، والنسبة، والجمع.

ب – أبـواب صواتيـة محضـة، مثل : الابتداء والـوقف، والمد والقصر، والإمالة، وتخفيف الهمزة، والابدال والإعلال، والإدغام، والحذف.

ويـلاحظ أن ابن الحاجب أغفل ذكـر بعض الأبواب الصرافيـة في متن الشـافيـة، مثل التعريف والتنكير، والتـذكير، والتأنيث، والتثنيـة. وهـذه الأبواب درسها نحاة وصرفيون آخرون ضمن مباحث علم التصريف، كما يلاحظ أنه ذكر في متن الكافية التي خصصها لمباحث النحو أبوابا صرافية محضة، مثل : المعـرفة والنكرة، والـذكير والتأنيث، والجمع، والامر واسم الفاعل، واسم المفعول، وأفعل التفضيل.

3. الحدود الفاصلة بين مباحث الصرافة والصواتة في الصرف العربي القديم.

تبين لنا مما تقدم أن أبواب الصرافة وأبواب الصواتة متداخلة في مباحث الصرف العربي القديم، وقد انتبه بعض القدماء إلى هذا التداخل فحاولوا تقسيم علم التصريف إلى قسمين :قسم صرافي، وقسم صواتي، ومن هؤلاء الأشموني الذي يقول في شرحه على ألفية ابن مالك (ج. 4. ص. 236).

اعلم أن التصريف في اللغة التغيير، ومنه تصريف الرياح أي تغييرها ، وأما في الاصطلاح فيطلق على شيئين، الأول تحويل الكلمة إلى أبنية مختلفة لضروب من المعاني كالتصغيروالتكسير واسم الفاعل واسم المفعول وهذا القسم جرت عادة المصنفين بذكره قبل التصريف، كما فعل الناظم وهو في الحقيقة من التصريف والآخر تغيير الكلمة لغير معنى طارىء عليها ولكن لغرض آخر، وينحصر في الزيادة والحدف والابدال والقلب والنقل والادغام، وهذا هو المقصود هنا بقولهم التصريف.

واضح من هذا النص أن الاشموني يقسم التصريف الى قسمين متميزين:

أ – قسم صرافي morphologique يهتم بمختلف التغييرات الصرافية التي تنقل جذرا من الجذور العربية من معنى نحوي الى معنى نحوي آخر، وذلك حسب القالب الحركي الذي يفرغ فيه هذا الجذر، أي الصيغة التي يلبسها فمن ذلك مثلا، اشتقاقنا للصيغة التي تدل على التصغير من جذر مثل : (ر ج ل) على وزن فعيل، اي. رجيل وكاشتقاقنا للصيغتين اللتين تدلان على اسم المفعول، من جذرمثل (ك ت ب) على وزن فاعل أو مفعول، أي كاتب أومكتوب، وكاشتقاقنا للمثنى والجمع انطلاقا من المفرد كقولنا في مثنى زيد : زيدان، وفي جمعه زيود....إلخ.

ب – قسم صواتي phonologique وهذا القسم من التصريف يدرس مختلف التغييرات الاصواتية التي تطرأ على بنية جذع الكلمة العربية كالحذف والابدال، والنقل، والادغام... الخ. وقبل إعطاء أمثلة ملائمة لهذه الأبواب الصواتية، نورد نصا لابن عصفور الاشبيلي، يبين فيه الطريقة

التي تعمل بها القـواعـد الصرافيـــة، وكـذا القـواعـدالصـواتيـة، وفي ذلك يقول[24].

" والتصريف ينقسم قسمين : أحدهما جعل الكلمـة على صيغ مختلفة لضروب من المعـــاني نحـــو : ضرب، وضرب، وتضرب، وتضـــارب، واضطرب، فالكلمة التي هي مركبة من ضاد وراء وباء نحو : " ضرب " قد بنيت منها هذه الأبنية المختلفة لمعـان مختلفة. ومن هذا النحو اختلاف صيغة الاسم للمعاني التي تعتوره من التصغير والتكسير، نحو " زييد " و " زيود " وهذا النحو من التصريف جـرت عادة النحويين أن يذكروه مع ماليس بتصريف، فلـذلك لم نضمنه هذا الكتـاب... والأخر من قسمي التصريف : تغيير الكلمـة عن أصلهـــا من غير أن يكـون التغيير دالا على معنى طا رييء على الكلمـة، نحو تغييرهم " قول " الى " قـال "... وهذا التغييرمنحصر في النقـص ك " عـدة " ونحـــوه، والقلـب ك " قال " و " بـاع " ونحـوهما، والابـدال ك " اتعـد " و " " اتـزن "ونحـوهما، والنقل..."

ويستفاد من كلام ابن عصفور أن التصريف على نوعين :

3 1. نوع يقترب مما يسمى في الاصطلاح اللساني الحديث بالصرافة الاشتقاقية morphologie dérivationnelle [25] التي تنطلق من فرضية تقول بوجود مكون صرافي في اللغة العربية يتكون من عدد من القواعد الصرافية التي تمكن من اشتقاق مختلف المقولات النحوية انطلاقا من صرفية ثابتة ومجردة، وسـابقـــة لمختلف التغييرات الصرافيـة المتعلقـة بـــالحركـات واللواصق والتضعيف... الخ. وهـذه الصرفية النواة في اللغة العـربية هي صرفية الجذر الذي نعتقـد أنه أصل المشتقات، خلافـا لما ذهب إليه نحاة البصرة من ان أصل المشتقات هـو المصدر، وخلافا لما زعم نحـاة الكوفة من أن اصل المشتقات هو الفعل[26]، لان الجذر أكثر تجريدا من المصدر والفعل.

---

24) المتع في التصريف (ص. 31 – 32)

25) للمزيد من المعلومات عن هذا النوع من الصرافة انظر : Scalise (1984).

26) انظر الانصاف في مسائل الخلاف، " المسألة الثامنة والعشرون ".

ويبـــدو أن ابن عصفـور – من خـــلال نصـــه الســـابق – يسـير في هـــذاالاتجاه فهـو يعتقـــد أن مقـولات مثل : ضرب، تضرب، تضـــارب، اضطرب، اشتقت من صرفية نـواة، هـي صرفية الجـذر التي تتكـون من " ضـاد راء بـاء " على حـد تعبيره، وهو مـايمكن أن نمثل له عن طـريق الاشتقاق التالي :

(ض ر ب)

|

ض ـــ ر ب

|

ض ـــ رر ـــ ب ض ـــ ر ـــ ب ض ط ـــ ر ـــ ب

| |

ت ـــ ض ـــ رر ـــ ب ت ـــ ض ـــ ر ـــ ب

وتجدر الاشارة الى ان مفهوم الاشتقاق في تحليـلات القدماء الصرافية وكـذا الصـــواتية يختلف شيئـا مـا عن مصطلح dérivation المتداول في اللسانيات التوليدية، فالاشتقاق في تصور القدما يفيد أمورا ثلاثة. (27)

أ – اشتقاق مختلف الصيغ من صيغة أ ساسية هي المصدر،كاشتقاق، ضرب، ضارب، تضرب،تضـارب، اضطراب، ضـارب، مضروب، ضوارب، ضـويـرب... إلخ من صيغـة المصدر (ض ـــ رب) وهـو مـا يسمى في اصطلاحهم بالاشتقاق الصغير.

ب – الاشتقاق بمعنى القلب المكاني métathèse كقولهم جبذ وجذب وخـرشب وخشرب،واضمحل وامضحل، واكفهـر واكـرهف، ومـا أطيبـه وأيطبه...إلخ ويسمى ذلك في اصطلاح القدماء الاشتقاق الكبير.

---

27) انظر كتاب الاشتقاق والغريب لعبد القادر المغربي (ص. 10 – 12).

ج – الاشتقـاق بمعنى الابـدال[28] substitution ويتمثل في استبـــدال صوتية بأخرى في نفس المحيط الاصواتي، ويشترط في المبدل والمبدل منه أن تكـون بينهما قرابـة أصواتيـة، وألايؤدي ذلك الى تغيير دلالي، كقـول القدماء : سقـر وصقـر زقـر، ومـــت ومدو مط، ومـكـة وبكـة، ولثام ولفام ، وهو ما يسمى في اصطلاحهم بالاشتقاق الاكبر.

ومعلوم ان الاشتقاق في إطار الصواتـة التوليدية. genetive phonology يفيـد اشتقاق التمثيـلات الاصواتيـة للمتـواليات انطـلاقا من تمثيـلاتها الصواتيـة وذلك عن طريق تطبيق بعض القـواعد الصـواتية. ويفيـد هذا المفهوم في إطار الصرافة التوليدية generative phonology خاصة الصرافة الاشتقاقية، اشتقاق مختلف المقولات النحـوية انطلاقا من صرفية الجذر، وذلك عن طريق تطبيق بعض القواعد الصرافية، وقواعد تكوين الكلمات.

وقد قدم الـدكتور عبد القادر الفـاسي الفهري (1990) نموذجا لبناء الكلمـة والجملـة في اللغـة العربيـة، بين فيـه أن الصرف العـربي يعتمـد كأسـاس اشتقـاقي الجذر بدل الجذع، فـالمداخل المعجميـة في المعجم هي عبارة عن جذور تشتق منهـا باقي المقولات، على هذا النحو الـذي يقدمه لنا ما كارتي Mc.Carthy (1979) [29].

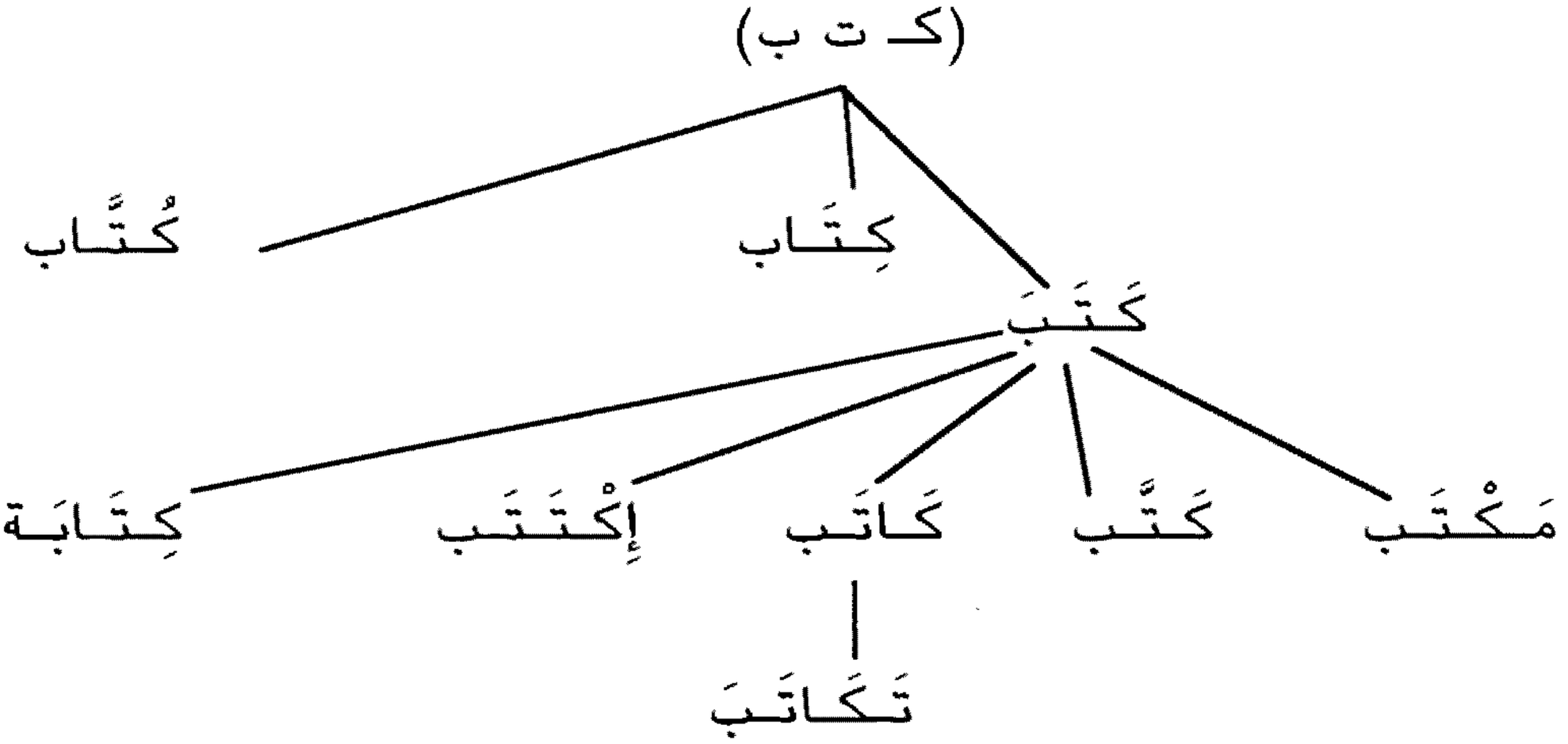

---

28) ولنا رسالة جامعية في الإبدال في اللغة العربيـة، عالجنا فيها هذا الموضوع من جميع جوانبه في ضوء الدرس اللساني الحديث، وخاصة الصواتة التوليدية.

29) انظر : Mc. Carthy (1979, p: 392)

فهناك الجذر (ك ت ب) وقواعد تكوين الكلمات Word Formation Rules التي تعطينا المقولات التركيبية الممكن اشتقاقها انطلاقا من الجذر، وذلك عن طريق قواعد صرافية تعمل بموجب المبدأ الآتي[30]:

لاتشتق س من ص إلا إذا كان س

يحكم ص في بعض المداخل المعجمية

1.3 النوع الثاني من التصريف الوارد في نص ابن عصفور يقترب مما يسمى بالصواتة التوليدية، ويتمثل في اشتقاق الصور المنطوقة أو التمثيلات الأصواتية لبعض الكلمات انطلاقا من صورها المجردة أو تمثيلاتها الصواتية، وذلك عن طريق قواعد صواتية استطاع النحاة والصرفيون القدماء في دراستهم لأبواب الصواتة العربية تحديدها بطريقة غير صورية كما استطاعوا ضبط السياقات أو المحيطات الاصواتية المختلفة لتطبيقها.

فبعد تطبيق القواعد الصرافية، وكذا قواعد التعديل الواردة في المكون الصرافي يكون خرج هذا المكون عددا من الصيغ التي تمثل مختلف المقولات التركيبية في اللغة العربية، وهذه الصيغ تكون مطابقة تماما للتمثيلات الصواتية للكلمات، وهذه الأخيرة هي التي تكون دخلا لقواعد المكون الصواتي.

وعندما توجد كلمات عربية لا تطابق صورها المنطوقة مايوجد من صيغ في القسم الصرافي ترجع هذه الكلمات إلى أصولها، أي إلى تمثيلاتها الصواتية، ثم تطبق عليها القواعد الصواتية الملائمة التي تنقلها إلى صورها المنطوقة، فمن أمثلة ذلك ماذهب إليه ابن عصفور وباقي النحاة والصرفيين القدماء، أن الأصل[31] في كلمات مثل : قال وباع هو قول وبيع، لأن الأفعال الماضية المبنية للمعلوم في اللغة العربية، تأتي على مستوى العمق، على وزن فعل بتناوب الحركات القصيرة الثلاث على عين هذه الصيغة، ولاتأتي على وزن " فال " فهذا الوزن غير وارد في

---

30) المرجع السابق ص. 402.

31) ويُقصد بالأصل هنا، التمثيل الصواتي المجرد (انظر الوادي 1990 ص. 2 ومابعدها).

لغة الضـــاد، سواء على مستـوى الأفعـال أو الاسماء أو الصفـات... إلخ، ولذلـك قـدر النحـــاة والصرفـيـون القدمـاء أن الأصل فـــي قال وبـاع هـو " قـــول " و " بـيـع " واقترحـوا قاعـــدة صواتية تبيـــن كيفـية الانـتـــقـال مـــن تمثيلهـما الصـواتـــي إلى تمـثيـلـــهـمـــا الأصـواتي، فمـن ذلـك مـثـــلا قـــول ابـن يـعـيـــش فـي شـــرح الـمـــفـصـــل (ج. 10، ص 16).

" قولك قال وباع وأصله قول وبيـع فقلبوا الواو والياء ألفا لتحركهما وانفتاح ماقبلهما وكـذلك طال وهاب وخاف والأصل طـول وهيب وخاف فأبدلتا ألفين لما ذكر ".

فالقاعدة الصواتية الـواردة في نص ابن يعيش يمكن صياغتها صوريا كالتالي :

ق. (1) { و / ي } ـــــــ ا ← ـــــ / ـــــ ـــــ ∅ ح

وتقرأ هـذه القاعدة : حول الـواو أو الياء ألفا، إذا وقعتا بعـد فتحة، وكان بعـدهما حركـة، مع حذف الحركـة الواقعـة بعدهما، وتطبيـق هذه القاعـدة علـى التمثيـلات الصواتية لقـــال وبـاع وطـال وهاب وخـاف، أي :

/ق ـُ و ـَ ل + ـَ /، / ب ـَ ي ـَ ع + ـَ /، / ط ـَ و ـُ ل + ـَ /،

هـ ـِ ي = ب + ـُ /، خ ـ و = ف + ـَ /.

يعطينـــــا :

ق ـُ ال + ـُ، ب ـ ا ع + ـُ، ط ـُ ا ل + ـ ، هـ / ب + ـ،

خ ـُ اف + ـَ.

وتحتاج هذه المتـواليات إلى قـاعدتين أخـريين للوصـول إلى تمثيلاتها الاصواتية هما :

– قاعدة المماثلــة المقطعية Syllabic assimilation التي اقترحها (بــريم Brame (1970) وأعدنا صياغتها على هذا النحو :[32].

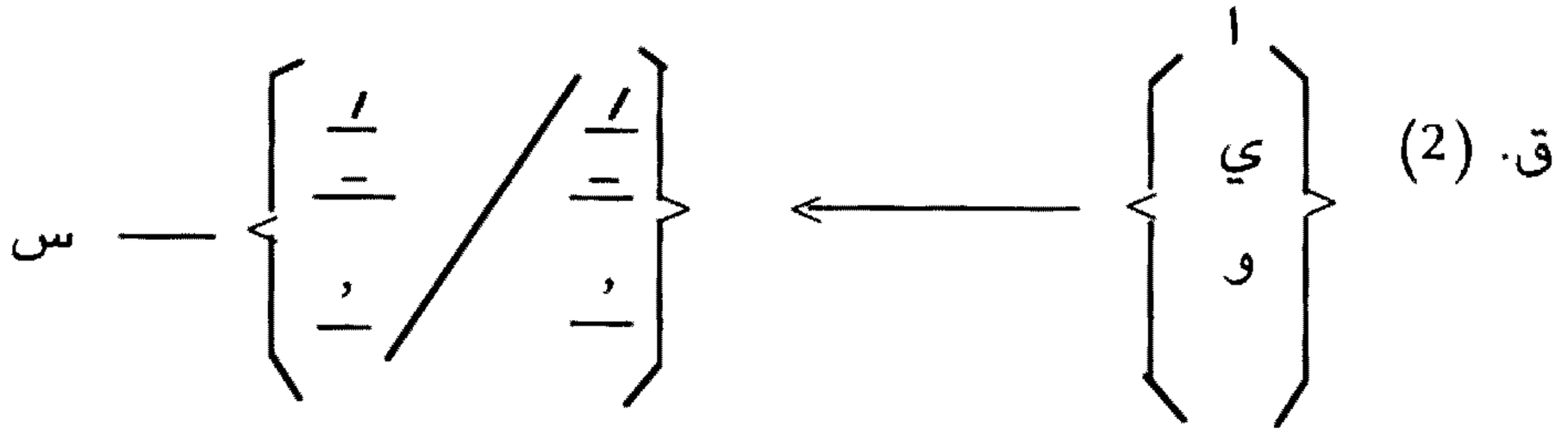

وتقول هذه القــاعدة في طابعها غير الصوري، حــول الألــف فتحة إذا وقعت بعد فتحــة وكان بعدهــا ساكن، وحول اليــاء كسرة إذا وقعت بعد كسرة وكان بعدهــا ساكن، وحول الواو ضمة إذا وقعت بعـد ضمة وكان بعدها ساكن. وتطبيق هذه القاعدة على خرج ق.(1) يعطينا :

ق ـَ ـَ ل + ـَ ، ب ـَ ـَ ع + ـَ ، ط ـَ ـَ ل + ـَ ، خ ـَ ـَ ف + ـَ هــ ـَ ـَ ب + ـَ .

وتحتاج هذه التمثيــلات التحتية[33] إلى قاعــدة أخرى، هي قــاعدة المد التي صاغها بريم (1970، ص. 108) كالتالي :

ق. (3) ح ح ⟵ ح.

وتقــرأ هــذه القــاعــدة : حول الحركتين المتماثلتين حــركــة طــويليــة وبموجب ق. (3) تحول الفتحتان القصيرتان في المتواليــات السابقة فتحة طويلة، فنصبح أمام التمثيلات الأصواتية التالية.

[قH ل ـَ] ، [بH ع ـَ]، [طH ل ـَ]، [هــH ب ـَ]، [خH ف ـَ].

---

32) أما الاسباب التجريبيــة التي حملتنا على اقتراح صياغة جديدة لقاعــدة المماثلة المقطعية، فقد ناقشنا في الوادي (1990 ص. 13).

4 – خلاصة واستنتاجات :

كان هدفنا من خلال معالجتنا لهذا الموضوع هو إبراز مكانة الصواتة في الصرف العربي القديم، وإثارة الانتباه إلى الخلط الذي وقع فيه بعض النحاة والصرفيين القدماء، خاصة الرعيل الأول منهم حين تناولوا في التصريف أو الصرف العربي أبوابا تنتمي إلى مستويين مختلفين في التحليل اللغوي، هما ميدان الصرافة، وميدان الصواتة، فسموا كل ماينـدرج تحتهما من أبواب صرافية وصواتية : صرفا أو تصريفا، الأمر الذي قد يوحي للقارىء غير المختص، أنهم لم يتطرقوا في دراساتهم للغة العربية إلا للقضايا التركيبية والصرافية، وأنهم أهملوا في دراساتهم قضايا الصواتة العربية.

والواقع أن الأمر على خلاف مايبدو فالقارئ المتمرس للصرف العربي القديم، يستطيع أن يميز بوضوح بين ماهو صرافي وما هو صواتي في أبحاثهم، بل يمكن القول إن التحليلات الصواتية التي قدمها القدماء للنسق الصواتي العربي لاتقل أهمية عما قدموه من تحليلات للمستويات اللغوية الأخرى. فهم في معالجتهم لأية ظاهرة من الظواهر الصواتية في اللغة العربية، كانوا لايقفون عند مستوى ملاحظة الوقائع اللغوية ووصفها، بل يتجاوزون أحيانا مستوى الملاحظة والوصف الى مستوى التعليل والتفسير. وهذا ماجعل تحليلاتهم الصواتية –على قدمها – تقف شامخة أمام أحدث النظريات اللسانية في مجال الصواتة، وهذا مادفع ببعض الصواتيين الغربيين مثل بريم M. Brame وبواس G. Bohas إلى القول بأن منهج القدماء في معالجة القضايا المرتبطة بالصواتة والصرافة شبيه بالمنهج المعتمد في اللسانيات التوليدية عموما والصواتة التوليدية على وجه الخصوص[34].

ويحق لنا، في نهاية هذا المقال، أن نطرح السؤال التالي : لماذا وقع هذا التداخل بين ماهو صرافي وماهو صواتي في الصرف العربي القديم ؟

---

33) الفرق بين التمثيلات الصواتية والتمثيلات التحتية يتمثل في أن الأولى هي التي تكون دخلا لأول قاعدة صواتية، أما الثانية فهي التي تقع بين التمثيل الصواتي والتمثيل الاصواتي للمتواليات انظر (F. Dell (1973) P 196).

34) انظر : M. Brame (1970, p : 8) et G. Bohas (1979, p : 2)

لقـد سبق أن بينـا في الفقـرات الماضيـة، أن هنـاك ارتبـاطـا وثيقـا بين المستويين الصرافي والصـواتي في اللغة العـربية. هـذه اللغة التي تعـد من اللغات الاشتقاقية بدون منازع.

فقد أشرنا أعـلاه إلى أن المتواليات الصواتية التي تكـون دخلا للمكون الصواتي هي التي تكـون خرجا للمكون الصرافي بعد تطبيق كـل القواعد الصرافية، وكـذا قواعد التعـديل، فيكون خرج المكـون الصرافي بعد تطبيق هذه القواعد عددا من الصيغ الصرفية التي تكون مطابقة تماما للتمثيلات الصواتية. هذه التمثيـلات هي التي تكون دخلا input للمكون الصواتي، وتطبق عليها أول قاعدة صواتية.

ومن مظاهـر هذا الارتباط كذلـك، أن كلا من القواعد الصرافيـة وكذا القواعـد الصواتية تأخـذ كمجال لها في التطبيق بنيـة جذع الكلمة، تـاركة مـايطـرأ من تغييرات على أواخر الجذوع لميـدان التركيب، وهـذا مـاحمل القدمـاء على الاعتقاد أن كـل مايطرأ على بنيـة جذع الكلمـة من تغييرات هوذو طبيـعـة صرافـية، والـواقـع أنـه ذو طبيعـة صرف – صواتية "morphophonologique " أي أن من هـذه التغييرات ماهـو صرافي محض، وينتمي إلى المستـوى الصرافي للغة العـربية، ولـه أبـواب خاصـة سبقت الاشـارة إليها أعـلاه، وهـذه الأبواب بمفـردهـا هي التي يمكن أن تشكل مجالا لمباحث الصرافة العربية.

أما النـوع الثاني من التغييرات فهـو ذو طبيعة صـواتية، ولـه أبواب خاصـة في اللغة العـربية كـذلك : كالابـدال، والادغام، والاعـلال، والقلب، والنقل، وتخفيف الهمزة (بأنواعه)[35] والابتداء والوقف، والتقاءالساكنين.... إلخ. فهـذه الأبواب ومـايرتبط بها من قضـايـا صواتيـة هي التي تشكل مجالات خصبة للبحث في الصواتة العربية.

35) تخفف الهمزة بالقلب أو الحذف أو التسهيل بين بين.

6. بيبليـوغرافيـا :

6. 1. بعض المراجع العربية :

– الأشموني علي بن محمد، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الفكر، بيروت.

– ابن جني، ابـو الفتح بن عثمان، الخصائص، دار الكتاب العـربي بيروت – لبنان.

– ابن جني، أبو الفتح بن عثمان، سر صناعة الاعراب، ج 2، دار القلم دمشق، 1985.

–ابن جني، أبـو الفتح بن عثمان، اللمع، دار الكتب والوثـائق القومية القاهرة. ط 1، 1978.

– السغروشني إدريس، مدخل للصواتة التوليدية، دار توبقال للنشر، 1987.

– السيوطي، جلال الـدين، المزهر في علوم اللغة وأنـواعها، دار الفكر، بيروت.

– ابن عصفـور، أبـو الحسن علي الاشبيلي، الممتع في التصريف، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1970.

–الفاسي الفهري، بناء الموازي، نظرية في بناء الكلمة وبناء الجملة، دار توبقال للنشر، 1990.

– ابن يعيش، أبـو البقاء، شرح الملوكـي في التصريف، المكتبة العـربية 1973.

– الوادي، محمد، الابدال في اللغة العربية، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط (1990).

2.6 بعـض المراجـع الاجنبيـــة :

- Brame , M.K. (1970), Arabic phonology : implication for phondogical theory and historical semitic . Ph. D dissertation : Diss, M.I.T.

- Bohas, G (1979), contribution à la méthode des grammairiens Arabes en morphologie et en phononologie d'après des grammairiens tardifs, U. de Lille III, 1982.

- Dell. F. (1973), Les règles et les sons : Introduction à la phonologie générative, Collection Sauoir, Hermann.

- De Saussure, F. (1916), cours de linguistique générale. Payot, Paris (1969).

- Gleason, H.A. (1967), introduction à la linguistique. L. Larousse, Paris (1969).

- Hjelmslev, L. (1963), le langage, les éditions de minuit, (1966).

- Mc Carty, J (1979), Formal problems in Semitic phonology and morphology. Doctora Disseration: M.I.T; compridge.

- Sapir, E. le langage, Paris, Payot, 1953.

- Scalise, S. (1984), generative morphology, Foris publications: Dordrecht Holand.

محاولة للتعريف بنظرية الحواجز عند تشومسكي

ذ . أحمد مخوخ
كلية الآداب – مكناس

ملخص :

بعد عمل جاد ومتواصل دام أكثرمن ثلاثين سنة ، استطاع العالم اللساني نعام تشومسكي أن يتوصل إلى صياغة نظرية تركيبية ذات طابع كلي . هذه النظرية ، التي يطلق عليها بالعربية " نظرية الربط العاملي " ، عرفت تطورا سريعا ومهما ؛ ويعد نموذج " الحواجز " ثمرة " لهذا التطور ، الذي يهدف أساسا إلى توحيد دراسة البنية التركيبية لمختلف اللغات الطبيعية . وهذا الهدف الطموح جعل تشوسكي يعادل نظريته بالنحو الكلي ، ولذا نرى بأن نظريته هذه ترتكز على مبادىء وبرامترات محدودة يمكن تطبيقها على كثير (إن لم يكن كل) اللغات الطبيعية . وهذه نتيجة تثير الإعجاب وتدفع إلى ترجمة محتوى هذا العمل إلى العربية من أجل الإستفادة منه . إلا أن هذه المحاولة ليست سهلة كما يبدو ، لكنها بداية المحاولة .

تمهيد :

في هذه المقالة، سأحاول أن أعرف بنظرية الحواجز، التي اقترحها تشومسكي (1986 ب). هذا النموذج التركيبي يتميز بمستوى عالي من التجريد بحيث يرتكز على أقل عدد من القواعد والمفاهيم حتى

يكـــــون للنظـرية طـابع شمولي. إلا أن هــذه الخاصية تشكل صعــوبة بالنسبــة لبعض اللسانيــين العــرب المعاصـــــرين الذيـــــن لايعــرفون اللغة الانجليزية وبالتالي يجهلون مــراحل طويلة من تاريخ هذه النظرية : ولكي يتمكــن القـــــارىء مــن فهــم التحليل في ضوء هذا الإطار، ينبغي أن نبدأ بشرح أهم المفــاهيم التي تبدو معقــدة ومتداخلــة فيما بينهـــــا. وكتــوضيح لهذا الــشـــــرح، ســأتـــطــرق إلى ظـــاهـــرة الاستـفـــهام الــجــزئـــي أو الــمــيــمـــــي (WH - QUESTIONS) فـــــي اللغـــــة العــربــيـــة[1].

1 – إطار الحواجز :

يعتبر إطار الحواجــز امتدادا مهما لنظــرية الــربط العاملي[2]، ويتميز بخاصيتين أساسيتين :

تـــتـــعلـــق الخاصيــة الأولى بتـــوحيـــد نظريـــة "النقــل" ونظريــة "العامل" تحت مفهــوم واحــد، وهــذا المفهــوم المشترك هــو " الحاجــز " (barrier)، ويمكــن تعريفــه كما يلي :

1 – 1 – مفهوم " الحاجز " :

في إطار الربط العاملي، كانت الحواجز تنحصر في المركب الاسمي (NP) وج (S)، بينما في إطار الحواجز، ليست هناك حواجز مطلقة، بمعنى أن أي أقصى اسقــاط (maximal projection)، بغض النظــر عن نوعيــة مقولتــه، يمكــن أن يكـــون حــاجــزا (للنقل أو العمـــل) إذا كــان غيرمـــوســـوم معجميــا (Lexically - Marked). ويمكن صياغة هذا المفهوم كما يلي :

---

1) هذه المقالة مقتبسة من رسالتي التي تقدمت بها لنيل دبلوم الدراســات العليـــا والتي تحمــل عنوان : "WH - Questions In Standard Arabic : A Government - Binding Approah ."

2) انــظر تشوسكي (1981) (محاضرات عن الربط العاملي).

(1) تعد المقولة التركيبيـة ب موسومة معجميا إذا كانـت فضلة لمقولة معجمية أ.

وتتضـح هذه العلاقة في التشـجيرة التالية :

(2)... [مقـــ. مع [مقـــ. تر...]

أ ب فضلة

أ = مقـ. مع : مقولة معجمية (X) مثل الفعل أو الحرف أو الاسم.

ب = مقـ. تر. مقولـة تركيبية ("X) مثل المركب الإسمـي أو المركب الحرفي.

انطلاقا من (1) يمكن تحديد مفهوم " الحاجر"، لكن على مرحلتين: أولا يجب أن نعرف مفهوم " المقولة الحاجزة " (Blocking category) كما يتبين في (3)، وعنـدئـذ يمكن تفسـير معنى الحاجـز (barrier) (4) :

(3) تعتبر أ مقولة حاجزة لـ. ب إذا كانت أ غير موسومة معجميا و أ تشرف على ب.

(4) أ – تعـد أ حاجزا لـ. ب إذا كانـت أ تشرف مباشـرة على م، م مقولة حاجزة لـ. ب، أو

ب – تكون أ مقولة حاجزة بنفسها، باستثناء ج (IP).

لاحـظ أن تعريف الحاجـز في (4) له طابـع علاقـي. ففي (4 أ)، تعـد أ حاجـزا عـن طـريـق التـوارث (barrier by inheritance)، وهذا النوع من الحواجز يمكن توضيحه على ضوء التمثيل التالي :

(5) أ [م [ب....]

↑

مقولة حاجزه

حاجز لـ. ب

نلاحظ من (5) أن أ لاتشرف مباشرة على ب، بحيث تفصلهما مقولة حاجزة م. هذه المقولة أسندت حاجزيتها (its barrierhood) لـ أ. وهكذا، فإن أ أصبحت حاجزا على طريق التوارث.

أما الحالة البنيوية في (4 ب) فتختلف جليا لأن أ مقولة حاجزة بنفسها :

(6) أ [ب....]

أ = مقولة حاجزة وحاجز كذلك، باستثناء ج (IP).

لهذا تعتبر أ في (6) حاجزا بذاته (inherent barrier). والجدير بالانتباه أن هذين النوعين من الحواجز، يفسران ظواهر تركيبية عديدة مهما اختلفت اللغات الطبيعية. وهذا الطابع الكلي لمفهوم الحاجز قلص الفرقات بين اللغات. فالقاعدة (4) لا ينحصر تطبيقها على الأنجليزية فقط، بل يمكن تعميمها على لغات أخرى وبدون تردد.

أما الخاصية الأساسية الثانية، التي تميز إطار الحواجز، فتتعلق بموقع اسم الاستفهام بعد تطبيق قاعدة انقل م (Move Wh-) :

2 – 1 – انقل م إلى موقع المخصص :

في هذا الإطار الجديد، يفترض تشومسكي أن تكوين الجمل الاستفهامية الميمية يتطلب نقل العنصر الميمي إلى موقع المخصص (Spec of CP) عوض مص (Comp). وهذا الافتراض الذي يرتكز على أدلة تركيبية موضوعية توضحه التشجيرة (7) والمثال (8) :

---

3) انظر فاسي الفهري (1989).
4) انظر مخوخ (1990) للتفاصيل عن أسباب إلحاق الفاعل إلى يمين المركب الفعلي على مستوى س – بنية ؛
انظر كذلك الفاسي الفهري (1987) وشلونسكي (1987).

(7) (جملة مصدرية) ج. مص (Complementizer = CP)

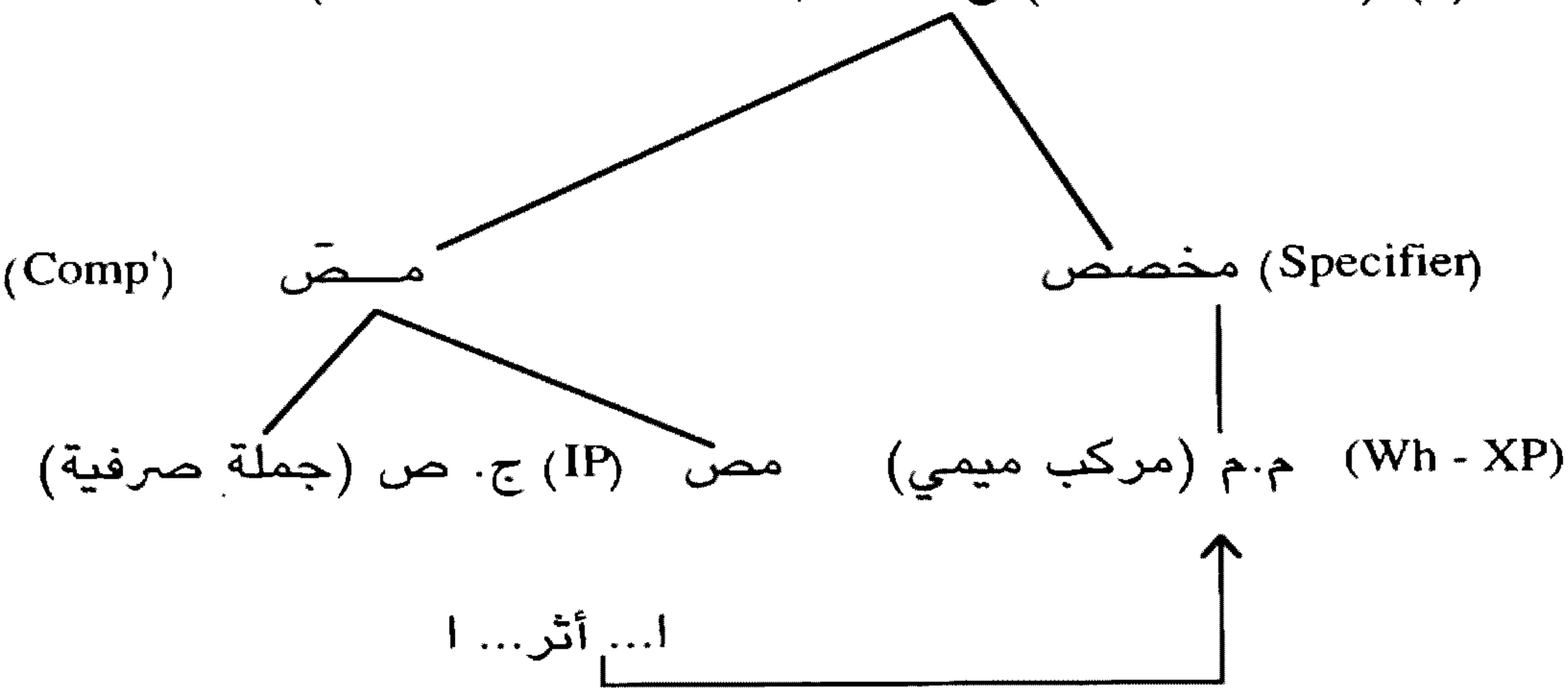

(8) من جاء ث (ث : أثر العنصر المنقول)

لاحظ أن موقع مص في (7) فارغ، ويمكن أن يكون مملوءا في اللغة العربية بالموصول الذي كما هو ممثل في:

(9) من الذي جاء ؟

والتمثيل التركيبي لهذه الجملة الاستفهامية تعكسه التشجيرتان (10أ) و (10 ب) :

(10) أ – [من [الذي [جاء ث]]]

س – بنية (S - structure)

ب –

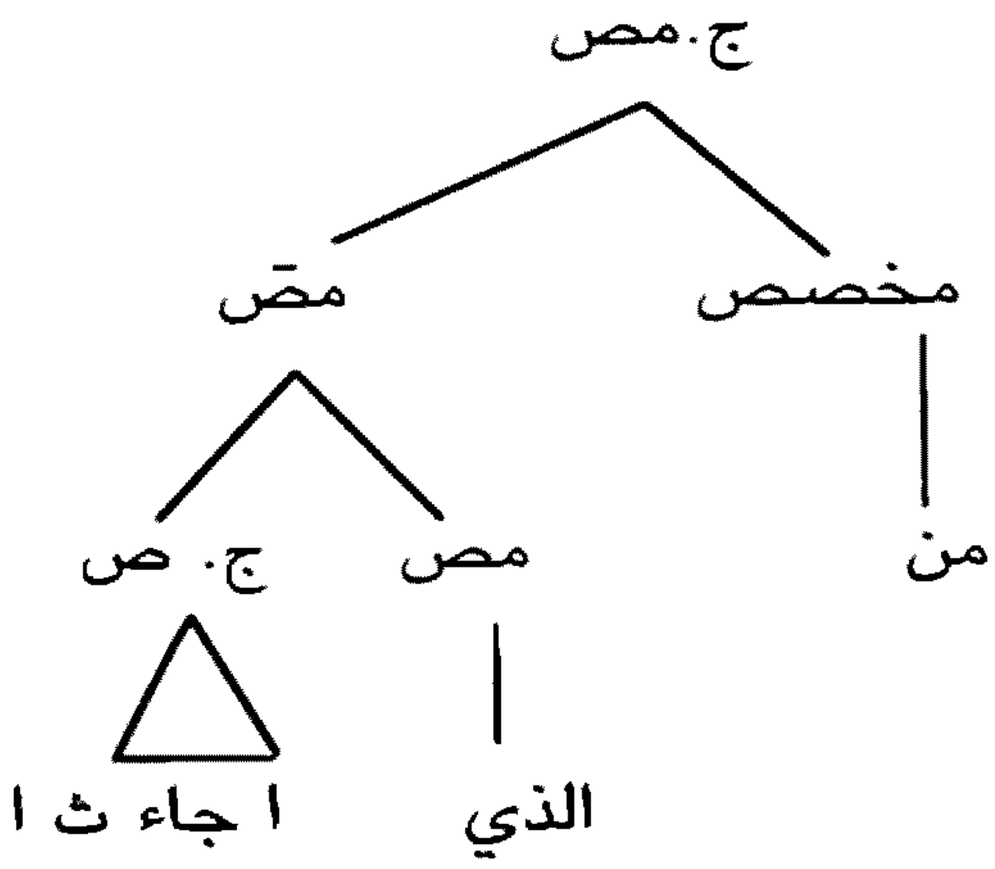

وفي مقابل (9) نجد جمل خبرية مثل الصلة في (11).

(11) أ – الرجل الذي جاء

بـ – [الرجل [الذي [جاء]]]

من البنيتين (10 أ) و (11 ب) يتضح أن الموصول الذي يتموقع في محل مص دون أي نقل. فهذا العنصر، (أي الذي) مولد في مص ويعتبر رأسا للمخصص من في (10) والرجل في (11 ب).

وكذلك يعد مص الموقع المناسب للمصدري أن في البنيات المدمجة وإن في البنيات الغير المدمجة ؛ فعلى سبيل المثال، لاحظ هاتين الجملتين :

(12) أظن أن الكاتب نشر مقالته

(13) إن الكاتب نشر مقالته

ويلاحظ أيضا أنه في اللغات التي تشبه الانجليزية، يكون مص موقع الهدف لعنصر من الصرفة (Subject/INFL inversion)، وهذا القلب يكون نتيجة تكوين جمل استفهامية من قبيل (14).

(14) What did John buy ?

[[What] [did] [John [ ] [buy t]]]

CP Spec Comp IP I' VP

(ماذا اشترى دجون ؟)

بعد هذه اللمحة الوجيزة عن بعض مميزات إطار الحواجز يمكن أن نبدأ التحليل على هذا النحو قصد تحديد أهم الخصائص التركيبية لبعض الجمل الاستفهامية في اللغة العربية الفصحى، مثلا.

2 – التحليـل :

انطلاقا من الفرضية بأن رتبة مكونات الجملة الفعلية في اللغة العربية الفصحى، على مستوى البنية العميقة، هي : فاعل – فعل – (مفعول به)، تأمل الامثلة التالية :

(15) أ – أتساءل من فتح الباب.

كيف تستطيع نظريـة الحواجز أن تفسر نحـوية (15) ؟ للإجابة عن هـذا السؤال، يجب أن نتمعـن بدقـة في البنيـة التركيبية المسنـدة لهذه الجملة :

(15) ب – أتساءل [[من] [ ] [ضم [فتح] [ث [ث الباب]]]
ج. مص مص ج. ص ص م.ف م.ف

انطلاقا من (15 ب)، يتبين بأن العنصر الميمي من، والـذي له وظيفـة الفـاعل، نقل مـن مخصص المركب الفعلي (م.ف) إلى مخصص ج. مص (Spec CP)[4]. وهـذه العمليـة لم تخرق أي مبـدأ مـن مبـادىء نظـريـة الحواجز. ففيما يتعلق بمبدأ المقولة الفارغة[5]، (The ECP) مثلا، يمكن أن نقترح التفسير التالي، في (15 ب)، نلاحظ بأن أثر الفاعل الميمي (Subject – Wh) معمول فيـه كما يناسب بسـابقه من الممـوقع في مخصص – مص، بحيث إنه ليـس هناك حاجـز يفصل بينهما : المركب الفعلي (VP) موسوم معجميا (L - marked) بفعل فتح المنقول إلى الصرفة، والجملة الصرفية (ج. ص = IP) لا يمكنها أن تكـون حاجـزا لأن الاسقاط الأكبر الـذي تشرف عليه مباشرة (م.ف) مـوسوم معجميا كما سبقت الإشارة إليـه. من هنا، نستنتج بأن ث (trace) تحترم مبدأ المقـولة الفـارغة لأن قـاعدة انقل م

---

5) مبدأ المقولة الفارغة : تعريفه :
– كل مقولة فـارغة يجب أن يكون معمولا فيها كما يناسب (المقـولة الفارغة = أثر مركب إسمي أو ميمي).
ففي المثال (8) و(15) (ث)، أثر الفاعل معمول فيه كما يناسب بسابقه من. ويتم العمل المناسب كـذلك إذا كان أثـر العنصر المنقول معمول فيـه بمقولـة معجمية كالفعل.

خضعت لمحلية صرفة (Strict Locality)، أي، لم تمر عبر أي حاجز (0 – تحتية = Subjacency – 0). وهذا يعني كذلك بأن قيد التحتية لم يخرق في (16 أ).

3 – خاتمة :

هذا باختصار كيف يمكن أن نستغل مفهوم " الحاجز " لتفسير بنية الجمل الإستفهامية المباشرة والغير المباشرة من قبيل (15). وفي مقالة لاحقة، سأعرف بأنواع أخرى من الحواجز في نفس الإطار ؛ حينئذ يمكن تحليل جمل مختلفة من اللغة العربية بنوع من الدقة والموضوعية.

المراجع :

1 - Chomsky, N (1981) Lectures On Government and Binding. Foris, Dordrecht.

2 - Chomsky , N. (1986 b) Barriers, Cambridge, MA: MIT Press.

3 - Fassi Fehri , A. (1987) "Case , Inflection , VS Word Order and X ' Theory ", Proceedings of the First International Conference of the Linguistic Society of Morocco,Vol. 1. Okad, Rabat.

4 - Fassi fehri. A. (1989), Agreement, incorporation, pleonastics and VSO-SVO order.

MIT Working Papers in Linguistics.

5 - Makhoukh, A. (1990) WH - Questions in Standard Arabic : A Government and Binding Approach , MA thesis, Faculty of Letters, Fes.

6 - Shlonsky, U . (1987) Null Subjects and Displaced Subjects, unpublished Ph. D . dissertation, MIT.

النظرية الفونولوجية

ذ . أحمد العلوي
كلية الآداب – مكناس –

ملخص :

لقد أصبحت بنية التمثيل الفونولوجي موضوع نقاش جاد في السنوات الأخيرة، بعدما اتضح للصواتيين التوليديين أن هناك مظاهر للكلام في اللغة البشرية تستلزم الإعتراف بوحدات صواتية يقصيها الأنموذج المعيار المقدم في عمل تشومسكي وهالي (1968). وتطور البحث الصواتي، إثر ذلك، ليقدم أنموذجا يربط الصواتة بمستويات التحليل اللساني الأخرى، كالمعجم والتركيب والدلالة من جهة، وله صلة شديدة بالنظريات السيكولوجية كالإدراك واكتساب اللغة من جهة ثانية. وتهدف هذه الورقة إلى إطلاع القارىء على نقط التحول في النظرية الفونولوجية ؛ وتوضح كيف تطورت الصواتة لتقدم أنموذجا نظريا وتمثيليا يشبه أنموذج الكيمياء.

تقديم :

عرفت النظرية الفونولوجية تحولات عديدة. فرغم أن هدفها بقي كما كان – أي معالجة الأصوات ومتواليات الأصوات في اللغة البشرية – يلاحظ أن البناءات النظرية والمقاربات قد عرفت تطورات واختلافات

واضحة. ونود من خلال هذا المقال أن نقدم عرضا موجزا لتاريخ النظرية الفونولوجية لنطلع القارىء على أهم التطورات التي ميزت الصواتة خلال هذا القرن.

يعتبر **نسق الأصوات في الإنجليزية** (تشومسكي وهالي 1968) برنامج بحث في النظرية والتمثيل الصواتي يقاس في ضوئه كل اقتراح يتم طرحه في العمل الفونولوجي. فقد قدم تشومسكي وهالي (**النسق**) أنموذجا نظريا توليديا يختلف عما سبقه بالنظر إلى كونه جزأ لايتجزأ من نحو أعم يضم مكونات أخرى كالتركيب والمعجم والدلالة. وفي ذات الوقت هيأ **النسق** أرضية خصبة لنقاش جاد حول هندسة التمثيل الصواتي، وطبيعة الوحدات والقواعد الفونولوجية.

سنتطرق في القسم الأول من هذا المقال إلى مبادىء الصواتة قبل نشر **النسق** (الأنموذج المعيار). وسنبين في القسم الثاني كيف استفاذ تشومسكي وهالي (1968) من الصواتة الكلاسيكية عند البنيويين ومدرسة براك، ليقدما أنموذجا توليديا متكاملا ينسجم ونظرية نحو أشمل رسمها تشومسكي (1957 و 1965). سنعرض في القسم الثالث النظريات الصواتية التي أعادت النظر في مبادىء **النسق** – أي صواتة القطع المستقلة والصواتة العروضية والصواتة المعجمية – لتفسر مظاهر الكلام التي لا يتناولها هذا الأنموذج أو يخفق في معالجتها بكفاية وبشكل أنيق. ونشير منذ الآن إلى أن هذه النماذج تعتبر توليدية إذ لا تتعارض مع روح الأنموذج المعيار بقدرما تطور مبادئه قصد الامساك بالتعميمات الدالة صواتيا في اللغة البشرية.

ولا يعد هذا المقال جامعا مانعا للنظرية الفونولوجية، إذ يقتصر على عرض أهم المبادىء التي شكلت نقط التحول في النظرية والتمثيل الفونولوجي. ولاطلاع أشمل وأعمق على مختلف النظريات المقدمة هنا، نحيل القارىء على بعض الأعمال في خاتمة هذه الورقة.

I – الصواتة قبل النسق :

تحاول أية نظرية فونولوجيـة أن تفسر ظواهر ثلاثة للغة معينة : (1) تخصيص جملة الأصـوات التي تقع في تلك اللغة، و (2) تحديد التواردات الممكنة للأصوات في كلمة معينة (جذر معين بالنسبة للغة العربية)، و(3) تعيين عمليات زيـادة وإقصاء وتغيير الأصوات. ويـرى الافتراض المعيار أن القيـام بهذا العمـل قـد ينتج عن إطـار نـظـري محدد للـوصف الفونولوجي. إلا أن هذا لم يحدث في التحـاليل الصواتية التي جاءت قبل **النسق**، رغم أنها أجابت عن المحاور الثلاثة أعلاه بطريقة أو بأخرى.

I – 1 – الصواتة الكلاسيكية :

ماهي وحدات اللغـة ؟ وماهو توزيعهـا ؟ وكيف تحقق ؟ هـي الأسئلة الأساسية التي شغلت الفونولوجيين في مرحلة ما قبل **النسق**. فقد حاول بلومفيلد (1933) واللسانيون البنيـويون في أمريكا ان يحددوا الـوحدات الصغرى للغة، وافترضوا أن هنـاك نمطين من الأصوات : أصواتا تقع في نفس السياق وتغير معنى الأقوال مكونة بذلك أزواجا صغرى مثل الكاف والقاف في كلب وقلب، وأصواتـا ترد في سيـاقات تقصي بعضهـا البعض وتكـون في تـوزيع تكـاملي.ويطلق على الأولى فـونيمات وتسمى الثـانيـة متغيرات. وتعتبر الفونيمات عناصر نسقية لكـونها تنتسب للغة بوصفها منظـومـة، في حين تعتبر المتغيرات عنـاصر غير نسقيـة لأنها تحقيقـات صوتية يمكن التنبؤ بها.

ويعد التشابه الصوتي للقطع معيارا آخـر يقاس به الوضـع الفونيمي. ذلك أنه يجب على متغيرين لصـوت نسقي (فونيم) واحد أن يكـونا ليس فقط في تـوزيع تكاملي، بل كذلـك أن يكـونا متشابهيـن صـوتيا مثل [p]و [p^h] في الإنجليزية.

ويمكن لمجمـوعة من الأقـوال أن تنطوي على حـالة نجـد فيها ثـلاثة أصوات يكـون اثنين منها متعـارضين ويكون الصـوت الثالث في تـوزيع تكاملي معهما. وتسمى هـذه الحالة بحـالة الإبطـال أي أن التعارض بين الصوتين يعتبر معلقا.

ويـلاحظ ان التحـاليل الفونيميـة الكـلاسيكيـة تتمحور على مفهـوم التعـارض وهـو مفهـوم عـرف في القـرن الثـاني قبل الميـلاد واستغلـه البنيـويون في الشطـرالثاني مـن القرن التـاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين.

لقد كان الـرأي القائل بأن الفونيم هو الوحدة الصغـرى للغة يستلزم تحديـدا لهذا الكـائن. وبالفعـل، فقد حـاول الكثير من اللسـانيين تقـديم تعريف بـدرجات متفـاوتة من النجـاح(جونس 1950، وشـاوو 1934، وهوكيت 1942 وآخرون). وإذا كـانت الفونيميـة الكلاسيكيـة قد اهتمت بعزل الأزواج الدنيـا كمنهجية أساسية لتعيين مجمـوع الفونيمات في لغة مـا، لم تكن تلك المنهجية ذات كفـايـة. وهكذا، زاد اللسـانيون متطلبـات أخـرى للتحلـيل الفونيـمي. فقـد أضـاف هوكيـت (1942)، مثلا، متطلب " عدم التداخل " والذي مفـاذه أن الفونيم يعرف بـوصفه اقتران لملامح صـوتيـة وأن كل صـوت يتـوفـر على تلك الملامح المحـددة يعـد عضومن ذلك الفونيم.

واهتمت الفونيميـة الكلاسيكيـة كذلك بتحديـد مجموع القـواعد التي تفسر سلوك المتغيرات لكل عضو في النسق الصوتي للغة. إلا أنها تفرض بعض الشروط على معالجة الفونيمات، إذ تعطي الأولوية للفونيم بوصفه الوحـدة النواة للصـواتة. وتشترط أن يكـون لكل صـوت في سياق معين متغير واحد فقط، وذلك لتجنب اللبس.

وتفترض الفـونيميـة الكـلاسكيـة أن الصـواتـة مستقلـة تمامـا عن المستويـات الأخـرى للتحليـل اللسـاني، حيـث لايسمح للمحـلـل أن يمـزج بين الصواتـة والتـركيـب أو الصرف ليفسـر ظاهـرة صـواتيـة معيـنـة.

ومن أهم القضايا التي نوقشت في هذا الأنموذج : التمثيل لحالات غير معتـادة للمتغيرات، والـوضـع الفونولوجـي للحـدود وطبيعتهـا، وتمثيل بعض الخاصيـات الفـوق قطعية للـكـلام. وتجدر الإشـارة الى أن كل تحاليل الفونيمـيـة الكلاسيكيـة تنجـز فـي ضـوء معطيـات لغـات مـعيـنـة.

I – 2 – مدرسة براغ (تروبتسكوي وياكوبسون)

ترتكز صواتة براغ، كما يتضح ذلك في تروبتسكوي (1939)، على مفاهيم التعارض والمكونية (الملامح) والوسم.

يعتبر النظام الفونيمي للغة مانسقا من التعارضات وليس مجموعة من الأصوات المتعارضة فقط. وعليه، لاترتكز الأنساق الصواتية للغات على مجموعات من الأصوات بل تتأسس على التعارضات التي تميز تلك الأصوات فيما بينها. وهكذا، فالقطعة الصوتية ليست كائنا لا يتجزأ، بل هي تستلزم بنية، أي مجموعة منظمة من الملامح أو المكونات (الحركات العضوية). وتتألف هذه المكونات لتكون قطعا.

يصف تروبتسكوي التعارض بين [p]، و [b] في الإنجليزية، مثلا، بوصفه تعارضا في الجهر، ويرى أن التعارض يمكن أن يكون ثنائيا، أو تناسبيا أو يمكن إبطال مفعوله. وأوضح تروبتسكوي على ضوء هذه المفاهيم أن اشتغال تعارض معين قد يختلف باختلاف اللغات.

وإذا كان تروبتسكوي قد انشغل بتحديد الخاصيات الفونولوجية للتعارضات الصوتية كالجهر في الصوامت والعلو في المصوتات، فقد كان انشغال ياكوبسون مختلفا نوعا ما. فهو يفترض أن تخصيص بعض التعارضات يحجب تعارضات أخرى لا تقل أهمية، وقد تنتج عنه تعارضات مضللة. وأوضح ياكوبسون وفانت وهالي (1952)، مثلا، أن اللغات لا تعارض الصوامت المفخمة مع نفس الصوامت المصحوبة بحركة شفوية ثانوية (الاستدارة المرافقة)، أي [T]، [t^w] مثلا. ويعتبر هذان الصوتان تحقيقين صوتيين سطحيين لنفس الملمح العميق [+ غليظ] وهكذا كان ياكوبسون أول من اهتدى الى الفكرة القائلة بأن عدد الملامح الصواتية قد يكون مختلفا عن عدد الملامح الصوتية (السطحية). ويقترح أن كل التعارضات الموجودة في اللغات العالمية يمكن وصفها من خلال 12 أو 15 ملمحا. وتؤسس هذه الملامح على حركية اللسان وأعضاء الممر الفموي الأخرى من جهة، وعلى الرسوم الطيفية (الطبيعة

الفيزيائية) للأصوات من جهة أخرى. ونقدم فيما يلي جردا للملامح التي يقترحها ياكوبسون وفانت وهالي (1952) :

* متكاثف – منتشر (compact / diffuse) : يصف الملمح [+ متكاثف] الأصوات المنطوقة في الجزء الأمامي من الممر الفموي، والتي تستلزم تكثيفا للطاقة على شكل حزام ضيق في منتصف الرسم الطيفي. وتعتبر المصوتات المنخفضة والصوامت الغشائية والحنكية [+ متكاثف] أو [– منتشر].

ويصف الملمح [+ منتشر] الأصوات المنطوقة في الجزء الخلفي من الفم التي تتسم بتكثيف للطاقة في أسفل الرسم الطيفي. وتعتبر المصوتات العالية والصوامت الأمامية [+ منتشر] أو [– متكاثف].

* غليظ / حاد (grave / acute) : يصف الملمح [+ غليظ] الأصوات المنطوقة على حواشي الممر الفموي والتي يظهر على رسمها الطيفي تجمعا للطاقة في الأسفل. وتعتبر الصوامت الشفوية والغشائية [+ غليظ] أو [– حاد].

ويصف الملمح [+ حاد] المصوتات الأمامية التي تتميز بذبذبات عليا في الرسم الطيفي. ويحيل هذا الملمح على القطع التي تعتبر [– غليظ].

* غضيض / واضح : يصف الملمح [+ غضيض] الصوامت والمصوتات المستديرة التي تستلزم إضعافا للذبذبات العالية في الرسم الطيفي.

ويصف الملمح [+ واضح] القطع التي تتسم بانفتاح واسع في الممر الفموي.

* شديد / رخو : يصف الملمح [+ شديد] المصوتات التي تستلزم تعويجا واضحا للممر الفموي، وانتشارا واسعا للطاقة في الرسم الطيفي سواء من حيث الذبذبات أو من حيث المدة الزمنية. أما المصوتات التي لا تتصف بذلك فهي [+ رخو]. وعلى سبيل المثال، يعتبر [e] [+ شديد] ويعد [ɛ] [+ رخو] .

* مجهور / مهموس : حضور مقابل غياب تذبذب الأوتار الصوتية.

* حاجزي / استمراري : يصف الملمح [+ حاجزي] القطع التي تستلزم فترة صمت متبوعة بانتقال مباغث إلى رقعة واسعة من الذبذبات في

الرسم الطيفي. وتتسم القطع [+ استمراري] بغياب هذا الانتقال. وتعتبر الأصوات المركبة نحو [ts] والحاجزيات نحو [b] و [p] [+ حاجزي]، وتعد الاحتكاكيات نحو [f] و [s] [+استمراري] أو [- حاجزي].

* صريري / سلس (strident / mellow) : شدة صوتية عالية مقابل شدة صوتية منخفضة. [z و s و $\underset{s}{v}$ و $\underset{z}{v}$ و f و v] مقابل [ð و θ].

* انفي / فموي : يصف الملمح [+ انفي] الاصوات التي تستلزم اختزال شدة بعض الحزم في رقعة الذبذبات وإدراج حزام أنفي اضافي في الرسم الطيفي وذلك لأن الرنين الفموي يكون مصحوبا برنين التجويف الانفي. وفي غياب انسياب الهواء من الانف تكون القطعة [+ فموي]([m و n] مقابل [t و k]).

* ناتيء / مسطح (Sharp / plain) : يصف الملمح [+ ناتيء] الصوامت التي تستلزم ارتفاع اللسان نحو الحنك مع تكون تجويف واسع وراء نقطة التلامس.ويستعمل هذا الملمح ليصف بعض الصوامت التي يكون لها نطق مرافق (ثانوي) نحو [t^{y}] و [l^{y}].

* محصور/ واضح : يصف الملمح [+ محصور] الصوامت التي تستلزم افراغا سريعا للطاقة في مدة زمنية جد قصيرة. ويصف التهميز كنطق مصاحب مثل [t ʔ] و [k ʔ].

* صامتي / مصوتي : حضور انقباض في الممر الفموي مقابل غيابه.

وتعتبر كل هذه الملامح ثنائية، أي إما تحمل قيمة + (زائد) او قيمة – (ناقص) في وصف قطعة معينة. وبعبارة أخرى، تتميز كل قطعة بحضور او بغياب ملمح ضمن مجموعة من الملامح. فالملمح [مجهور]، مثلا، يعتبر حاضرا في [z]. وغائبا في [s]. ويرى اتباع مدرسة براغ ان [s] غير موسومة بالنظر إلى هذا الملمح. وتتضح اهمية مفهوم الوسم في حالة تعليق التعارض بين قطعتين. في هذه الحالة، فإن العنصر غير الموسوم هو الذي يستعمل. وعلى سبيل المثال، هناك تعارض بين

الحاجزيات المجهورة والحاجزيات المهموسة في اللغتين الألمانية والبولاندية. إلا ان هذا التعارض يعلق في نهاية الكلمات، وتستعمل الحاجزيات المهموسة (اي غير الموسومة بالنسبة للجهر) فقط.

II – الصواتة التوليدية :

تتميز الصواتة التوليدية عما سبقها من نظريات باعتبارها تكون جزءا من نظرية أعم للغة. ذلك لان الوصف الفونولوجي يعتبر أحد مكونات النحو انبثق عن النظرية التوليدية التحويلية التي يتبناها تشومسكي واتباعه. ويمكن ان نلخص هذا الا نموذج لوصف اللغة على النحو التالي :

يخصص المعجم البنية الصرفية والصواتية لكل دخل معجمي، وتولد القواعد الاساسية وقواعد الادماج المعجمية البنيات العميقة. وتحول هذه البنيات إلى بنيات سطحية بواسطة المكون التحويلي. وتحول هذه البنيات السطحية بدورها الى أشكال صوتية واشكال " منطقية " بواسطة المكون الفونولوجي والمكون الدلالي على التوالي.

إن الهدف الاساسي لصواتة النسق هو تقديم نظام من القواعد من شأنه ان يولد اشكالا صوتية (كلمات) انطلاقا من مجموعة اشكال عميقة (قارة ومجردة). كما أنها تهدف إلى تقديم مجموعة محددة من الملامح المميزة لوصف القطع التي ترد في كل اللغات البشرية.

II – 1 – التجريد :

يرى تشومسكي وهالي (1968) ان كل دخل معجمي يتضمن بنية عميقة: أي إخبارا حول نطق الصريفة (أو الكلمة). إلا أن بعض مظاهر النطق تحدد بواسطة العمليات الفونولوجية التي تقع في اللغة. ويسمى وصف كيفية نطق الكلمة التمثيل السطحي أو الشكل الصوتي. وكلما كان الشكل العميق لكلمة ما أكثر اختلافا عن تمثيلها السطحي، كلما كان ذلك الشكل أكثر تجريدا.

ويستوجب على التمثيلات العميقة ان تخضع لشرط مفاده أن كل القطع التي تظهر في التمثيل العميق لكلمة مايجب ان تظهر بشكل صوتي

متنـاوب معين في التمثيل السطحي لتلك الكلمـــة. وان الغـرض من هـذا الشرط هو تقييد درجة التجريد التي تميز التمثيل العميق. ومع ذلك، فقد بـرهنت بعض التحـاليل التي تتبنى أنموذج النسـق على ان هناك قطعـا عميقة لاتطفو الى السطح ابدا. وكمثـــال على ذلـــك، يعتـبـــــر [: i] و [: u] مصوتين عميقين لايحققان في شكل صوتي في لغة ياويلماني.

II – 2 – الملامح :

على غرار تـروبتسكوي وياكـوبسون، يعتبر النسق الملامح بـوصفها عناصر نوويـة للصواته. وبذلك تعزى اهميـة أقل للقطعة نفسها. ويقترح تشـومسكي وهالي لائحـة بستة وثـلاثين ملمحـا لوصف كل الاصـوات الـواردة في اللغات البشريـة والتي يمكن استخـدامها لتخصيص اصنـاف الاصوات التي تشـارك في نفس العمليات الفـونولـوجية. وتعتبر كل تلك الملامح ثنائية ماعدا النبر، حيث يمكن لكل ملمح ان يحمل احدى القيمتين فقط : زائد أو ناقص. ويقدم النسق مـلامح مثل [صامتي] و [مصوتي] و [جهيري] لتصنيف القطع إلى اصناف رئيسـة، وملامح مثل [منخفظ] و [عال] لـوصف حركات اللسان، ومـلامح تصف مخارج الاصوات مثل [انفي] و [صريري]، وملامح تصف مكان تلامس اللسان بأعضاء اخرى مثل [طـرفي] و [امامي]. وبعكس نظـام الملامح الياكـوبسوني، تـؤسس الملامح في **النسق** على حركيـة أعضاء الممر الفموي وليس على خـاصيات الرسوم الطيفية للاصوات.

وتجدر الاشارة هنـا إلى أن القواعد الفـونولوجيـة التي تفسر عمليات المماثلة تصف كيف تحول الملامح من قطعـة معينة الى قطعة سـابقة أو لاحقـة. اي أن ملمحا معينـا (أو مـلامح) يتحـرك من مصفوفـة مـا من الملامح إلى مصفوفـة أخرى، وذلك في تسلسل أفقي. وهـذا هو السبب في تسميـة انمـوذج النسق بـالأنمـــوذج الخطي، حيث أنـه يـرى التغييرات بـاعتبارهـا تحدث على تـرابـــط (ترتيـب) خطي مـــن القطـع. ونقـــدم مثـالا على ذلـك في (1)، حيـث تتحـول الصاد [S] من [– مجهور] الى [+ مجهور].

(1) قصدير ← قزدير

ص	د	ز	د
+ طرفي	− استمراري	+ طرفي	− استمراري
+ أمامي	+ أمامي	+ أمامي	+ أمامي
+ استمراري	+ طرفي	+ استمراري	+ طرفي
− مجهور	+ مجهور	+ مجهور	+ مجهور
+ صريري		+ صريري	

II – 3 – القواعد الفونولوجية :

ترتكز الصواتة التوليدية في أنموذجها المعيار على القواعد أساسا وليس على البنية. وبالفعل، يصب **النسق** اهتمامه حول تخصيص القواعد التي تتحكم في العمليات الفونولوجية التي تشتغل في اللغات البشرية. وابتكر تشومسكي وهالي (1968) طرقا شكلانية لصياغة التغييرات التي تلحق بالقطع (الادراج والاختلاس والتطويل، والاضعاف والتقوية، والقلب...) بواسطة نظام الملامح المميزة بالاضافة إلى عدد من رموز الاختصار. ان الهدف من استخدام هذه الاعراف التمثيلية هو الامساك بمختلف الظواهر المفيذة والدالة للعمليات الفونولوجية. ولنعتبر (2) كمثال بسيط لقاعدة من هذا النوع.

(2) أ ← ب / ـــ س

يسمى "أ" دخل القاعدة او محط التغيير، ويسمى "ب" خرج القاعدة أو طبيعة التغيير. ويسمى كل ما يتلو السطرة (/) سياق التغيير حيث يشير الخط الافقي لمكان ورود القطعة التي تخضع للتغيير. ويسمى "س" مقرر التغيير.

III – صواتة مابعد النسق (الصواتة غير الخطية).

يعتبر النسق ارضية غنية ارتكز عليها الفونولوجيون، ابتداء من أوائل السبعينات إلى يومنـا هذا، لتقديم انتقادات وبـدائل تتعلق بالمجالات التي يخفق فيها النسق. وكذا بـالظواهر الصواتيـة التي لم يتم تناولها في هذا الأنموذج. وقـد انصب النـقـاش في معظـم الأدبيـات الفونولوجيـة حول بنيـة التمثيـل الفونـولـوجـي والوحـدات المستعملـة في التحليل الفونولوجي.

III – 1 – الصواتة ذات القطع المستقلة :

يرى كولد سميث (1976) أن الأنموذج المعيار له تصور بسيط للغاية للتمثيل الفـونولـوجي. واذا كـانت الصـواتة ذات القطع المستقلـة تقترح استبـدال التمثيل المعيار الاحـادي المستـوى بتمثيل متعـدد المستويـات، يتكون كل مستوى فيه من ترتيب خطي من القطع، وعلى حد تعبير كولد سميث (1976 – 23)، فيعتبر هذا الأنمـوذج "نظرية تفسر كيفية تناسق مختلف مكـونـات جهـاز النطق (أي اللسـان والشفتـان والحنجـرة والغشـاء...)، وهـذا الإخبار لايتأتي إلا بتقسيم هـذا التمثيل الموحـد [إلى مستويات عدة]."

وقد اقترحت الصواتـة ذات القطع المستقلة لأول مـرة لتناول ظـاهرة النغم، حيث لم يتم تناول تمثيل النغم، في اللغات النغميـة كالصينية ولغة إكبو، في أنموذج **النسق**. كما ان الخاصيات الفوق قطعية الاخرى لم تأخذ بعين الاعتبـار ماعـدا النبر. ولاحظ كولـد سميـث ان النغم " سمة " قطعية مستقلة مادامت هناك قـواعـد فـونـولوجيـة تغيـر الأنغـام (من عال إلى منحفـظ مـثـلا) دون أن تلحـق أي تغيـيـر بالقطعـة التـي تحمـلـه. ويـرى أنـه يجـب ان يمثـل للنغـم بـواسطـة مستـوى مستقـل للتمثيل. ويـوضـح الـرسـم (3) تمثيـل كلـمة [ɔ́ ɟ] ("جـبـل" في لغة إيفـي).

(3)

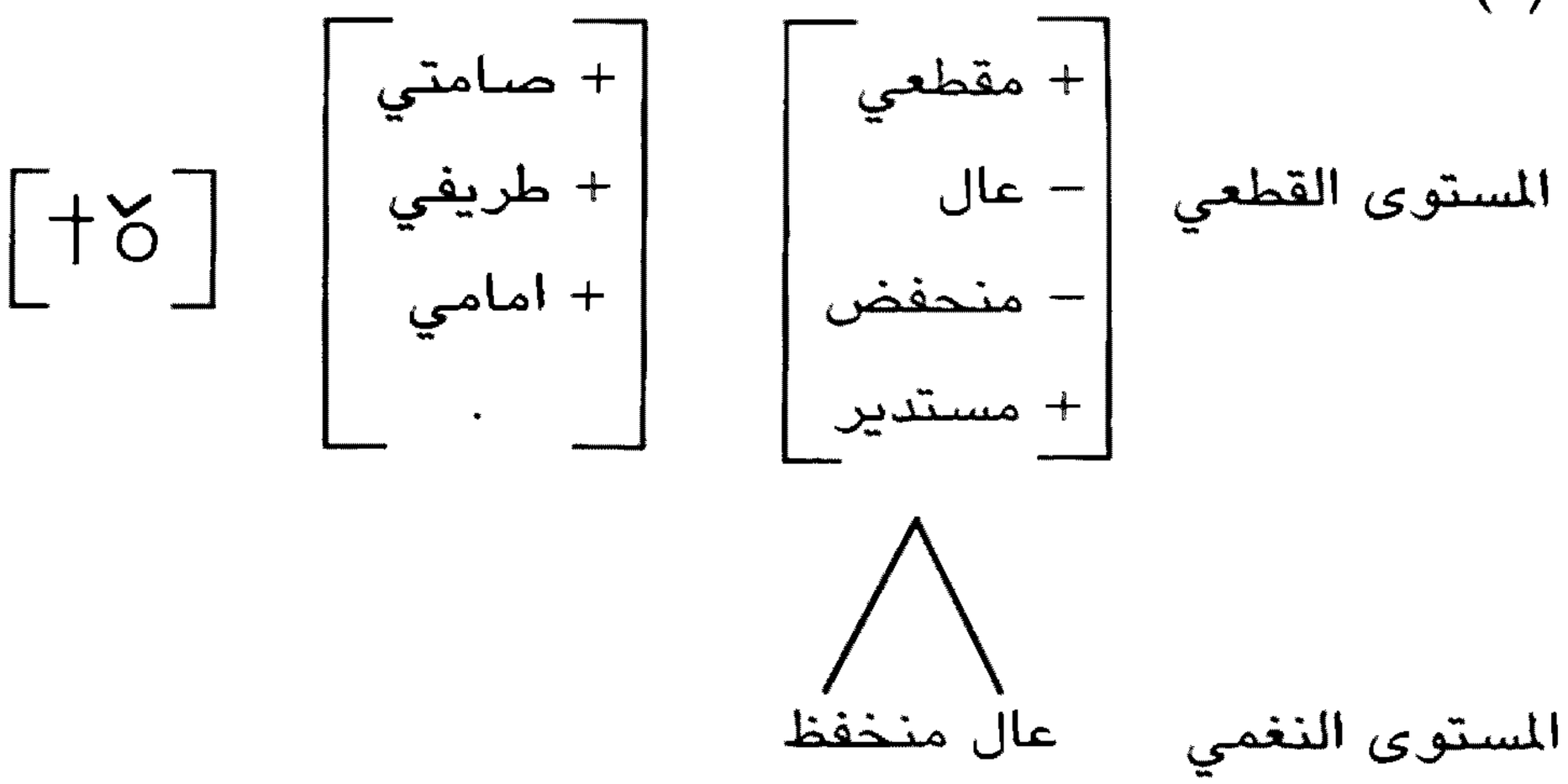

وهـذا يـوحي بأن البنيـة العميقـة لكل وحـدة معجميـة، في اللغـات النغمية، " صريفتـان "؛ تـوجـد الاولى على مستـوى النغم والثـانيـة على المستوى القطعي.

ويرى كولـد سميث ان هذين المستويين يربطـان بما يسمية بسطور الاقتران، وأن هذه السطور لا تظهـر في البنية العميقة بل تـدرج بواسطة قاعدة ما اثنـاء الاشتـقـاق. ويقـتـرح كولـد سميـث مـواضعـة تدعى " شرط سلامة التكوين " نقدمها في (4).

4) أ – يجب على كل مصوت أن يربط بقطعة نغمية واحدة على الاقل.

ب – يجب على كل قطعة نغمية أن تربط بمصوت واحد على الأقل

ج – لا تتقاطع سطور الاقتران.

وتوضـع بعض القيـود على الطريقة التي تربط بها الانغـام بالقطع. فقد برهن ليين (1971، 1973) أنه لا يمكن لنغمين متشـابهين ان يكونا متجـاوريـن، فـي اللغـات النغمـيـة؛ وان هـنـاك قاعـدة تبسط المتـواليـات الـنـغـمـيـة التي تخـرق هـذا القـيـد، قـدمهـا على النحـو التـالي :

5) البنية العميقة البنية الصوتية

خ ع ع ← خ ع

ع خ خ ← ع خ

وأوضح ليبن (1978) ان النغم المتعال (خ ع) في لغة ماندي يبسط إلى نغم عال (ع) إذا وقع قبل نغم عال، ويبسط النغم المنحدر (ع خ) إلى نغم منخفظ (خ) اذا ورد قبل نغم منخفض. ويبين هذان المثالان ان هناك قواعد تحيل على النغم دون ان تلحق بالقطع أي تغيير، الشيء الذي يكون حجة كافية لاعتبار النغم قطعة مستقلة، ويدعو لضرورة استلزامه لتمثيل متعدد المستويات.

وتقدم الفونولوجيا ذات القطع المستقلة حلا أنيقا ودالا لتمثيل التناغم المصوتي (أي حينما تتطلب الكلمة أن تتقاسم مصوتاتها خاصية صواتية محددة أو أكثر).

إذا كان النغم يوضع في طبقة منفصلة عن موضع الصوامت والمصوتات، فالملامح التناغمية مثل [خلفي] و [مستدير] و[عال] تعتبر عادة جزءا من التمثيل القطعي لكل مصوت. لكنها تستخرج من الطبقة القطعية وتوضع في طبقة تناغمية منفصلة، وتتعطل وظيفتها بوصفها خاصيات للقطع. وحينما يحدث التناغم المصوتي تنتشر هذه الملامح لنغم كل المصوتات في الكلمة. وعلى سبيل المثال يمثل لكلمة/ Kϕbegyn / " ولد "، في اللغة المنغولية، كما يلي :

6) طبقة التناغم المصوتي

[– خلفي]

الطبقة القطعية

KObEgUn

Kϕbgyn

ونقدم مثالا آخر عن التمثيل القطعـي المستقل من الاقتراح الذي قدمه ماكارثي (1981) لتفسير سلوك الافعال في العـربية الفصحي. ففي اللغة العـربيـة يقترن الشكـــــل التقعيـــــدي ص مص مص ص مص ص بمعنـــى "المطاوعة"، بينما يقترن الشكـل ص مص ص ص مـص ص بمعنى "التسبيب" . وتتحدد الجهة وصيغة الفعل بألحان المصوتات التي تتكون من مصوت مفرد إلى مصوتات عدة تتخلـل الكلـمـة. وعليـه يقتـــرح مكـارثـي (1981) أنه يمكن تحليل أي فعل بوصفه يحتوي على ثـلاث مكـونـات : طبقـة الجـذر (الاصل)، وهيكـل ص مـص، وطبقـة الحـركـات (الفتحـة والكسرة والضمـة) وذلـك على النحـو التالي :

7) أ – الجذر

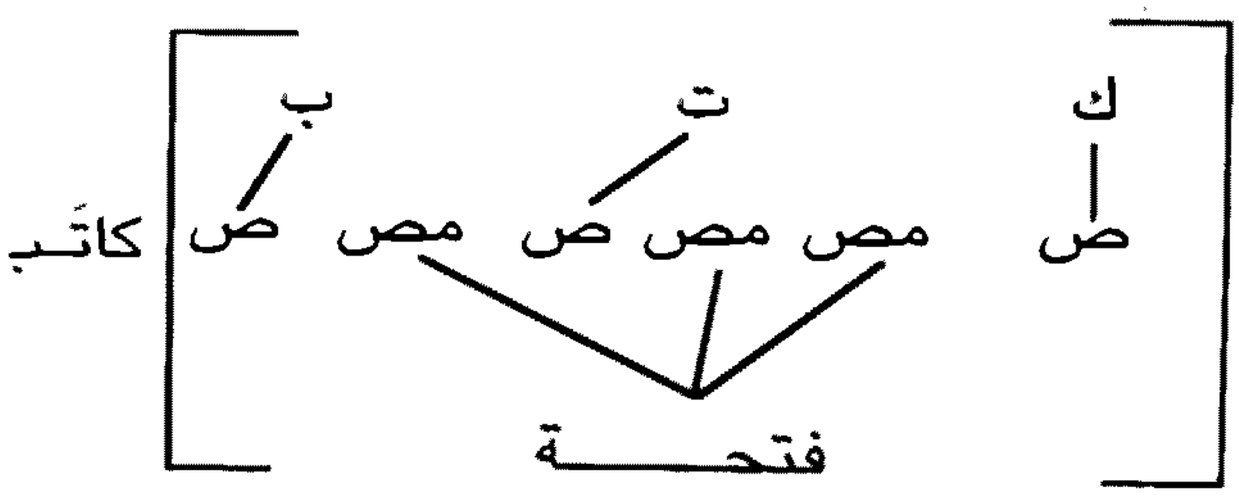

ب – الجذر

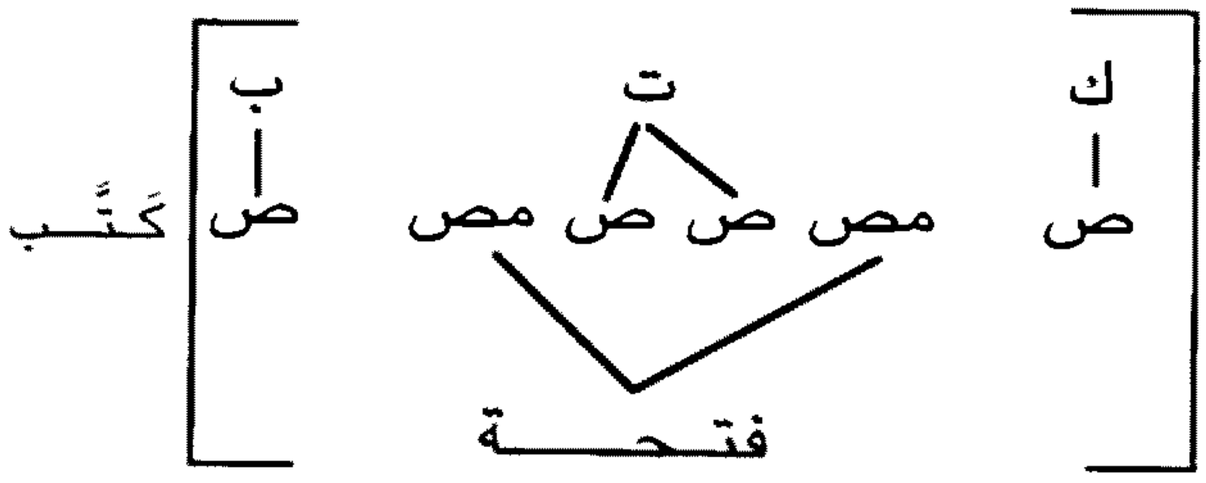

ويتضح من هذين المثالين أنه كلما كانت مواقع ص أكثر من الصوامت نفسها أو كانت مـواقع مص أكثر من المصوتات، فـإن أحد الصوامت أو المصوتات يمتـد ليحتل ذلك الموقع الزائد، خالقا بذلك صـامتا مضعفا او مصوتا طويلا كما في **كتَّـب وكاتب** على التوالي. وهكـذا يتضح أن هيكل ص مص يلعب دورا صريفيـا في اللغـة العربيـة انظـر كليمنتس وكايـزر (1983) [ترجمة العلوي وحنون (قيد الطبع)].

III – 2 – الفونولوجيا العروضية

تعتبر الصواتة العروضية نظرية للنبر والايقاع اللغوي، اقترحها ليبرمان (1975) لأول مرة وبلورها ليبرمان وبرينس (1977) وطورت أكثر في أعمال هالي وفيرنيو (1980)، وسيلكورك (1980) وهييز (1981) وآخرون. وتعتمد هذه النظرية أساسا على المقطع كوحدة ضرورية في التمثيل الفونولوجي.

III – 2 – 1 – المقطع

لقد أعطى الفونولوجيون اهتماما بالغا للمقطع في السنوات الاخيرة، وذلك لاهميته القصوى في التمثيلات الفونولوجية (انظر كليمنتس وكايزر (1983) وستيريادي (1982) وهاريس (1982). ونعرض فيما يلي بعض الحجج التي قدمت في ادبيات الفونولوجيا لصالح المقطع كوحدة ذات وظيفة اساسية في العمل الفونولوجي.

تكمن الحجة الاولى في القيود التأليفية الموضوعة على متواليات القطع. ففي اللغة الانجليزية، مثلا، يجب على المتواليات المكونة من ثلاثة عناصر والتي تستهل الكلمات أن تأخذ الشكل [S] + [p أو t أو k] + [l آو r أو w أو y]. ويمكن البرهنة على أن هذا القيد موضوع في الحقيقة على المقاطع وليس على الكلمات، لأن هذا القيد يطبق على المتواليات في وسط الكلمة. لنعتبر مثلا الكلمتين في (8)، حيث يمكن لـ (8. أ) أن تجزأ إلى مقاطع سليمة التكوين، ولا يمكن ذلك بالنسبة لـ (8. ب) (هالي وكليمنتس، 1983: 16)، حيث تشير النجمة إلى كون الكلمة غير مقبولة صواتيا.

(8. أ) constraint "قيد"

(8. ب) * con-sftaint

وتكمن الحجة الثانية في كون بعض العمليات الفونولوجية تأخذ المقطع كمجال لاشتغالها، اذ لا يمكن صياغتها صياغة ملائمة إلا بالإحالة على المقطع. لنعتبر، مثلا، مناقشة السايب (1976) للتفخيم في البربرية الامازيغية. فهو يرى ان التفخيم يمتد من الصوامت المفخمة معجميا

امتدادا ينظمه البناء المقطعي على النحو التالي : يمتد التفخيم إلى كل القطع الموجودة في نفس المقطع، ويمتد إلى القطع الموجودة في المقطع السابق اذا كان مفتوحا، ويمتد إلى القطع الموجودة في المقطع اللاحق اذا كان المقطع الذي يضم الصامت المفخم مفتوحا. يبدو، إذن، ان مجال التفخيم هنا هو المقطع، وان أية شكلانية للقاعدة التي تفسر هذه العملية (أو تمثل لها) لن تكون ذات كفاية امبيريقية ان لم تحل على المقطع ؛ بل سوف تكون غير منورة وغير أنيقة اذا كانت تحيل فقط على متوالية اعتباطية من القطع. وهكذا، فلكل من نمط المقطع وحدوده صلة شديدة بامتداد التفخيم في الامازيغية.

وهناك حجة ثالثة تتعلق بالنبر. فإسناد النبر يحيل عادة على ثقل المقطع (ما إذا كانت المقاطع خفيفة، أو ثقيلة اوجد ثقيلة). ففي اللغة العربية، مثلا، يسند النبر الى المقطع الأخير إذا كان ثقيلا، ويسند إلى المقطع ماقبل الأخير فيما عدا ذلك، كما يوضح المثال في (9)، حيث يشير الرمز «ه» إلى المقطع.

(9

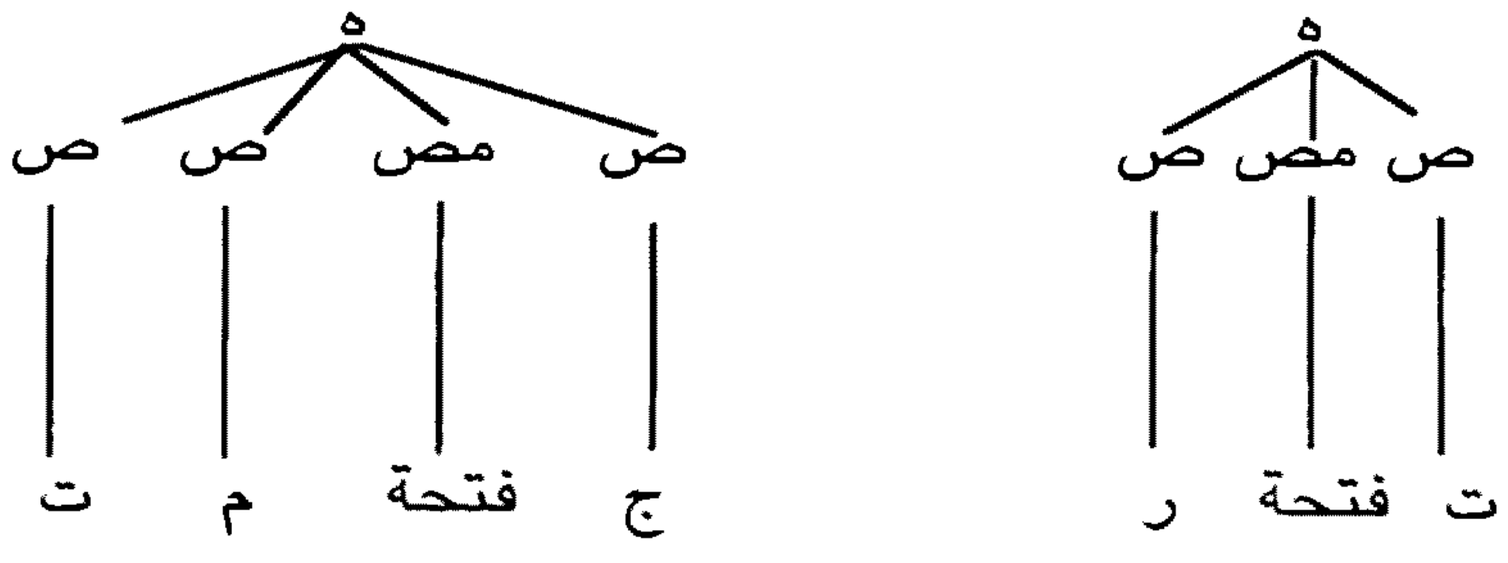

[+ نبر]

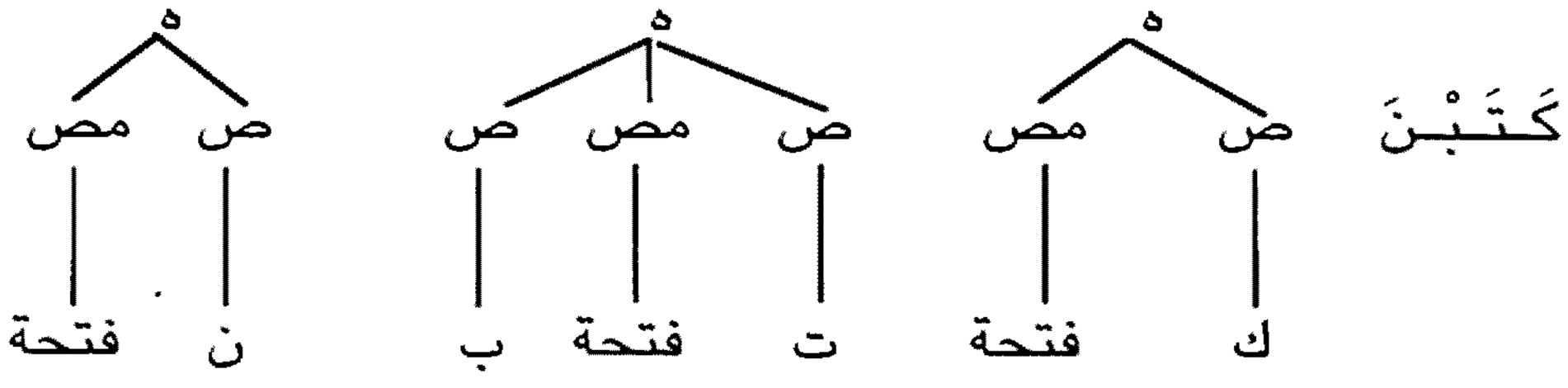

وتكمن الاطروحة الاساسية للصواتة العروضية في الفكرة القائلة بأن قواعـد النبر المصوغة في الأنمـوذج المعيار (**النسق**) لاتمسك بتعميـم دال حول الايقاع اللغوي. ولتخصيص المظهر الايقاعي للغة، تفترض الصواتة العروضية مبدئين اثنين : يمثل مفهوم البروز النسبي وفق علاقة توصف على البنية المكونية، من جهة. ومن جهة ثـانية تمثل بعض مظاهر مفهوم الايقاع اللغوي وفق اصطفاف المادة اللغويـة مع شبكة عروضية (لبرمان وبرينس 1977: 249).

ويمثـل نسق النـبر لشكل مـا وفـق بنيـة مكونيـة مـزدوجة التفريع، إذ تميز الشجـرات الأخـوات بـواسـطـة «**ق**» (" أقوى من") و«**ض**» (" أضعف من") كـمـا هو واضـح في (10)، حيـث يشيـر «**ج**» إلى " الجذر".

(10)

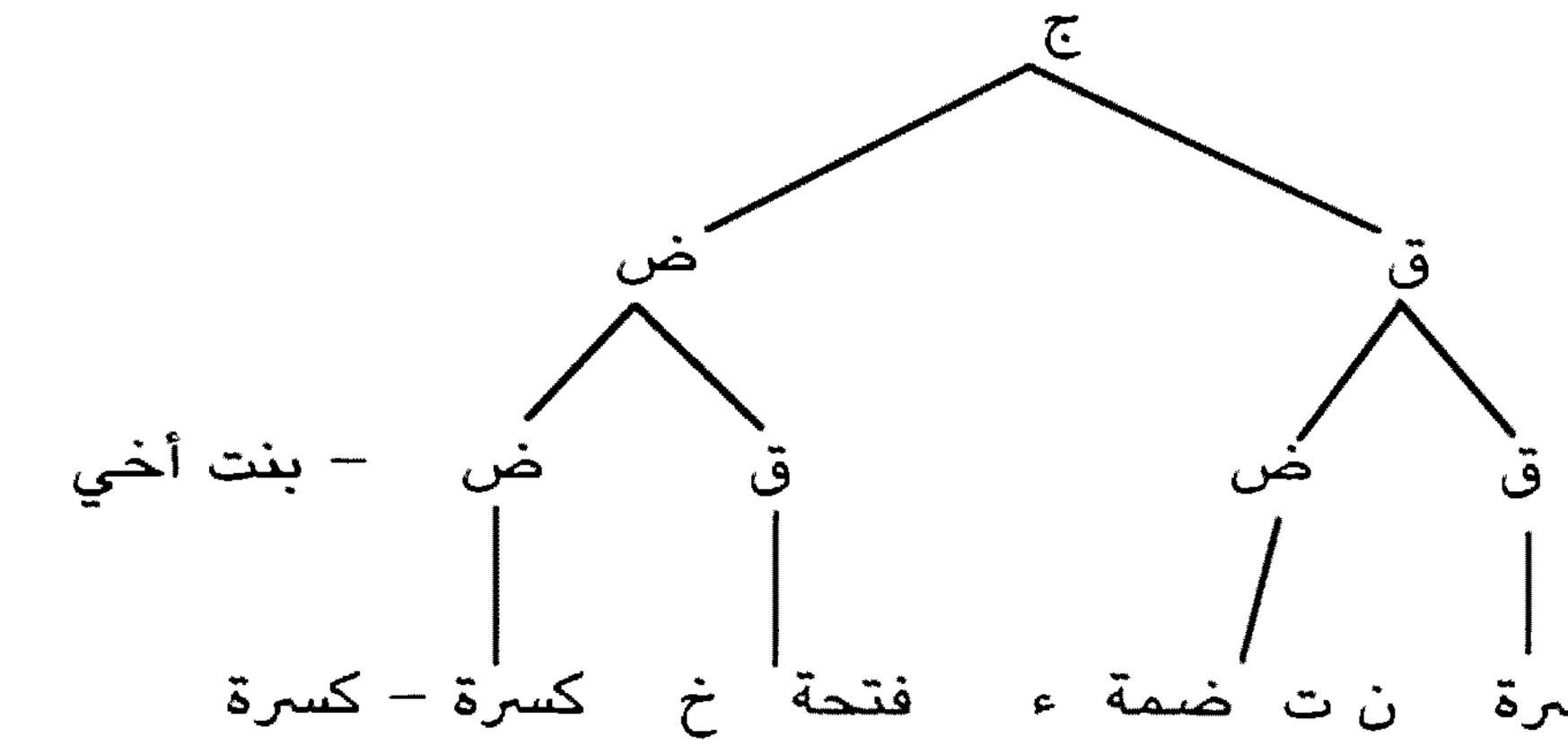

وخلافا **للنسق**، لا يؤول الرمزان **ق** و **ض** بوصفهما ملمحين صواتيين يتميـزان بتحقيق صوتي قـار. فهما يشيران فقط ان العجـرة «**ق**» تعتبر

نـوعا مـا مشرفة على العجـرة الاخت «**ض**». ويفترض ليبرمان وبـرينس (1977) أن عـلاقـة " أقـوى من " تعتبر ثنـائية وغير تنـاظريـة وغير انعكاسية.

واقترح لبرمان وبرينس (1977) بنية أخرى لتفـادي تعارضات النبر، وتسمى بالشبكـة العروضية. والشبكـة عبارة عن سلسلـة من الصفوف العمـودية (صف لكـل مقطع) حيث يتكون كل صف فيهـا من عـدد من "النبضات". بعبـارة أخرى، تتكـون الشبكة العـروضيـة من متواليـة من الاحياز، لكل مقطع حيز. ويمكن للحيز ان يكـون فارغا أو مملوءا بنجمة وفق المواضعة التالية :

(11) ضـع نجمة في حيز شبكة الرأس،

حيث يشير " الرأس " إلى المقطع المشرف. ويتم تخصيص درجة النبر على ضوء عدد النجوم المسندة للرأس، كما يبين المثال في (12).

(12)

```
                    *
                    *
          *         *
*         *         *
ش – فتحة – ج – فتحة – ر – فتحة – ت – ضمة – ه –ضمة
```

(13 أ–)

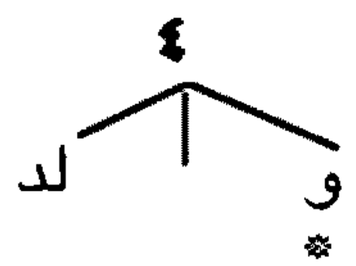

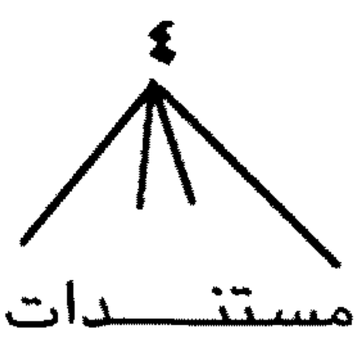

*

(ب)

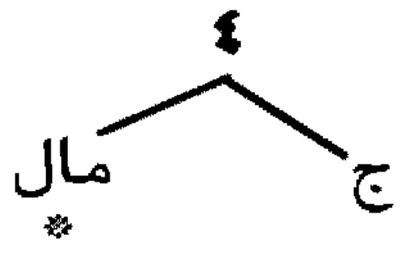

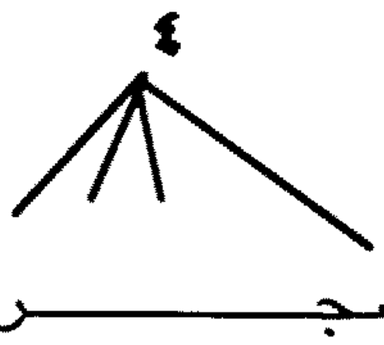

*

ويطلق على الشجرة العروضية في (13 – أ) شجرة مقيدة ذات رأس على اليمين لانها تتحكم في المقطع المتواجد على اليسار. وتسمى الشجرة في (13 – ب) مقيدة ذات رأس على اليسار لانها تتحكم في المقطع المتواجد على اليمين. أما الشجرتان في (13 – ج) و (13 –د) فهما غير مقيدتان لانهما تتحكمان في أكثر من مقطع على اليمين وعلى اليسار على التوالي.

وهكذا، فإذا كانت لغة ما تسند النبر للمقطع الاول بشكل مطرد فسوف تكون المسطرة الاجرائية التي تسند بنيتها العروضية كما يلي :

أ – ابن شجرة غير مقيدة ذات رأس على اليسار(على اليمين بالنسبة للغة العربية) فوق مقاطع الكلمة.

ب – ابن الشبكة العروضية المناسبة وضع النجمات في ضوء (11) أعلاه.

أما إذا كانت اللغة تسند النبر، بشكل مطرد، للمقطع ماقبل الاخير يمكن ان نبني أشجارا ذات رؤوس على اليمين (على اليسار بالنسبة للعربية) دون ان نحتسب المقطع الاخير في السلسلة. وتسمى المقاطع المقصاة من الاشجار العروضية مقاطع خارج – عروضية.

III – 3 – الصواتة المعجمية :

إذا كانت الصواتة ذات القطع المستقلة والصواتة العروضية تعالجان ظواهر فونولوجية تهم التمثيل الفونولوجي، فهناك أنموذج توليدي آخر يتعرض اساسا لمظاهر الاشتقاق في النظرية الفونولوجية. ذلك أن المعجم أصبح يتناول الكثير من القضايا التي كانت توصف داخل المكون الفونولوجي للنحو.

قبل اقتراح أنموذج الصواتة المعجمية في كيبارسكي (1982)، كان المعجم عبارة عن تذييل للنحو، يضم إخبارات صواتية وتركيبية دلالية جد خاصة، لايمكن التنبؤ بها، حول الوحدات المعجمية. وتؤخذ هذه

المعلومات بعين الاعتبار لكونها ذات صلـة شديدة بتطبيق قواعد التركيب والصرف والصواتة. إلا أن الصواتة المعجمية تعتبرالمعجم مكونا مركزيا في النحوباعتباره يضم ليس فقط الخاصيات الشاذة للكلمات والصريفات، بل يضم كذلك قـواعد الصرف والقواعـد الفونولوجيـة. ويفترض كيبارسكي (1982) ان قـواعـد الصرف(تكـويـن الكلمات) تقـرن بشكل مبـاشر مع القواعـد الفونولـوجية على عـدة مستويات (طبقـات). إذ يعتبر كل خرج لقاعدة صرفية دخلا للصواتة تطبق عليه القواعد الفونولوجية المناسبة في ذلك المستـوى. وينقسم نحو الصـواتـة المعجمية إلى شطـرين رئيسـين : المكـون المعجمي والمكـون مابعـد – المعجمي. ويكمن أحـد أهم آراء هـذه النظرية في الفكرة القائلـة بان عمليتي الصرف والاشتقاق يمكن تقديمهما على سلسلة من المستويات المقترنة. كما يوضح ذلك الرسم (14).

14) المعجـــــــم

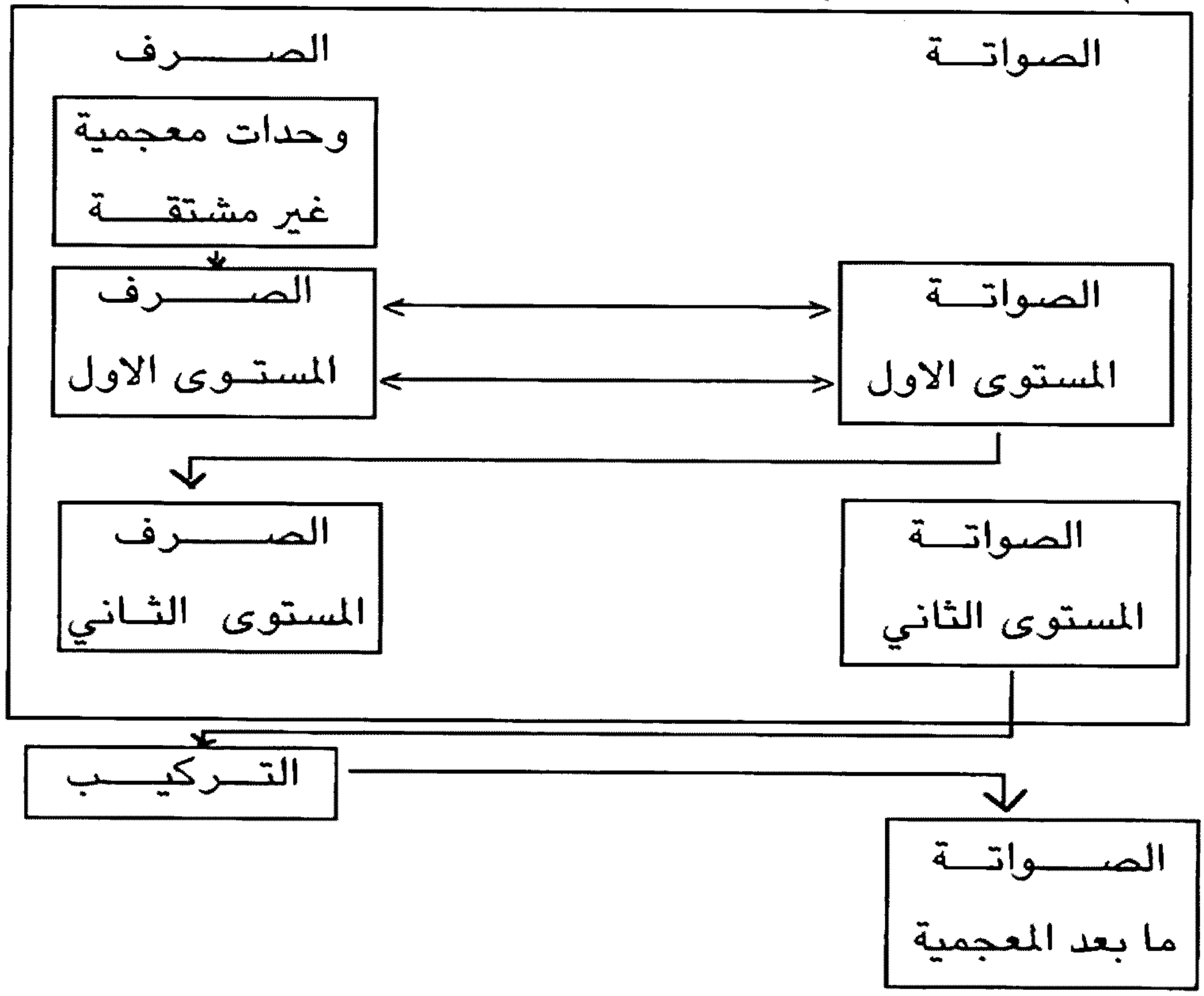

تعتبر قـواعـد الصرف والصـواتـة التي تطبق داخل المعجم سلكيـة في جوهرها، حيث تطبق القواعد على الجذر أولا، في سلك مفرد، ثم تطبق على اللـواصق الاقرب من الجذر، ثم تطبق على اللـواصق الموجودة في الطبقـة (المستوى) الموالية وهكذا ذواليك. ويمكن أن نشبه الكلمة في هذا الانموذج النظري بالبصلة، تكون فيها النواة هي الجذر، وبالتالي المستوى الاساس، وتكون الطبقـة الخارجية الموالية هي المستـوى الثاني ؛ وتكون الصـواتة مابعد المعجمية هي غشاء البصلة.

ولتقييد نحو هذه النظـرية أكثر، تطبق القواعد الفونـولوجية في ضوء مبدأ السلكية الصارمة : أي ان القواعد الفونولوجية تؤثر فقط في سلسلة الاصوات التي كونت بواسطـة الصرف في نفس المستوى. وبعبارة أخرى، تلحق القواعد الصواتية بالإخبار الصرفي المتيسر في نفس المستوى. وحينما تطبق القواعـد التي تحيل على إخبار نحوي في المعجم (هذا الاخبـار الذي يقدم عادة داخل معقـوفات مثل [[ولد] فعل] أو [[ولد] إسم]، تمحا المعقوفات وجوبا، وذلك لكي لاتحيل القواعد الموالية، في مستوى مختلف، على نفس الإخبـار. أي لتطبيق قـاعدة مـا، ليس من الضروري أن تنظـر القاعدة إلى تـاريخ اشتقاق السلسلة التي تطبق عليها. ويسمـى هذا المبدأ **بمواضعة محو المعقوفات** و لا تضم التمثيلات الفونـولوجية أي حدود مثل # و + ؛ بل هنـاك تـداخل للمجـالات يحدده الصرف انطـلاقـا من الجذع نحو خارج الكلمة. ويمكن للقواعد الفونولوجية ان تلحق بمجالات أوسـع وأسـع انطلاقا من أصغر المجالات.

15) [[سابقة [جذع]] لاحقة]

إن ترتيـب المستويـات في الصواتة المعجميـة يعالج إشكـالية تفـاعل القواعد وذلك بافتراض مـايسميه كبارسكي (1973) بشرط " السياقات الاخرى "، والذي نقدمه في (16).

16) إذا كانت هناك قواعدتـان تتباريان على التطبيق في نفس السياق، تطبق القاعدة الخاصـة أولا، لتنسف بذلك القاعدة الأعـم. وتطبق القاعدة العامة في سياقات أخرى. لنعتبر المبدئين في (17)، كمثال.

17) أ – تعتبر كل الحاجزيات مهموسة

ب – تعتبر كل الاحتكاكيات مجهورة

في هذه الحالة يطبق المبدأ الثاني في المقام الاول. فرغم ان الاحتكاكيات تعتبر حاجزيات، تعطى اسبقية التطبيق للمبدأ الثاني لكونه مقيدا أكثر باعتباره يخص الاحتكاكيات فقط. ويطبق المبدأ الاول في سياقات اخرى تختلف عن السياق الذي تطبق فيه المبادىء الخاصة. وهكذا، اذا وضعنا عملية صرفية او اشتقاقية في المستوى الاول، فهذا يعني أنها عرضة لقاعدة خاصة من شأنها ان تسبق تطبيق قاعدة أعم في المستوى الثاني.

وبعد تطبيق كل القواعد الصرفية والاشتقاقية والصواتية، أي بعد تكوين الجمل (بتمثيلها التركيبي)، تلحق الاصوات بعض التغييرات الصواتية في الكلام المتواصل. وتسمى القواعد المسؤولة عن هاته التغييرات بالقواعد مابعد المعجمية. وهي قواعد متأخرة تطبق بعد تطبيق كل القواعد المعجمية.

III – 3 – 1 التخصيص الادنى Underspecification

تستلزم نظرية التخصيص الادنى عدة مفاهيم تم طرحها في الصواتة التوليدية وغير التوليدية. ويمكن قبول هذه المفاهيم أو رفضها بمعزل عن أفكار الفونولوجية المعجمية الاخرى. وتتأسس هذه النظرية على المبدئين التاليين :

18) أ – إقصاء الملامح الحشوية من مستوى الصواتة المعجمية. بعبارة اخرى، يجب اقصاء كل الملامح التي لاتميز مجموعة من القطع العميقة من صياغة تلك القطع.

ب – اقصاء تخصيص الملامح غير الموسومة من الاشكال العميقة. ففي مجمل السياقات الفونولوجية، تكون لكل ملمح قيمة يمكن التنبؤ بها (غير موسومة)، وقيمة اخرى يصعب التنبؤبها (موسومة)، ويمكن للقيمة الثانية فقط أن تكون متيسرة بشكل صريح في الاشكال العميقة، ورغم أن الفرق بين هذين المبدئين يصعب الامساك به أحيانا ، فإنهما

يمثلان نمطين مختلفين من نظرية التخصيص الادنى. فقلما يميز، الجهر مثلا، بين القطع الجهيرية في لغة ما. وعليه، وبفعل مبدأ إقصاء الملامح الحشوية، لايتم تخصيص الجهر بالنسبة لهذه القطع في مستوى الصواتة المعجمية. وكنتيجة لذلك، لايمكن لاي قاعدة ان تحيل على جهر الجهيريات سواء في دخل القاعدة أو في خرجها. ويسند الجهر لهذه القطع في مستوى الصواتة مابعد المعجمية بواسطة قاعدة تنتمي لنفس المستوى من النحو.

خلاصة :

يتضح من خلال هذه العرض ان النظرية الفونولوجية قد عرفت تطورا مهما سواء على المستوى النظري أو التمثيلي. فقد افترضت الفونولوجية الكلاسيكية (ماقبل – **النسق**) أن الصواتة تعتبر مستوى مستقلا عن مستويات التحليل اللساني الاخرى (الصرف والتركيب). وانكبت أساسا على دراسة الانساق البنيوية للغات مختلفة على أساس أن لكل لغة نظامها الصواتي الخاص. وكانت تلك الدراسات تهدف إلى تخصيص الاصوات وتوزيعها وتحقيقاتها. وقام بهذا النمط من العمل الفونولوجيون البنيويون في أوربا وأمريكا واللسانيون المنتمون لمدرسة براغ. وللاطلاع على عروض مفصلة حول صواتة ماقبل **النسق**، نحيل القارىء على بلومفيلد (1933)، وتروبتسكوي (1939) وياكوبسون وفانت وهالي (1952). أما صواتة **النسق** (الصواتة التوليدية) فقد كانت محاولة لدمج الفونولوجيا ضمن نظرية نحو أشمل للغة. ويتمثل أهم هدف لتشومسكي وهالي (1968) في تقديم مكون (نسق) من القواعد تشتق بواسطته اشكال الكلمات المرتبطة صرفيا ببعضهاالبعض، انطلاقا من اشكال صريفات قارة عميقة.ويفترض هذا النسق (المكون) عنصرين هامين : نسق الملامح باعتبارها الوحدات الاساسية للتمثيل الفونولوجي ومستويان مختلفان للتحليل (البنية العميقة والبنية السطحية). وتنجم فكرة هذا التفسير عن نظرية النحوالتوليدي التحويلي المقدمة في تشومسكي (1957). ونحيل القارىء على شين (1973) وسامرستين (1977) للاطلاع على عرض أعمق لصواتة **النسق**.

ونظرا لكون فونولوجيا النسق موجهة توجيها يرمي بالدرجة الاولى إلى تخصيص القواعد وليس البنية اللغوية، لايتمتع المقطع بوضع مناسب لطبيعته في الانموذج المعيار. وهكذا قدمت نماذج توليدية أخرى حججا لصالح إعادة ادماج المقطع في الانموذج التوليدي. واتضح وجوب افتراض المقطع كوحدة فونولوجية اساسية في التمثيل الفونولوجي لأن هناك قواعد تحيل على بنية المقطع لكي تطبق. وأكدت هذه النماذج على الطبيعة الهرمية لبنية التمثيل الفونولوجي. فاقترحت الصواتة ذات القطع المستقلة ان ينشطر التمثيل الفونولوجي ذو المستوى الواحد إلى عدة مستويات. واقترحت الفونولوجيا العروضية هندسة جديدة للتمثيل ووحدات فونولوجية أكثر غنى من ملامح **النسق**، لوصف الخصائص الايقاعية للغة. (انظر فان درهالست وسميث(1982) [ترجمة حنون والعلوي (1992)] و اما الفونولوجيا المعجمية فقد قدمت انموذجا يرمي إلى اعادة صياغة مظاهر الاشتقاق في النظرية الفونولوجية، اذ أصبح المعجم يتناول قضايا توصف عادة داخل المكون الصواتي للنحو (انظر كبارسكي 1982 وأرشان جيلي 1988).

ويبدو أن العمل الفونولوجي الراهن قد قدم أنموجا يشبه كثيرا انموذج الكيمياء، بخلاف الانموذج الكلاسيكي الذي يشبه برنامج الحاسوب (كولد سميث 1990). كما يتضح من خلال المناقشة المقدمة في هذا المقال، فقد اصبحت الفونولوجيا تتأسس على ثلاثة مبادىء : فهي تعتبر (1) نظرية حول طبيعة التمثيلات الفونولوجية ؛ وتستلزم (2) جردا لمستويات التمثيل، بالاضافة الى تخصيص كل مستوى على حدة ؛ وتعتبر(3) نظرية حول القواعد الفونولوجية، تضم الصياغات التي تربط التمثيلات في كل مستوى.

ويبقى الهدف الأسمى للنظرية الفونولوجية هو تقديم نماذج ومبادىء للتحليل الصواتي من شأنها ان تطبق على أكبر عدد من اللغات البشرية، وأن تكون لها صلة شديدة بالنظريات النفسانية (السيكولوجية) كالادراك واكتساب اللغة.

بيبليوغرافيا :

Archangeli, D. (1988). "Aspects of Underspecification Theory". **Phonology** 5, 183-207.

Bloomfield, L. (1933). **Language**.. Holt : New York..

Chao, Y. (1934) "The Non-Uniqueness of phonemic Solutions of phonetic systems". **Bulletin of the institute of history and philology**, 4. 363-97.

Chomsky, N. (1957). **Syntactic Structures**. Mouton : Gravenhage.

Chomsky, N. (1965). **Aspects of the Theory of Syntax.** M.I.T Press : Cambridge.

Chomsky, N and M. Halle (1968). **The Sound Pattern of English**. Harper & Row : New York.

Clements, N. & J. Keyser (1983). **CV-Phonology**. M.I.T Press : Cambridge.

Goldsmith, J. (1976) "An Overview of Autosegmental Phonology". **Linguistic Analysis** 2, 23-68.

Coldsmith, J.(1990). **Autosegmental and Metrical Phonology**. Blackwell : Cornwall.

Halle, M. & J-R. Vergnaud (1980). "Three-dimenssional Phondogy". **Journal of Linguistic Research1**, 83-105. .

Halle, M & N. Clements (1983). **Problem Book in Phonology**. MIT Press :Cambridge.

Harris, J.(1982). **Spanish Syllabe Structure and Stress : a Non-linear Analysis**. MIT Press : Cambridge.

Hays,B. (1980) . A Metrical Theory of Stress Rules. MIT Ph. D thesis.

Hockett, F. (1942) . " A System of Descriptive Phonology." **Language** 18, 3-21.

Jakobson, R, M. Fant and M. Halle (1952). **Priliminaries to Speech Analysis**. MIT Press : Cambridge.

Jones , D. (1950) . **The Phoneme : its Nature and Use**. Heffer : Cabridge.

Kiparsky, P. (1973). "Elsewhere in Phonology", in **A Festschrift for Morris Halle**, Anderson, S.& P. Kiparsky. Rinehart and Winston : New York.

Kiparsky, P (1982). "Lexical Morphology and Phonology", in Yang, S (ed.) **Linguistics in the Morning Calm**. Hanshin : Seoul.

Leben, W. (1973). Suprasegmental Phonology. MIT Ph. D. thesis.

Leben,W (1971). "Surprasegmental and Segmental Representation of Tone". **Studies in African Linguistics** 2, 183-200

Liberman, M. (1975). The Intonational System of English. MIT Ph. D Thesis.

Liberman, M. and A. Prince (1977). On Stress and Linguistic Rhythm. **Linguistic Inquiry** 8, 249-336.

McCarthy, J. (1981). A Prosodic Theory of Non-concatenative Morphology. **LI** 12,373-418.

Saïb, J (1976). A phonological Study of the Tamazight Berber of Aït Ndir. UCLA Ph.d thesis.

Schane, S. (1973). **Generative Phonology**. Prentice Hall: New Jersey.

Selkirk, E. (1980). The Role of Prosodic Categories in English Word Stress. **LI**. 11, 563: 605.

Sommerstein, A. (1977) **Modern Phonology**. Arnold : London.

Steriade, D (1982) Greek prosodies and the nature of Syllabification. MIT Ph. D thesis.

Trubetzkoy, N. (1939) **Principles of phonology**. UCP: Berkley.

Van der hulst, and N. Smith (eds). (1982) **The structure of phonological representa tion**. Foris: Dordrecht.

التاريخ

ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين

د.إبراهيم القادري بوتشيش

كلية الآداب – مكناس –

ملخص :

يحاول هذا المقال أن يثير الغبار حول ظاهرة اجتماعية مهمشة في المصادر التاريخية الوسيطية والدراسات الحديثة على السواء، وهي ظاهرة التسول خلال عصر المرابطين والموحدين. وفيه تعرض الباحث لذكر عوامل غياب هذه الظاهرة في الإسطوغرافيا التقليدية، والصعوبة التي يصطدم بها الدارس المعاصرعندما يتصدى لمعالجتها.

وبعد ذلك تصدى الباحث لتحليل العوامل التي ساهمت في استفحال ظاهرة التسول، ـ فعزاها إلى التحولات الاقتصادية ـ اجتماعية التي عرفها المجتمع المغربي في القرن 6 هـ (12م)، وانتقاله الى حارة '' استهلاكية '' ، فضلا عن تجدر الازمة العامة التي تمخضت عنها تغيرات سلبية في وتيرة المعيشة وارتفاع الاسعار وكثرة المجاعات. وانتقل بعد ذلك الى وصف مظاهر التسول، فتحدث عن أماكن تجمع المتسولين في المساجد والاسواق وأبواب المنازل والطرقات ليتعرض بعد ذلك الى مواقف مختلف الشرائح الاجتماعية من المتسولين، فأبان عن موقف التحفظ والحذر الذي تبنته فئات العامة، في الوقت الذي أبدى المتصوفة تعاطفا واضحا معهم. في حين وقفت الدولتان المرابطية والموحدية موقف العاجز عن استيعابهم داخل المجتمع.

لاتوجد في تاريخ المجتمع بالمغرب والأندلس، شريحة تعرضت للنسيان والاهمال والطمس، أكثر من شريحة المتسولين. فالمؤرخون القدامى لم ينصفوها قيد أنملة، بل أسدلوا عليها في كتاباتهم ستارا من الصمت

والتهميش، باستثناء ابن خلدون[1] الذي خص ظاهرة التسول عموما بالتفاتة هامة رغم قصرها، فقرنها بعمران المدن، مؤسسا بذلك معلمة هامة في مسار الرؤية الاجتماعية لهذه الظاهرة. أما المصادر الاخرى، فلم تشر إليها إلا بنصف الكلمات، مما يجعل مهمة الدارس في استقصائها من الصعوبة بمكان.

يعزى هذا التهميش – فيما أرى – إلى موقع المتسولين في الخارطة الاجتماعية؛ واحسب انهم ظلوا يمثلون شريحة لم يكن لها أي دور في عملية الانتاج، بل إنها شكلت عبءا ثقيلا على كاهل الدولتين المرابطية والموحدية اللتين عجزتا عن استيعابهم وإدماجهم في كيان المجتمع، فضلا عن بعدهم عن المواقع السياسة والحقول المعرفية ؛ ناهيك عن توجهات المؤرخين الذين جبلوا على طمس اخبار الشرائح الاجتماعية الدنيا. لذلك ليس من قبيل الصدفة ان يغدو المتسولون نسيا منسيا، لا في نسيج الاسطغرافيا الوسيطية فحسب، بل في كل مايمت بصلة الى المجال الثقافي مثل كتب الطبقات والتراجم والدواوين الشعرية، وغيرها من المصنفات التي تحوي مادة تاريخية.

وعلى غرار المؤرخين القدامى، احجم الدارسون العرب المعاصرون عن تناول ظاهرة التسول، وهو أمر يفسر بشحة النصوص، فضلا عن حداثة حقل التاريخ الاجتماعي، عكس الدراسات الأوروبية التي نحت منحى جريئا في هذا المجال، بسبب الوفرة النسبية للمادة التاريخية، فأولت اهتماما للمهمشين في المجتمعات، وضمنهم المتسولون والفقراء[2].

---

1) المقدمة ج 3. طبعة لجنة البيان العربي تحقيق د. عبد الواحد وافي. ص 861 – 862 ومما قاله في هذا الشأن : « واعتبر ذلك في أحوال الفقراء والسؤال، فإن السائل بفاس أحسن حالا من السائل بتلمسان أو وهران، ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم، ورأيتهم يسألون كثيرا من أحوال الترف واقترح المأكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون كالغربال والآنية. ولو سأل سائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لا ستنكر وعنف وزجر».

2) انظر على سبيل المثال :

- L. Colin : Les miserables dans l'occident médieval. Edition du Seuil 1976.
- V. RAU: "La pauvreté et l' assistance aux pauvres pendant le moyen âge". in : cahier de la pauvreté: 1967 - 68.

صحيح أن رصد هذه الظاهرة بالنسبة لمجتمعات الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، تظل محاطة بمجموعة متشابكة من الصعوبات، وفي طليعتها قلة النصوص والوثائق. غير أن التنقيب بدقة عن المادة المدفونة في ثنايا المصنفات القديمة، والحفر في التراث المخطوط، قمين بتذليل بعض العوائق والمثبطات.

ولحسن الحظ، فإن كتب المناقب والتصوف التي لازال معظمها – للأسف – مخطوطا، تلقي اضواء مبهرة على هذه الظاهرة المغيبة في المصادر التاريخية. فبحكم تعاطف المتصوفة مع الفقراء والمتسولين، يمكن رصد بعض المعلومات، التي تمكن – رغم ضآلتها – من رسم الخطوط الكبرى لهذا الجانب المطموس. كما ان كتب الحسبة، وبعض الامثال الشعبية، تنير الزوايا المظلمة من الموضوع. في ضوء هاته الملاحظات، ستنصب محاولتنا على القرن السادس الهجري الذي عرف حكم الدولتين المرابطية والموحدية، وذلك حسبما تسمح به المادة المتاحة.

لامراء في انتماء المتسولين الى اصول اجتماعية فقيرة، نشأت عن التحولات الاقتصادية التي شهدها المجتمع المغربي – الأندلسي في القرن 6 هـ (12 م)، واستفحال الفوارق الطبقية، وازدياد حركة البذخ والترف، حينما غزت مدنية الأندلس الدولة المرابطية، وقلت الموارد الحربية، وأصبح الجيل الثاني من أمرائها ينسلخون عن مبادئهم الاصلاحية التي حملوها في بداية الدعوة، ويجنحون للمتعة والدعة والانغماس في حضارة «استهلاكية» نجم عنها كثرة النفقات، فأفرغ بيت المال،[3] وارتفعت الاسعار بشكل مدهش[4]، وتجدرت الأزمة الاجتماعية التي

---

3) ابن عبد العظيم الأزموري : بهجة الناظرين (مخطوط) ورقة 15 ظهر – ابن الأحمر : بيوتات فاس الكبرى طبعة الرباط 1972 ص 20 – مؤلف مجهول : الحلل الموشية. تحقيق زمامة وزكار. الرباط 1978. ص 81، 82.

4) عرفت الاسعار ارتفاعا مهولا إبان المرحلة الأخيرة من عصر المرابطين فقد بلغ مد القمح سنة 526هـ بالمغرب والاندلس 15 دينارا، انظر ابن القطان، نظم الجمان. تحقيق محمود مكي، طبعة تطوان (دت) ص 197، كما بلغ نصف القفيز أثناء الاجتياح الموحدي ثلاث دنانير للسطل. انظر : البيدق : أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. تحقيق عبد الوهاب بن منصور. طبعة الرباط 1971. ص 53.

عبر عنها أبـو بكر بـن العربي[5] بصريح العبـارة بقولـه : ((وقـد عظم الخطب في هذا الزمان، حتـى لايدري العبد على اي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه أم على فـوات دينه، أم على إخـوانه في القـربات، أم على أعـوانه على الصالحات، أم على دروس العلم وطموسه، أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف وتعريف المنكر، أم على نفسه التي لاتطاوعه على طاعة... أم على ولـده الذي لايـرى فيه للعين قـرة، أم على جـاره الذي لايغمض لـه على عورة، أم على أميره الذي لايرعى فيـه إلا ولاذمة...)) وهو نص غني عن كل بيان.

ورغم مـاجاءت بـه الدعوة الموحـدية من آمـال عريضـة لكل الشرائح الاجتماعية، فإن انتهاء «الفترة الذهبية» من حكم المومنيين، فتحت البـاب على مصراعيـه من جـديـد أمـام الأزمـات التي عـادت لتلقي بثقلهـا على المجتمع، في الوقت الذي خمدت فيه الطاقة الاندفاعية الجهادية بعد موقعة العقاب، وبدأت خزينة الدولة في النضوب[6].

بناء على ذلك، نعتقـد أن شريحة المتسولين لم تكن سـوى إفرازا لهذه الأزمات، وانعكاسا للتمايز الاجتماعي الـذي تمخض عنه بروز تناقضات اجتماعية، وقطاعات غير قادرة على تحصيل عيشهـا، عاجزة عن الاندماج في عملية الانتاج.

ومع ان احد الجغرافيين[7] اكد أن عدد المتسولين ظل ضئيلا بالأندلس، بحكـم ان عـادة الأندلسيين ((إذا رأوا شخصا قادرا على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه))، فالواقع يثبت ان عـددهم كان من الكثرة بحيث ما أثار انتباه ابـن عبدون، فخصص لهم حيـزا من رسالتـه في الحسبة[8]، ومن خـلال النصوص الـواردة في هذه الحسبـة وغيرهـا، يمكن الوقـوف على

---

5) سراج المريدين (مخطوط) ورقة 57. نقلا عن الطالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، طبعة بيروت (دون تاريخ) ص87 .

6) ابن أبي زرع : الانيس المطرب. طبعة الرباط 1973 ص 240.

7) ابن سعيـد : بروايـة المـقري : نفح الطيب. طبعـة بيـروت 1965 تحقيق إحسان عباس. ج 1 ص. 205.

8) "رسالة في الحسبة." نشرها ليفـي بروفنسال ضمـن كتاب ثلاث رسـائل في الحسبة. طبعة القاهرة 1955 ص 24.

الأماكن التي كان يتجمع فيها المتسولون، وفي مقدمتها المساجد والجوامع والأسواق. فابن عبدون الآنف الذكر، لاحظ انهم كانوا يستغلون فرصة يوم الجمعة لولوج المساجد، استدرارا لعطف المصلين. لذلك طالب القائمين بشؤون المسجد والمؤذنين، ((الا يترك ساع في رحاب الجامع))[9]. ومن جهته، كشف ابن الزيات[10] وغيره[11] عن الجامع الذي جرت العادة ان يجتمعوا فيه بمراكش حين اشار الى مجاعة اجتاحت المدينة، فذكر ان احد المتصوفة جمع كافة الفقراء والمتسولين بجامع علي بن يوسف ((فاخرج قمحا وسمنا كان عنده، ففرقه عليهم حتى لم يبق منه شيء)). كما ان بعض السؤال نهجوا أسلوب الانقطاع والانزواء في المساجد رجاء في الصدقة والإحسان[12].

وإلى جانب المساجد، اعتاد المتسولون على ارتياد الطرقات والأسواق وسؤال الناس حاجتهم. وبهذا الخصوص، ورد في ترجمة أبي عمران موسى بن إسحاق المعلم أنه ((ما جاءه قط مسكين وعنده ما يعطيه إلا أعطاه، فإن لم يكن معه شيء، قام معه الى السوق يمشي على الناس، ويسأل له))[13].

وفي نفس المنحى تذكر إحدى الروايات المنقبية أن رجلا ذهب الى السوق وبحوزته درهم، فقابله أحد السائلين يرجو إحسانه[14].

ومما يؤكد انتشار المتسولين في الاسواق، أن أبا العباس السبتي اعتاد على الجلوس في أسواق مراكش لحض الناس على الصدقة، وتوزيع القدر الذي جمعه عليهم[15].

---

9) نفس المصدر والصفحة.

10) كتاب التشوف لرجال التصوف تحقيق احمد التوفيق طبعة البيضاء 1984 ص 24.

11) المازوني : صلحاء وادي شلف (مخطوط) ص 227.

12) ابن الزيات : م.س ص 216.

13) المازوني : م.س ص 264.

14) ابن الزيات : م. س ص 288 ترجمة 130.

15) ابن الزيات : أخبار أبي العباس السبتي. نشره أحمد التوفيق على هامش كتاب التشوف لابن الزيات ص 452.

وثمة من المتسولين من جبلوا على الالتجـاء إلى أبواب المنازل، والسؤال عن حاجتهم. ذكـر ابن الزيـات [16] في هذا المعنى أن أبا العباس السبتي لم يستسغ – في أحـد الأيام – أكل العشـاء الـذي قدمـه له أهلـه بسبب سائلة وجدها أمام باب داره دون عشاء.

واعتـاد البعض على إخراج الطعـام للمحاويـج الـذين قصدوا أبـواب منازلهم، حتى صار ذلك سنة وتقليدا، ولاغرو فان أبا يعقوب يوسف بن أحمد – أحد أعـلام الحقبة موضوع الـدراسة ((كانت عـادته أن يخرج للسائل الطعام))[17].

أما بعض متسولي الأنـدلس، فقد نحوا منحى آخر، إذ كانـوا يقومون بجولات في الطرقات، وينشدون مقـاطع من الأغنيات الشعبية أو الزجل، كسبا لعطف ورحمة المارة[18].

في حين سلك المتسولون في بعض المدن المغربية نهجا آخر، إذ استغلوا المواسم والأعيـاد الـدينيـة لاستـدرار عطف النـاس. ففي فـاس، يـذكـر التميمي[19] في ترجمة احد الزهاد، ان والده خرج في عيد عاشوراء قاصدا المسجد الجامع، فرأى جماعة منهم يتضـوعون جوعا، ويستجدون المارة وقاصدي المساجد في هذا اليوم الديني، مما يعكس حرصهم على استغلال «المقدس» لتمرير خطابهم الاستعطافي.

وتعوزنـا المعلومـات الكافيـة للوقـوف على مدى استجـابة الـرعايـا لاستجـداءاتهم، باستثنـاء بعض الأمثلـة الشعبية التي عبرت عن شعـور العامة تجاههم، ومنها يفهم أن هؤلاء «وعوا » ان ظاهرة التسول كانـت «حرفة» لها قواعـدها واسلوبها الخاص[20]، مما جعلهم يتخـذون أحيانا

---

16) نفسه ص 466.

17) نفسه ص 405 ترجمة 226.

18) بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي، ترجمة حسين مؤنس – طبعة مدريد 1945 (ط 1) ص 160.

19) كتاب المستفاد في مناقب العباد (مخطوط) ص 29.

20) قالت أمثال العامـة : " إذا اتبليت بالسعي قصد الديار الكبار " انظـر : مقداد عبد الرحيم : (أمثـال العـامة وحكمهـا في الانـدلس من كتـاب "حدائق الأزاهرل" لابن عـاصم الأنـدلسي الغرناطي. مجلة التراث الشعبي. صيف 1988 ص 102. وقـالوا ايضـا : " بحل من سعـا واهترق " مثل رقـم 277 انظر : الـزجالي : بغي الأوام ومـرعى السـوام في نكث الخواص والعوام. تحقيق الأستاذ محمد بن شريفة طبعة فاس 1975 ج 1ص 262.

أسلـوب الحيطة والحذر مـن بعض السائلين، بل الامتنـاع عن تقـديم أي مساعدة للقادرين منهم على العمل، وهـذا مايفسر قول ابن سعيد[21] عن سكان الأنـدلس إنهم ((إذا رأوا شخصا قـادرا على الخدمة يطلـب سبوه وأهانوه)).

بيـد أن كتب المنـاقب والتصـوف تكشف – بجـلاء – أن شريحة المتصوفة تعاطفوا مع الفقراء والمتسولين. وحسبنا أن المتصوف الزاهد أبو عبد الله التاودي آثر سائلا فتصـدق عليه بثيابه، وبقي دون ملابس[22]. وتـذكـر روايـة منقبيـة أن متصوفـا تصـدق بميـزره على سـائل جـاء يستجديه[23]. وفي نفس السيـاق، أورد ابن الـزيـات[24] في تـرجمة أبي شعيب أيـوب بن سعيد الصنهاجـي أن متسولا وقف عليه، واشتكـى له مرضه وفقـره وكثرة عياله، فطلب من أحد مريـديه أن يحسن إليه. ولعل هذا النص يكشف أسلـوب الاستجداء، الذي عـول على الجانب الانساني والعاطفي من خلال الشكوى التي كانت تعتمد على عدة عناصرمثل الفقر والمرض وكثرة العيال.

ولايسـاورنا شـك في أن ظاهـرة التسـول عرفت انتشـارا كـذلك بين النساء، فقد ورد في تـرجمة أبي إسحق الاندلسي أنه اشترى مع مـريديه طعامـا للعشاء، فإذا بمتسولـة تشكو ما ألم بأبنـائها من جوع، فآثـرها بالطعام المذكور[25]، ممـا يعكس ألوان الحرمـان التي عانت منهـا المرأة، وخصوصا التي فقدت زوجها، فاضطرت إلى احتراف مهنة التسول.

ومما يعكس صحة قاعدة تجاوب المتصـوفة مع المتسولين أن أحدهم جمع خلال مجاعـة عصفت بالمغـرب سنة 535 هـ كل السائلـين والفقراء ((فكـان يقـوم بمؤونتهـم، وينفـق عليهـم مـا يصطـاده من الحوت وغيـره إلى أن أخصـب الناس))[26].

---

21) انظر هامش رقم 7.

22) ابن الزيات : م. س ص 274 ترجمة 120.

23) التميمي : م.س ص 136.

24) التشوف ص 190 – 191 ترجمة 62.

25) نفسه ص 310 ترجمة 154.

26) نفسه ص 183 ترجمة 59.

ولم يدخر كافة المتصوفة الآخرين وسعا في إمداد المتسولين بالصدقات، بل إن الموسرين منهم بذلوا لهم بسخاء كل ما ملكت أيديهم.فأبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف من أهل سلا ((كان ذا مال فتصدق بجميعه))[27].

واستغل الولي الزاهد أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي ما بعثه إليه الأمير المرابطي علي بن يوسف من أموال ((فلم يخرج إلى أغمات من مراكش حتى فرقه على المساكين))[28]. وكان متصوف آخر يجمع مايلفظه البحر من مباح الطعام فيبيعه ويشترى بثمنه خبزا، ويمسك خبزتين ويتصدق بالباقي على المساكين[29].

وتذكر بعض المصادر المنقبية أن المتصوف أبايعزى، كان إبان اشتغاله بالرعي، يقبض من أرباب المواشي رغيفين كل يوم، فيمسك رغيفا واحدا، ويتصدق بالثاني على رجل منقطع في المسجد، وبعد ذلك انقطع رجل آخر، فآثره على نفسه بالرغيف الثاني[30]. وبعد أن امتلك أرضا للتعيش بها، صار يتصدق على الفقراء بـ 9 / 10، ويحتفظ لنفسه بالعشر فحسب، ويقول : ((إنني استحيي أن أمسك تسعة أعشار، وأصرف العشر للمساكين، فإن هذا من سوء الأدب مع الله عز وجل))[31]. ولشدة إيثار بعض المتصوفة، كان أحدهم يجرد أولاده من الثياب، ويعطيها لأبناء المحاويج والمتسولين[32].

ومن القرائن الأخرى التي تعكس ماحظي به المتسولون من عطف المتصوفة، أن أبا إبراهيم إسحاق بن محمد الهزرجي ((كان يسأل عن

---

27) نفسه ص 165 ترجمة 48.

28) المازوني : م.س ص 222 – 223.

29) نفسه ص 226.

30) ابن الزيات : م. س ص 216 ترجمة 77.

31) ابن صعد : النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب (مخطوط) ص 194.
وكذلك : ابن قنفد : انس الفقير وعز الحقير. تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور طبعة الرباط 1965 ص 25.

32) العبدوني : يتيمة العقود الوسطى (مخطوط) ص 418.

الأيتام وأولاد الفقراء فيكسوهم))[33]. كما أن أحد المتصوفة جمع في عام مجاعة قدرا هامـا من المال من أعيان مدينة بجاية ثم فـرقه على مجموعة من المتسولين، ((واشترى مايقوم بهم من الطعام، وجعل قيما يقوم بهم، وأغناهم عن السؤال))[34].

ويقـدم أبـو العبـاس السبتي النمـوذج الأمثل لتعـاطف هـذا القطـاع الاجتماعي مع المتسولين وكـافة الفقراء والمحتاجين. وحسبنـا أنه ((كان رحيما عطوفـا على المساكين واليتـامى والأرامل))[35]. بل كـان من أكبر الـدعـاة إلى تثبيت قيم الـرحمة والاحسـان داخل المجتمع. فقـد اجمعت المصـادر على ان مذهبـه مبني على عدم تكـديس الأمـوال في يد الأغنيـاء، وضرورة بذلها بسخاء للفقراء، وقرن ذلك بشعائر العبادة[36]. وكان كلما أتاه رجل ملتمسا بـركته ((يقول له» تصدق ويتفق لك مـاتريده))[37]. وكـان يرى أيضـا أن سبب انحباس المطـر وحـدوث القحط والمجاعـات، يرجع إلى بخل الناس وعدم إحسانهم للمتسولين[38].

وإذا كان تعاطف المتصوفة مع هؤلاء مسألة لايرقى إليها الشك، فإن موقف السلطتين المرابطية والموحدية ظل سلبيا. فليس ثمة إشارة واضحة إلى أي محاولة قامتا بها لاستئصال آفـة ظاهرة التسول، أو إيجاد حلول ناجعة لها. ومن ثم بقيت قيم الرحمة والإحسان من جانب الرعايا تجسد الحل الوحيد للتخفيف من بـؤس هذه الفئة الاجتماعية، ولكنـه كان حلا

---

33) نفسه ص 418.

34) ابن الزيات : م.س ص 429 ترجمة 256.

35) ابن الزيات : اخبار أبي العباس السبتي (مخطوط) ورقة 193 ظهر.

36) يفسر أبو العبـاس السبتي رفع المؤمن يديه في تكبرة الصـلاة بأنها تعني تخليه عن كل شيء لله، وعدم الاحتفـاظ لنفسه بـالقليل والكثير. كما يفسر الركـوع بالمشـاطرة في كـل شيء. أما السلام في نهاية الصلاة فتعني في نظره الخروج عن كل شيء وتسليمه لله تعالى. وتحدث عن فرائض الصلاة وسننها ومستحبـاتها انطلاقا من هذه الرؤية. فتحيـة المسجد بركعتين تعني ان المنحني يضع أعز أعضائه الـذي هو الوجه على الأرض، ويمثل وجهه مالـه الذي هو اعز الأشياء. انظر التفـاصيل عند ابن الزيات : اخبار أبي العبـاس السبتي (مخطوط) ورقة 207 وجه.

37) نفسه ص 60.

38) التنبكتـي : كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج. طبعـة بيروت (دون تـاريخ) ص 60.

على حساب مبدإ تحقيق العدالة والمساواة. والصدقة على المتسولين تعكس فشل وعود الدعوتين الإصلاحيتين المرابطية والموحدية في محو آثار الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية. كما أن رجحان كفة الرحمة والإحسان على حساب مبدإ العدالة والمساواة، هو في حد ذاته اعتراف ضمني بطبيعية التفاوت في الفقر والغنى داخل المجتمع. ولعل هذا ما أضعف "الوعي" الطبقي عن طريق تخفيف الضغوط على المتسول الذي اضطر الى التخلي عن كفاحه أو النقمة على أوضاعه ما دامت الصدقة والاحسان يخففان عنه بعض مصاعب الحياة.

صفوة القول أن التسول جسد ظاهرة اجتماعية خطيرة في عصر المرابطين والموحدين، وازدادت تجدرا بسبب الازمات والمجاعات التي اجتاحت المغرب والاندلس. وقد تبين أنها شكلت حرفة لها قواعدها وأسلوبها الخاص، وأنها انتشرت بين الرجال والنساء على السواء. ولم يستطع المرابطون أوالموحدون أن يجتثوا جذورها، مما يعكس فشلهم في تحقيق مبدإ العدالة الاجتماعية الذي رفعوه شعارا في ايديولوجيتهم الاصلاحية. وإذا كان هذا البحث المتواضع قد أثار الغبار حول هذه الظاهرة الاجتماعية المسكوت عنها، فإن صاحبه لا يزعم الحسم فيها في هذا المجال الضيق، بقدر ما يسعى إلى تحفيز الباحثين لإثارة تساؤلات أخرى حولها، وتوسيع رقعة البحث حتى تنصف فئة اجتماعية حرمت من موارد الرزق، كما حرمت من الدخول إلى التاريخ...

موارد الإمام الطبري عن " الفتنة " في كتابه : تاريخ الرسل والملوك

د. محمد أمحزون
كلية الآداب – مكناس

ملخص

عندما تطورت الكتابة التاريخية في القرن الثالث الهجري، ظهر المؤرخون الكبار الذين أفادوا كثيرا من كتب الأخبار. وكان على رأس هؤلاء الإمام الطبري الذي أظهر مقدرة فائقة في الجمع بين المصادر والاطلاع على الكتب التي ألفت قبله وانتقاء الروايات.

وقد اعتمد في كتابه تاريخ الرسل والملوك على نوعين من الموارد : مصادر شفهية أخذها سماعا من مشايخه مثل ابن شبة، ومؤلفات أجيز بروايتها أو أخذها وجادة فنقل منها، مثل كتب سيف بن عمر والواقدي وأبي مخنف. فالبنسبة لأخبار الفتنة في عهد عثمان ومقتله، اعتمد على سيف بن عمر الذي قدم روايته، وأخذ يكملها بروايات أخرى عن الواقدي، حيث استفاد من علمه في السيرة والمغازي والفتوح وتاريخ الخلافة.

كما يبدو أن الامام الطبري عول كثيرا على مرويات ابن شبة ومؤلفاته في جل مايتصل ببيعة على بن أبي طالب ووقعة الجمل. ويرجع هذا الاهتمام إلى أن ابن شبة له اختصاص بتاريخ المدينة والبصرة ؛ إذ يعتبر كتاباه تاريخ المدينة وأخبار البصرة من الاصول الرائدة في تاريخ صدر الاسلام.

أما موقعة صفين وما ترتب عليها من أحداث كالتحكيم وقتال علي للخوارج، فقد كانت كتب أبي مخنف مرجعه الأساسي فيها.

تقديم :

ظهرت الكتابة في التاريخ عند المسلمين منذ فترة مبكرة ؛ ففي أواخر القرن الأول للهجرة ظهرت الكتب التاريخية الأولى التي اعتنت

بـالسيرة النبـويـة. ثم أخـذت المصنفات التـاريخيـة في القـرن الثـاني الهجـري تعالج أخبار الأحداث المهمة في تاريخ الاسلام كالردة والفتوح والفتنـة، ومـايتصل بها من وقـائع وأحـداث كـالجمل وصفين والتحكيم وأمثـالها. وقـد عـرفـت بكـتـب الأخـبار وعـرف مـؤلفـوها بالاخباريـين.

وعندمـا تطورت الكتـابة التـاريخية في القـرن الثالث الهجـري، ظهر المؤرخون الكبار الذيـن أفـادوا كثيـرا مـن كتب الأخبار، فأعادوا تنظيم مادتها ودمجوا بينها في مصنفات كبيرة سميت بكتب التاريخ. وكان علـى رأس هـؤلاء الامام الطبري الـذي وجـد أمـامه عـددا كبيرا من المصـادر الإخبارية، فانتقى منها ماضمنه تاريخه الضـخم، حيث أظهر مقدرة فائقة في الجمع بين المصـادر والإطـلاع على الكتب التي ألفت قبلـه وانتقـاء الروايات.

وقد اعتمد في كتـابه تاريخ الرسل والملوك على نـوعين من الموارد : مصادر شفهية أخذها سماعا عن مشايخه مثل ابن شبة، ويشير إلى ذلك بصيغة "حدثنى" أو "أخبرني"[1]، ومؤلفات أجيـز بروايتها أو أخـذهـا وجادة فنقل منهـا ككتب سيف بن عمر، والـواقدي، وأبي مخنف، ويشير إلى ذلك بصيغة " ذكـر" أو " قـال " أو " زعم "[2].

ولما كـانت الـروايـة هي الطريقـة المحببـة إلى نفس الامـام الطبري في تـاريخـه، والروايـة عـن طـريـق الاسنـاد لاتستلزم ذكـر أسماء الكتب ؛ إنما يقوم اسم الراوي مقام كتابه، نلاحظ لذلك أن الامام الطبري أعرض عن ذكـر المصادر الكتابية أو أسماء الكتب التي اعتمد عليها، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا في مـواضـع محدودة جدا مثل قوله : " وحدثني عمر – ابن شبـه – مرة أخـرى في كتابه الـذي سماه كتاب أهل البصرة فقال :..."[3].

---

1) الطبري : تاريخ الرسل، انظر على سبيل، المثال، ج 4، ص 335.
2) المصدر نفسه : انظر على سبيل المثال، ج 4، ص 160، 372، 375.
3) المصدر نفسه، ج 5، ص 297.

اعتمد الامام الطبري أثناء كتابته عن الفتنة على أربعة مصادر رئيسية هي كتب أو مرويات : سيف بن عمر التميمي، ومحمد بن عمر الواقدي، وعمر بن شبة النميري، وأبو مخنف لوط بن يحي.

فالبنسبة لأخبار الفتنة في عهد عثمان ومقتله – رضي الله عنه – فقد اعتمد على سيف بن عمر الذي قدم روايته وأخذ يكملها بروايات أخرى عن الواقدي. وفي معركة الجمل والأحداث التي سبقتها مثل بيعة على بن أبي طالب – رضي الله عنه – بالخلافة وخروج طلحة والزبير وعائشة – رضي الله عنهم – إلى البصرة، فقد اعتمد على روايات عمر بن شبة وأكملها بروايات سيف بن عمر. أما موقعة صفين وما ترتب عليها من أحداث كالتحكيم وقتال علي للخوارج وغير ذلك، فقد اعتمد على أبي مخنف وقدم روايته.

هذا بالإضافة إلى موارد أخرى ثانوية تتمثل في مروياته لبعض شيوخه، وكانت تتخلل الموارد المذكورة بين حين وآخر.

أ – المورد الأول : سيف بن عمر التميمي :

نستهل حديثنا عن المصدر الأول وهو سيف بن عمر التميمي الضبي المتوفى عام 180 هـ (796 م). فقد عرف باطلاعه الواسع على تاريخ الاسلام، وحازت كتبه شهرة واسعة عند المؤرخين، ولا سيما كتبه المؤلفة في الردة والفتوح وأحداث الفتنة.

أخذ " سيف " علمه عن الاخباريين مثل هشام بن عروة بن الزبير، وموسى بن عقبة – الذي اعتمد الامام البخاري مغازيه في الصحيح – ومحمد بن السائب الكلبي، ومحمد بن إسحاق، وأمثالهم[4].

وهو يروى أخبار الفتنة عن شيوخه وهم : محمد بن نويرة وطلحة بن الأعلم وعطية بن الحارث أبي روق الهمداني، وكأنهم أوردوا هذه القصة بشكل متشابه، إذ أنه بعد أن يعدد أسماءهم يقول : وقالوا: [5] ثم يروي القصة، وكأنهم متفقون تقريبا على حوادث وتفاصيل الفتنة بما يوحي أن مصدرهم في روايتها واحد.

4) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 4، ص 295.

5) الطبري : المصدر السابق، ج 4، ص 348.

ومن شيوخ هـؤلاء يزيد الفقعسي التميمي الأسدي، وطبقتـه تدل على أنه عاش في أواخـــر القـــرن الأول، وعنـه وردت قصة عبد الله بن سبأ وحركته ومراسلاته مع الأقطار[6]، وهذا إن دل على شيء فإنمـا يـدل على أن مـرويات سيف متقـدمـة جـــدا حـيـــث وجـــدت فـي القـرن الأول الهجري.

وبعد أن لخص الحافظ ابن كثير روايات سيف عن الجمل نوه برواية سيف وشيوخـه عن الفتنة وقال : "هـذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جـريـــر – رحمه الله – عن أئمـة هـــذا الشأن – يـقـصـــد سيـف وشيـوخـه –"[7].

ومن مؤلفات سيف كتابه " الفتوح الكبير والردة[8] الذي اشتهر أمره حتى عـــرف بـه سيـــف، واستعـــان به الامـام الطبري في أخبار الـردة مرجحـــا رواياتـــه على سائـــر الـــروايـــات الأخـــرى التي وردت عن الردة[9].

وذكـر ابن النديم لـه أيضا مـؤلفا آخـر سماه كتاب الجمل، ومسير عائشة وعلي.[10] وهو الكتـاب الـذي نقـل منـه الامـــام الطبري روايات سيف عن معركة الجمل[11].

ويميـز هذا المصنف أن سيفـا أخذ أخبـار هذه المعـركة من مصـادر قريبـة من الأحداث ذكر الامـام الطبري أسماءهم في أسانيـده، فحفظ لنا بذلك صـورا أصيلة لأنباء تلك المعـركة المؤسفة التي كـان للسبئية ضلع كبير في إشتعال نارها.

وقد اعتمـد الامام الطبري على سيف في أخبـار الفتنة التي قـامت على عثمان – رضي الله عنه –، ومن ذلك خبر الفتنة التي أظهرها ابن سبأ في

---

6) المصدر نفسه، ج 4، ص ص 326 – 340.

7) ابن كثير : البداية والنهاية، ج 7، ص 137.

8) انظر : ابن النديم : الفهرست، ص 137.

9) الطبري : المصدر السابق، ج 3، ص ص 249 – 341.

10) ابن النديم : المصدر السابق، ص 137.

11) الطبري : المصدر السابق، ج 4 ص 455، 562.

البصرة والكوفة عام 33 هـ (653 م)، وكان سيف قد تلقاه عن عطية بن الحارث من كبار رواة الكوفة[12].

وهناك طريق آخر سلكه الامام الطبري للأخذ من كتب سيف بن عمر، هو طريق عبيد الله بن سعد الزهري البغدادي نزيل "سُرَّ من رأى"، روى عن أبيه ويونس بن محمد، وروى عنه طبقة من مشاهير الثقات أمثال البخاري وأبي داود والترمذي والنسائي وابن أبي عاصم وآخرين[13]. وأخذ عبيد الله أقوال سيف بن عمر عن عمه يعقوب بن إبراهيم بن سعد الزهري نزيل بغداد، وهو من رواة سيف بن عمر كما يظهر من قائمة أسماء مشايخه أنه لم يكن محدثا فحسب، بل كان من أصحاب التواريخ والفقه والشعر[14].

وقد أكثر الامام الطبري عن سيف بهذا الاسناد : " كتب إلي السري عن شعيب عن سيف بن عمر "[15]. وهذا مما يدل على أن الإمام الطبري كان يراسل شيخه السري فيسأله، وأن هذا كان يستنسخ من مؤلفات سيف بن عمر عن طريق شعيب، وكان يرسلها إليه، كما يظهر أن كتب سيف كانت عند السري، وأن الامام الطبري قرأ أجزاء منها عليه.

والسري هذا الذي كان حلقة اتصال بين الامام الطبري ومرويات سيف هو السري بن يحي بن السري التميمي الكوفي، روى عن شعيب كما يبدو من أسانيد الامام الطبري، وقال عنه ابن أبي حاتم : " لم يقيض لنا السماع منه، وكتب الينا بشيء من حديثه، وكان صدوقا "[16]. ويعتبر من أكثر الشيوخ الذين روى عنهم الامام الطبري، حيث روي عنه في تاريخه مائتين وثمانية وأربعين نصا [17].

---

12) المصدر نفسه، ج 4، ص ص 326 340.

13) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 7 ص 15.

14) المصدر نفسه، ج 11، ص 380.

15) الطبري : المصدر السابق، ج ج، ص ص 156، 190 (طبعة دار القلم، بيروت).

16) ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل، ج 4، ص 285.

17) محمد أبو الفضل : فهارس تاريخ الطبري، ج 10، ص 261.

أما شعيب، فهو شعيب بن إبراهيم الكوفي، ذكره ابن عدي وقال : " ليس بالمعروف، وله أحاديث وأخبار، وفيه بعض النكرة، وفيه مافيه من تحامل على السلف "[18]. وقال الحافظ الذهبي في الميزان : " راوية كتب سيف عنه، فيه جهالة ". [19] وقد روى عنه الامام الطبري في تاريخه بواسطة شيخه، ومقتبسات الامام الطبري عن طريقه أكثر من خمسين ومائتين مرة ". [20]

ومجموع مرويات سيف في تاريخ الامام الطبري مائتان وتسع وستون رواية منها ثلاث وسبعون رواية عن الفتنة[21]. وهكذا جعله الامام الطبري مصدرا مهما في نقل الأخبار ؛ فقد نقل عنه أحداث الفتنة أكثر من غيره حتى كاد يعتمد عليه.

وقد تكلم المحدثون في سيف ؛ قال أبو حاتم : " متروك، يشبه حديثه حديث الواقدي "[22]. وقال ابن معين : " ضعيف "[23]. وضعفه كذلك النسائي والدار قطني[24]. وقال ابن حبان : " يروي الموضوعات عن الاثبات، واتهم بالزندقة ".[25] لكن الحافظ ابن حجر لم يرض بهذا الاتهام فقال :" أفحش ابن حبان القول فيه ".[26]

ولسنا ندري كيف يصح اتهامه بذلك وروايته في الفتنة وحديثه عما جرى بين الصحابة –رضوان الله عليهم – أبعد مايكون عن أسلوب الزنادقة ! وكيف يستقيم اتهامه بالزندقة، وهو الذي فضح وهتك ستر الزنادقة أمثال ابن سبأ !

---

18) ابن حجر : لسان الميزان، ج 3، ص 145.

19) الذهبي : ميزان الاعتدال، ج 2، ص 275.

20) محمد أبو الفضل : المرجع السابق، ج 10، ص 284.

21) المرجع نفسه، ج 10، ص 280.

22) ابن أبي حاتم : المصدر السابق، ج 4، ص 278.

23) ابن معين : التاريخ، ج 2، ص 245.

24) النسائي : كتاب الضعفاء والمتروكين، ص 123 . والدار قطني : الضعفاء والمتروكون، ص 243.

25) ابن حبان : المجروحين، ج 1، ص 345.

26) ابن حجر : تقريب التهذيب، ج 1، ص 344.

ويمكن القول بأن رواية سيف بعيدة أن تضعه موضع هذه التهمة، بل هي تستبعد ذلك ؛ إذ أن موقفه فيها هو موقف رجال السلف في احترامه للصحابة وتنزيهه لهم عن فعل القبيح. فقد انتحى جانبا عن أبي مخنف والواقدي، فعرض تسلسلا تاريخيا ليس فيه تهمة للصحابة، بل يظهر منه حرصهم على الاصلاح وجمع الكلمة، وهو الحق الذى تطمئن إليه النفوس، ويسير في اتجاه الروايات الصحيحة عند المحدثين.

وإذا كان المحدثون يتساهلون في الرواية عن الضعفاء إن كانت روايتهم تؤيد أحاديث صحيحة، فلا بأس إذن من الأخذ بهذا الجانب في التاريخ وجعله معيارا ومقياسا إلى تحري الحقائق التاريخية ومعرفتها. ومن هذا المنطلق تتخذ الأخبارالصحيحة قاعدة يقاس عليها ماورد عند الاخباريين مثل سيف والواقدي وأبي مخنف، فما اتفق معها مماأورده هؤلاء تلقيناه بالقبول، وماخالفها تركناه ونبذناه.

ومما لاشك فيه أن رواية سيف مرشحة لهذه المعاني أكثر من غيرها؛ إذ تتفق وتنسجم في الغالب مع الروايات الصحيحة المروية عن الثقات، علاوة على أنها صادرة ومأخوذة عمن شاهد تلك الحوادث أو كان قريبا منها.

ولهذا أثنى الحفاظ على سيف بالخبرة والمعرفة في مجال التاريخ، فقال الحافظ الذهبي :" كان إخباريا عارفا "[27]. وقال عنه الحافظ ابن حجر : " ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ "[28].

ويعلق جواد علي على بروكلمان الذي هو الآخر اتهم سيفا بأنه لم يكن يفحص الأخبار التي كانت تقال له، وانه كان يبالغ فيها بتمجيد قبيلته تميم بقوله : " أما ادعاه – بروكلمان – من أن الطبري قد لاحظ ذلك عليه – عاطفته القبلية تجاه تميم – فكان يحاذر منه واضطر إلى ترك قسم من رواياته، فهو قول لا يؤيده كتاب الطبري

---

27) الذهبي : ميزان الاعتدال، ج 2، ص 255.

28) ابن حجر : تقريب التهذيب، ج 1، ص 344.

نفسه، ففي أخبار الردة جعله الطبري المرجع الأول المفضل على المراجع الأخرى، وفي أخبار معركة الجمل – الفتنة – ترى لرواياته مكانة بارزة بين الروايات. ثم إن النسخة الأصلية – لتاريخ الطبري – لاتزال في ضمير الغيب، فكيف عرف – بروكلمان – أن الطبري قد نبذ روايات سيف في تمجيد تميم !! "[29].

وفي الواقع، إن تعصب سيف المزعوم لقبيلته ترده أحوال بني تميم وموقفهم من الفتنة ؛ فمن المعروف أنهم ممن اعتزل الفتنة مع سيدهم الأحنف بن قيس يوم الجمل[30]، وبالتالي فإن روايته للفتنة تشكل من خلال مضمونها وتفصيلاتها مصدرا حياديا ومطلعا في آن واحد.

وتظهر في تاريخ الامام الطبري رواية سيف بن عمر للفتنة في عهد عثمان – رضي الله عنه – ووقعة الجمل كاملة، في مقاطع متفرقة، في صدر كل مقطع سند رواته كاملا.وقد قام أحد الباحثين –أحمد راتب عرموش – بجمعها وترتيبها في كتاب سماه الفتنة ووقعة الجمل، يبلغ عدد صفحاته مائتين وسبع صفحات، وهو مطبوع في بيروت بدار النفائس عام 1371 هـ (1972 م).

وهذا الحشد الكبير من الروايات يدل على أن سيف بن عمر كان موثوقا عند الامام الطبري في الأخبار أكثر من غيره.

ب – المورد الثاني : محمد بن عمر الواقدي.

والمصدر الثاني لأخبار الفتنة في تاريخ الامام الطبري هو محمد بن عمر الواقدي المدني القاضي المتوفى عام 207 هـ (822 م)، صاحب التصانيف الكثيرة، قال عنه الخطيب : " هو ممن طبق ذكره مشرق الأرض ومغربها، وسارت بكتبه الركبان في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات والفقه، وكان جوادا كريما مشهورا بالسخاء "[31].

---

29) جواد علي : "موارد تاريخ الطبري" ، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث، 1374هـ/ 1954م، ص49.

30) الطبري : المصدر السابق، ج 4، ص ص 498، 500، 501.

31) الخطيب : تاريخ بغداد، ج 3، ص 3.

ويعتبر الواقـدي أحد أوعيـة العلم[32]، فهـو من أبـرز علماء المغـازي والسير والفتـوح، وكـان صـــاحـب مؤلفـــات كثيرة، يجمع الكتب، فترك بعد وفاتـه خزانة ضخمة قال عنها يعقـوب بن شيبـــة : " لمـا تحـــول الواقـــدي من الجـــانب الغـربي – في بغداد – يقال إنـه حمل كتبه على عشرين ومائة وقرا، وقيل كان له ستمائة قمطر كتـــب "[33].

لقـد تناول الـواقدي بحـوثا مهمـة في التاريخ، وألف في كتب الفتـوح والأحداث التي وقعت فـي صـــدر الاســلام مثل السقيفة والردة ووقعة الجمـل وصفـين والخـوارج والفتـوح... وقـد ضاع غالبية هذه الكتب إلا مـا وجـد مقتـــبســـا منها فـــي تـاريخ الامـــام الطبـري وفي المؤلفـات الأخرى.

وقد ذكـر له ابن النـديم قرابـة ثلاثين مصنفـا منها : التاريخ الكبير، المغازي، الردة، الجمل، صفين، الطبقات، فتوح الشام، فتوح العراق، مقتل الحسين، تصنيف القبائل ومراتبها وأنسابها ، وغير ذلك[34].

وللواقدي عنـاية بالضبط التاريخي للوقـائع والغزوات، كما أنه اعتنى بذكـر الرجال الذين لهم إسهـامات معينة في الحرب من إنفـاق وبذل أو مشورة ورأي أو مـوقف بطولي، ويذكـر الأسرى، وكذلك الشهـــداء مـن المســلمـــين والقتلى من الكفار، ويرتبهم حسب قبائلهم[35].

كما يلاحظ اعتناءه بتحـديد الأ مكنة والمواقع الجغرافيـة حتى أنه كان يتتبع ذلك ويقف عليه بنفسه ؛ يروى عنـه الخطيب البغدادي في ترجمته أنه قـال : "ما أدركت رجـلا من أبناء الصحابـــة وأبنـــاء الشهـــداء ولامولى لهـــم إلا وسألته هل سمعت أحـدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل، فإذا أعلمني مضيت إلى الموضـع فأعاينه"[36].

---

32) الذهبي : ميزان الاعتدال، ج 3، ص 662.

33) ابن النديم : المصدر السابق، ص 144.

34) المصدر نفسه، ص 144.

35) الواقدي : المغازي، انظر الجزء الأول.

36) نقلا عن الخطيب البغدادي : المصدر السابق، ج 3، ص 6.

لذلك تفرد الواقدي بزيادات في وصف المعارك، وفي الحوادث الجانبية التي لاتوجد عند غيره. ولعل هذا مالمسه الحافظ الذهبي عندما وصفه بأنه " رأس في المغازي والسير "[37].

أما توثيقه فقد اتهم وترك رغم سعة علمه،[38] وذكر علماء الجرح والتعديل أقوالا كثيرة في عدالته أكثرها يجرحه وبعضها يوثقه. قال فيه أحمد بن حنبل : " هو كذاب "،[39] وقال ابن معين : " ليس بشيء ".[40]، وقال البخاري وأبو حاتم : "متروك"[41] وقال الدار قطني : " فيه ضعف ".[42] وقال ابن المديني : "ليس هو بموضع الرواية، وإبراهيم بن يحي كذاب، وهو عندى أحسن حالا من الواقدي "[43] وقال أبو نعيم الأصبهاني : " متروك "[44]. وقال أبو زرعة : " يكتب حديثه للاعتبار ".[45] وقال تلميذه ابن سعد : " كان عالما بالمغازي والسيرة والفتوح واختلاف الناس في الحديث والأحكام واجتماعهم ".[46] وقال مصعب الزبيري : " ثقة "[47]. كما وثقه أبو عبيد والصغاني.[48]

وبصدد هذا الاختلاف بين المجرحين والمعدلين له، وازن الحافظ الذهبي بين محاسنه ومساوئه، فتكلم فيه بعلم وعدل وإنصاف قائلا : "جمع فأوعى وخلط الغث بالسمين والخرز بالدر الثمين فاطرحوه

---

37) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 348.

38) ابن حجر : تقريب التهذيب، ج 2 ص 194.

39) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 9، ص 364.

40) ابن معين : المصدر السابق، ج 2، ص 532.

41) البخاري : التاريخ الكبير، ج 1، ص 77. وابن أبي حاتم : المصدر السابق، ج 8، ص 20.

42) الدار قطني : المصدر السابق، ص 347.

43) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 9، ص 367.

44) أبو نعيم : الضعفاء، ص 146. وانظر كلام المحقق عن الواقدي في الحاشية.

45) ابن أبي حاتم : المصدر السابق، ج 8، ص 21.

46) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 9، ص 365.

47) المصدر نفسه، ج 9، ص 366.

48) المصدر نفسه، ج 9، ص 366.

لذلـــك. ومـــع هـــــذا لا يستغـنى عنـــه في المغـــازي وأيـام الصحابـة وأخبارهم ".[49] ثـــم قـــال في خـــاتمـة ترجمتـه : " وقـــد تقـرر أن الـواقـــدي ضعيف يحتاج إليه في الغـزو والتاريخ، وتـورد آثاره من غير احتجاج. أمـا الفرائض فـلا ينبغـي أن يذكـر، فهذه كتب السنـة ومسند أحمد وعامـة من جمع في الأحكـــام تراهم يترخصـــون فـــي إخـراج أحـــاديـث أنـــاس ضعفـــاء ومتروكين، ومع هذا لايخرجون لمحمد بن عمر شيئا، مع أن وزنه عندي أنه مع ضعفـه يكتـب حـديثـــه ويـروى، لأنى لا أتهمه بالوضـع، وقول من أهـدره فيه مجازفة من بعض الوجوه، كمـــا أنـــه لاعبـــرة بتوثيق من وثقه...[50].

والذي يظهـر من كـلام النقاد في الـواقدي قبـول رواياتـه في الأخبار والسيـــــر إذا لـــم تتعـــارض مـع الـروايـــات الصحيحة، لأنه ليس بحجة إذا انفرد، فمن باب أولى إذا خالفه من هو أوثق منه.

وكـان يغلب على الـواقـدي في استخـــدامـه لمصـادره استعمالـه لفظ "بلغني"[51]، " حدثني من أثق به "[52]، دون أن يفصح عن اسم الراوي، وفي هـذا إغفال لمصـدرالـروايـة. وفوق هـذا كـــان يذكـــر أسانيـد مصـــادره عـلى نحـــو جماعـي[53] فبـدلا مـن أن يذكـر الأسانيـــد قبل الأخبار خبـــرا كـان يذكـر أسـانيـد الكتـب أو المـصـــادر المستخـــدمـة فـــي أول كل فصل من الفصول، حتى إنـه يتعذر تمييـز الاقتباسات التي أخذها عن المصادر المختلفة.

وقد زعم ابن النـديم – وهو من الرافضة – أن الـواقدي كان يتشيع وأنه حسن المذهب – يعنى مذهب الـرافضة – يلزم التقية[54]. كما ترجم له أيضا الخوانساري وغيره من علماء الشيعة في كتبهم[55].

---

49) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج 9، ص 454.

50) المصدر نفسه، ج 9، ص 469.

51) الواقدي : فتوح الشام، ص ص 14 – 18.

52) المصدر نفسه، ص 5.

53) المصدر نفسه، ص 5.

54) ابن النديم : المصدر السابق، ص 111.

55) الخوانساري : روضات الجنات، ج 7، ص 268.

غير أن أقـوال هؤلاء لاتمدنـا بدليل يحتفل بـه أو ينظر إليـه في تشيع الـواقدي، إذ من عـادة الرافضـة الكـذب، وأن ينسبوا الى مـذهبهم بعض المشاهير من العلماء بغية تكثير سوادهم والـدعاية لمذهبهم. فهناك كتـاب بعنـوان " فلاسفة الشيعة " صنفه أحد شيعة لبنان اسمه الشيخ النعمة ادعى فيه كثيرا من العلماء ونسبهم إلى الشيعة.

وحسب اطـلاعي، لم يتهمه أحد مـن علماء أهل السنة الذيـن انتقدوه بسبب بدعة التشيع، وإنما تركوه لضعفه في الحديث.

وقد استفـاد الامام الطبري من مصنفات الواقـدي في السيرة والمغازي والفتوح وتاريخ الخلافة، ونقل عنـه في ثلثمائة وستة عشر موضعا منها ثلاثة وأربعـون نصا عن الفتنة. ففي معرض كلام الامـام الطبـري عـن الفتنـة التي ظهـرت في عهد عثمان – رضي اللـه عنه – كـان المورد الذي عول عليـه أيضا هـو روايات الواقـدي، رغم أنه انتقـد روايته وقـال إنه أعـرض عن كثير منهـا : " فأمـا الواقـدي فإنه ذكـر في سبب مسيـر المصـريين إلى عثمـان ونزولهم " ذا خشب" أمورا منهـا ما قـد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضت عن ذكره لبشاعته "[56].

ومن شيوخ الواقدي محمد بن صالح بن دينار المدني التمار الذي يعد حلقة اتصـال بين الواقـدي وعاصم بن عمـر بن قتادة الظفـري صاحب المغازي. وقـد نقل الواقـدي كلام عـاصم عن طـريقه حيث احتـل هـذا الأخيـر مكانـة لابأس بها عنـد الامـام الطبـري، إذ ورد فـي حـوادث عام 35هـ (655م) في معرض الكلام عـن الفتن التي ظهرت أيام عثمان– رضـي الله عنه –[57].

ويظهر من الروايات التي دونها الامـام الطبري عن الوقدي عن محمد بن صالح، وبحث فيها هذا الأخير عن أيام عمر وأيام عثمان والفتنة التي وقعت في عهـده، أنه كـان صاحب مـؤلف في تاريخ الخلفـاء الراشـدين، وأنـه كـان مهما جدا، وقد اعتمد عليه الواقدي كثيرا[58].

---

56) الطبري : المصدر السابق، ج 4، ص 356.

57) المصدر نفسه، ج 4، ص 359.

58) جواد علي : المرجع السابق، ص 56.

ج – المورد الثالث : عمر بن شبة النميري

أما المصدر الثالث فهو أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري الحافظ العلامة الإخباري الثقة المتوفى عام 262 هـ (875 م).

وقد ذكر من ترجموا له على أنه صادق اللهجة، غير مدخول الرواية، عالما بالآثار، رواية للأخبار، أديبا فقيها، صاحب تصانيف، عالما بالقراءات، بصيرا بالسير والمغازي وأيام الناس[59].

قال فيه ابن أبي حاتم : " كتبت عنه مع أبي، وهو صدوق صاحب عربية وأدب "[60]. وذكره ابن حبان في الثقات وقال : " مستقيم الحديث، وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بأيام الناس ".[61] وقال الخطيب : " وكان ثقة عالما بالسير وأيام الناس، وله تصانيف كثيرة ".[62]

وقد سمع ابن شبة وروى وحدث عن ثقات علماء عصره ممن يمثلون مختلف فروع المعرفة والثقافة في ذلك العهد أمثال ابن مهدي والقطان في الحديث، والأصمعي في الأدب، والمدائني في التاريخ، كما روى عنه عدد كثير من العلماء أمثال ابن ماجة، وثعلب النحوي الشهير، والبلاذري، وابن أبي الدنيا، والبغوي صاحب الصحيح، وغيرهم.[63]

وقد خلف عمر بن شبة كثيرا من المؤلفات في نواحي شتى من المعرفة حيث ذكر له ابن النديم زهاء عشرين مصنفا، منها ماله علاقة بأحداث الفتنة كمقتل عثمان وأخبار المدينة وأخبار الكوفة وأخبار البصرة .[64] وقد نقل الحافظ ابن حجر من كتاب ابن شبه هذا

---

59) الخطيب : المصدر السابق، ج 11، ص 208. وياقوت : معجم الأدباء، ج 16، ص 60. والنووي : تهذيب الأسماء واللغات، 1/2/16. وابن خلكان : وفيات الأعيان، ج 3، ص 440.

60) ابن أبي حاتم : المصدر السابق، ج 6، ص 116.

61) ابن حبان : الثقات، ج 8، ص 446.

62) الخطيب : المصدر السابق، ج 11، ص 208.

63) ابن حجر : تهذيب التهذيب، ج 7 ص 460.

64) ابن النديم : المصدر السابق، ص 163.

عن البصرة نصا طـويلا في الفتـح حيث قـال : "وقد جمع ابـن شبة في كتاب أخبار البصرة قصة الجمل مطولة وها أنا الخصها واقتصر على ما أورده بسند صحيح أو حسن وأبين ماعداه".(65)

ولم يعثـر اليوم على كتب ابن شبـه سوى كتـاب أخبار المدينة وهو مطبوع بعنوان تاريخ المدينة.(66)

والجزء الثالث منه يـؤرخ لحياة أمير المؤمنين عثمان بن عفان – رضي الله عنه –. ويعنى خـاصة بجمـع النـاس على نسخـة واحدة من القرآن الكـريـم والأسبـاب التي دعت إلى ذلك، وكيـف كتب المصحف، كما يعنى بالحديث عن الفتوحات وسعة الأرزاق والرفـاهية التي عاشها أهل المدينة في خـلافـة عثمان – رضي اللـه عنـه –، وكيف دخل على المجتمع المدني بعض أنـواع اللهـو، ومحاربـة أمير المؤمنين للعب بـالنـرد، ورمـي الجلاهقـات (قـوس البندق) وتطيير الحمام.

ثم تناول بـالتوسع أحداث الفتنـة، وماروي عن مواقف الصحـابة – رضوان الله عليهم – منهـا، ثـم النهـاية الأليمة التي لقيها أمير المؤمنين بين المدافع عنه والخاذل، والتي فتحت أبواب الشر على المجتمع الاسلامي.

ولعلنا لانجـد نصا قـديما قد عـالج حياة عثمان – رضي اللـه عنه – والمجتمع المدني وأحداث الفتنـة بمثل توسع ودقـة ابن شبة، اللهم إلا إذا كان تـاريخ دمشق للحافـظ ابن عساكـر، مما يجعله من أهـم النصوص الأصلية التي بين أيدينا.

ومنهج ابن شبـة في تاريخ المدينة هو روايـة الأخبار بالأسـانيد على طريقة المحدثين، فلم يجمع الاسـانيـد كمـا فعل من سبقه من الاخباريين وأهل السير كابن إسحـاق والواقدي وغيرهم، إلا أن أسانيـده ليست كلها موصولة، ففيها الموصول،(67)، والمنقطع(68)، والمعلق(69).

65) ابن حجر : فتح الباري، ج 13، ص 54.

66) يقع في أربعة أجـزاء، قام بتحقيقه فهيم محمـد شلتوت، وطبعته دار الأصفهاني بجـدة سنة 1393هـ/1973م.

67) انظر تاريخ المدينة، على سبيل المثال، ج 3، ص 907.

68) المصدر نفسه، انظر مثلا ج 2، ص 763.

69) المصدر نفسه، انظر مثلا، ج 1، ص 176.

وكذلك مصادره ورجاله ليست بدرجة واحدة في الثقة، فمنها المقبول ومنها المردود، فمثلا يسند الخبر إلى مجاهيل فيقول : " قال أبوغسان أخبرني بعض مشيختنا..."[70]، "... أن الأصمعي ذكر فيما حدثني عنه من أثق به "،[71] " حدثنا محمد بن يحى – أبو غسان – قال حدثنا من نثق به "[72]، " أخبرني رجل من قريش ".[73]

ومن الملاحظ أنه لم يكن مدلسا في الرواية، إذيروى عن الشخص الواحد ممن لقيه بالعلو والنزول من الإسناد، فمثلا عندما يروى عن شيخه أبي غسان الكناني يقول تارة : " حدثنا أبو غسان " أو " حدثنا محمد بن يحي "،[74] ويقول تارة أخرى : " قال أبو غسان "[75]. وفي موضع ثالث يقول : " حدثنا عن أبي غسان "،[76] وفي موضع رابع : " ومما وجدت في كتاب أبي غسان ".[77]

وابن شبة في تأريخه للمدينة لم يقتف أسلوب المحدثين الذين أرخوا للمدن بتراجم علمائها والوافدين عليها، كما فعل الحاكم في تاريخ نيسابور، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وإنما أرخ للمدينة تأريخا عمرانيا وسياسيا. وتأتى أهمية المعلومات التي ذكرها عن معالم المدينة وخططها ودورها ورباعها ومزارعها ومنازل القبائل فيها وتسجيل الأحداث المبكرة فيها أقدم ما وصلنا من نصوص في هذا المجال.

---

70) المصدر نفسه، ج 1، ص 62.

71) المصدر نفسه، ج 1، ص 291.

72) المصدر نفسه، ج 1، ص 16.

73) المصدر نفسه، ج 2، ص 763.

74) المصدر نفسه، ج 1، ص ص 61، 79.

75) المصدر نفسه، ج 1، ص 129.

76) المصدر نفسه، ج 1، ص 61.

77) المصدر نفسه، ج 2، ص 688.

ويبدو أن الامام الطبري عوّل كثيرا على مرويات ابن شبة ومؤلفاته في جل مايتصل بأخبار المدينة كأحداث الفتنة في خلافة عثمان – رضي الله عنه – أوما يتعلق بأخبار العراق كخروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة وموقعة الجمل وغير ذلك من أحداث.

ويرجع هذا الاهتمام إلى أن ابن شبة له اختصاص بتاريخ المدينة والبصرة، إذ يتعبر كتاباه أخبار المدينة وأخبار البصرة من الأصول الرائدة في تاريخ صدر الاسلام. وفي هذا الشأن يقول الحافظ الذهبي : " وصنف ابن شبة تاريخا كبيرا للبصرة، وكتابا في أخبار المدينة رأيت نصفه يقضى بإمامته ".[78]

ولأن أبازيد ابن شبة كان من شيوخ الامام الطبري، فيبدو أنه سمع منه وأجازه عنه من كتبه على عادة العلماء في ذلك العصر في إجازة تلاميذهم بالرواية عنهم إذا تحققوا من مقدرتهم العلمية. وبلغ عدد مروياته في تاريخ الطبري مائة وتسعا وستين قطعة منها ثلاثون رواية عن الفتنة.[79]

د – المورد الرابع : أبو مخنف لوط بن يحي

والمصدر الرئيسي الرابع عن الفتنة في تاريخ الامام الطبري هو لوط بن يحي المعروف بأبي مخنف، الإخباري المتوفى قبل 170 هـ (786 م) صاحب التصانيف الكثيرة في الأحداث الكائنة في صدر الدولة الاسلامية. قال أحمد بن الحارث الخزاز : " إن العلماء قالوا : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بأمر الحجاز والسيرة، واشتركوا في فتوح الشام ".[80] وقال فيه ابن قتيبة : " كان صاحب أخبار وأنساب، والأخبار عليه أغلب ".[81]

---

78) الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 371.

79) محمد أبو الفضل : المرجع السابق، ج 10، ص 348.

80) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج 10، ص 400.

81) ابن قتيبة : المعارف، ص 234.

وقد كان أبـو مخنف أكثر الإخباريين رواية لأحداث العـراق، وخاصة الكوفـة حيث مركـز التشيع. ولهـذا كـــان يهتم بموضـــوعات الخوارج والثورات الشيعية، وثورات العراق بصفة عـامة. ويذكر في معظم الأحوال الروايـة الكوفية، إذ كان يميل إلى رأي أهل العـراق لا إلى رأي أهل الشام، وكان إلى جانب العلويين ضد الأمويين.

ولذلك يعتبر الشيعـة أبا مخنف من كبار مؤرخيهم حتى قـال أحدهم عنه : " كان أبو مخنف من أعاظم مـؤرخي الشيعة، ومع اشتهار تشيعه اعتمـد عليـــه علماء أهـل السنـة في النقـــل عـنـــه كالطـبـــري وابـن الأثيـر".[82] لكـن نقـل أهـل السنـة مـن كـتـبـــه لايعنـى اعتمـادهـم عليـه.

وقد ذكر ابن النـديم قائمة بأسماء كتبه تقـارب خمسين مصنفا منها مايـتعـلـق بالفـتـنـة ككتـاب الشـورى ومقتل عثمان، و كتـاب الجمل، و كتاب صفين وكتاب مقتل محمد بن أبي بكر والأشتر ومحمد بن حذيفـة، كـتـاب أهـل النهـروان والخـوارج ، ومقـتـل علي.[83]

لكن أبا مخنف غير موثوق، فلتشيعـه الشديد غلب التحيز على مارواه عـن الفتـنـة. قال ابـن معـيـن : " ليس بثقة "[84] وقـال ابـن عـدي : " شيعي محترق صـــاحب أخبـــارهم ".[85] وقـــال أبـو عـبـيـد الآجـــري:" سألـــت أبا حاتـم عنـــه فنفض يـده وقال : أحد يسأل عن هذا " ؟!،[86] وذكـره العقيلى في الضعفاء[87]، وقال الـذهبي : " إخباري تالف، لايوثق به".[88]

---

82) أغابزرك الطهراني : الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج 1، ص 312.

83) ابن النديم : المصدر السابق، ص ص 105، 106.

84) ابن معين : المصدر السابق، ج 7، ص 182.

85) ابن عدي : الكامل في ضعفاء الرجال، ج 6، ص 2110.

86) ابن حجر : لسان الميزان، ج 4، ص 492.

87) العقيلي : الضعفاء الكبير، ج 4، ص 18.

88) الذهبي : ميزان الاعتدال

ومن الملاحظ أن أبـا مخنف يتعمد التـزوير والتحـريف في الروايـات، ومن أمثلة ذلك قصـة الشورى بعد مقتـل عمر بـن الخطاب – رضي الله عنه –. فمع أن راوي القصة واحد عند الإمام البخاري وأبي مخنف، وهو عمـرو بن ميمـون، إلا أن أبـا مخنف غير المتن وزاد فيـه زيـادات منكـرة.(89)

أما قصـة مبايعة علي – رضي الله عنـه – فقد ساقهـا بنفس الإسناد الذي سـاقه بها الامـام أحمد(90)، ومع ذلك غير ألفـاظهـا وأضاف إليهـا كلمات غريبة منكرة(91).

ولدى المقارنة بين الروايتين يتضح :

– تـرك أبـو مخنف ذكـر غضب علي لعثمان – رضي اللـه عنهما – وإسراعه في نصرته.

– لم يعين الإمام أحمد الـذين أتوا إلى علي في بيتـه، وذكر أبـو مخنف أنهم من الصحابة.

– أبدل أبـو مخنف بكلمة (خليفة) – التي كانت هي الشـائعة في ذلك العصر بكلمة (إمام).

– أطلق الامـام أحمد مبايعـة الناس له، فيما ذكـر أبو مخنـف أنه لم يبايعه كل الناس، وأن نفرا من الانصار لم يبايعوا.

– زاد أبـو مخنف في روايته كلمـة منكرة لم تـرد عند غيره في إسنـاد صحيح أو ضعيف، ولم يذكـرها أحد من المؤرخين وهي قـولة : " فقال طلحة : مالنا في هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب ".

وللاشـارة فإن أسانيد أبي مخنف ضعيفة ولا تخلـو من إرسـال أو انقطاع أو عضل أو تدليس أو ضعف في الرواة ممن فوقه.

---

89) انظر البخاري :الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، ج 4، ص 204. والطبـري : المصدر السـابـق، ج 4، ص 227.

90) أحمد : فضائل الصحابة، ج 2، ص 573.

91) الطبري : المصدر السابق، ج 4، ص 429.

وقد درج الامام الطبري على النقل من كتب أبي مخنف مباشرة، لكنه في بعض المواضع يذكر أخباره من طريق هشام بن محمد الكلبي.[92]

وقد اعتمد عليه في وقعة صفين، وماترتب عليها من أحداث كالتحكيم وقتال علي للخوارج ومقتله – رضي الله عنه – على يد أحد منهم، تلك الأحداث التي كان أبو مخنف مرجعه الأساسي فيها. هذا ويبلغ عدد مرويات أبي مخنف في تاريخ الإمام الطبري ثلثمائة وأربعين نصا منها سبع وستون رواية عن الفتنة[93].

92) المصدر نفسه، انظر : ج 5، ص ص 39، 42، 106، 113، 173.

93) محمد أبو الفضل، المرجع السابق، ج 10، ص 383.

كـشــف المصــادر والمراجــع

- أغابزرك الطهراني، محمد بن محسن (....)

1 - الذريعة إلى تصانيف الشيعة، النجف - العراق - مطبعة القرن، 1355- 1381هـ / 1936 - 1961 م)

- البخاري الامــام، أبو عبد اللــه محمد بن إسماعيل الجعفي (ت 256 هـ / 869 م).

2 - التاريخ الكبير، تحقيق عبد الــرحمن اليماني، حيد رآبــاد الدكن : مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، 1360 هـ / 1941 م.

3 - الجامع الصحيح، إستانبول : مؤسسة إليف أوفست، 1349 هـ / 1979 م.

- جواد علي

4 - "موارد تــاريخ الطبري"، مجلــة المجمع العلمي العــراقي، العدد الثالث، 1354 هـ / 1954 م.

- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبــد الرحمن بن محمد التميمي (ت 327 هـ / 938 م).

5 - الجرح والتعديل، حيــد رآبــاد : مطبعــة مجلس دائرة المعــارف العثمانية، 1371 هـ / 1952 م.

- ابن حبان، أبو حــاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت 354 هـ / 965 م).

6 - الثقات، حيد رآباد : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393 - 1402 هـ / 1973 - 1982 م.

7 - المجروحين من المحدثين، تحقيق إبراهيم محمود زايد، حلب : دار الوعي، ؟.

– ابن حجـر، شـهاب الـدين أبـو الفضـل أحمد بن علي (ت 852 هـ / 1448 م).

8 – تقريب التهذيب، بيروت : دار المعرفة، ط 2، 1395 هـ / 1975 م.

9 – تهذيب التهذيب، حيـد رآبـاد : مطبعـة مجلس دائرة المعـارف النظامية، 1325 هـ / 1907 م.

10 – فتح الباري، شرح صحيح البخاري، القاهرة : المكتبة السلفية،؟.

11 – لسان الميزان، حيد رآباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1331 هـ / 1912 م.

– ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت 241هـ / 855 م).

12 – فضائل الصحابة، بيروت : مؤسسـة الرسـالة، 1403 هـ / 1983م.

– الخطيب البغدادي، أبـو بكر أحمد بن علي بن ثـابت (ت 463 هـ / 1070 م).

13 – تاريخ بغداد، بيروت : دار الكتاب العربي، ؟.

– ابن خلكان، شمس الـدين أبو العبـاس أحمد بن محمد الإربلي (ت 681هـ / 1282 م).

14 – وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت : دار الثقافة، ؟.

– الخوانساري، محمـد مهدى بن صالح الكشوان الكـاظمي الموسوي (ت 1358هـ / 1939 م).

15 – روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان، بيروت : دارالكتاب العربي، ؟.

– الـدار قطني، أبـو الحسين على بن عمـر البغـدادي (ت 385 هـ / 995م).

16 – الضعفاء والمتروكون، الرياض : مكتبـة المعارف، 1404 هـ / 1984 م.

– الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الشافعي (ت 748 هـ / 1347 م).

17 – تذكرة الحفاظ، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ؟.

18 – سير أعلام النبلاء، تحقيق عبد القادر الارناؤوط وآخرين، ط 2، بيروت : مؤسسة الرسالة، 1401 هـ / 1981 م.

19 – ميزان الاعتدال في نقد الرجال، القاهرة : دار إحياء العلوم العربية، 1382 هـ / 1962 م.

– ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة بن عبيد النميري البصري (ت 262 هـ / 875 م).

20 – تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم شلتوت، جدة : دار الأصفهاني للطباعة، 1394 هـ / 1974 م.

– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الآملى (ت 310هـ / 922 م).

21 – تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة : دارالمعارف، ط 4 1399هـ /1979م.

– ابن عدي، أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني (ت 365 هـ / 975م.

22 – الكامل في ضعفاء الرجال، بيروت : دار الفكر، 14046 هـ / 1981 م).

– العقيلي، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى المكي (ت 322 هـ / 934 م).

23 – الضعفاءالكبير، تحقيق د. عبد المعطي أمين قلعجي، بيروت : دار الكتب العلمية،؟.

– ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276هـ / 889 م).

24 – المعارف، بيروت : إحياء دار التراث العربي، ط 2، 1390 هـ / 1979 م.

– ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت 774 هـ / 1372 م.

25 – البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة : مطبعة السعادة، 1351 – 1358 هـ / 1932 – 1939 م.

– محمد أبو الفضل إبراهيم،

26 – فهارس تاريخ الطبري، القاهرة : دار المعارف، 1399 هـ / 1979 م.

– ابن معين، أبو زكريا يحيى بن معين المري البغدادي (ت 233 هـ / 847 م).

27 – التاريخ، تحقيق أحمد محمد نور سيف، القاهرة : مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1399 هـ / 1979 م.

– ابن النديم : أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق البغدادي (ت 438 هـ / 1046 م).

28 – الفهرست، بيروت : دار المعرفة، 1398هـ / 1978 م).

– النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب (ت 303 هـ / 915 م).

29 – كتاب الضعفاء والمتروكين، تحقيق بوران الضناوي، بيروت : دار الفكر، 1405 هـ / 1985 م.

– أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت 430 هـ / 1038 م).

30 – الضعفاء، تحقيق د. فاروق حمادة، الدار البيضاء، مطبعة النجاح، 1405 هـ / 1985 م.

– النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف الحوراني الشافعي.

31 – تهذيب الأسماء واللغات، بيروت : دار الكتب العلمية، ؟.

– الواقدي، أبو عبـد الله محمذ بن عمر السـهمي المدني (ت 207 هـ / 822 م).

32 – فتوح الشام، بيروت : دار الجيل، ؟.

33 – المغازي، تحقيق مارسدن جونس، بيروت : عالم الكتب، ؟.

– ياقـوت الحموي، شهـاب الدين أبو عبـد الله يـاقوت بن عبـد الله الرومي البغدادي (ت 626 هـ / 1228 م.

34 – معجم الأدباء، بيروت : دار إحياء التراث العربي،؟.

الحضارة

مساهمة العرب
في تقدم الحضارة الإنسانية

د. علال الهاشمي الخياري
كلية الآداب و العلوم الانسانية

لما أشرق دور الاسلام في الارض، وجد العربي في هداية هذا الدين الجديد تلك القوة التي أعادت اليه مستواه العقلي والفكري والاجتماعي، وبذلك أصبح خلقا جديدا، يحس بالوحدة الروحية والسياسية بينه وبين أخوانه العرب في الجزيرة وفي الأطراف، وقد هرعت تلك الشعوب العربية الى الدخول في دين الله طوعا،ووجدت في نفسها الاستعداد والحنين الى البث الحضاري، والقيام من جديد بدورها الفكري والعلمي والإنساني.

وهكذا لم يمض على العرب المسلمين سوى وقت قصير، حتى أصبحوا سادة العالم، وذوي حضارة انسانية، وارفة الظلال، لا يعرف التاريخ لها مثيلا.

ومع مطلع فجر الخلافة العباسية، بدأ العصر الذهبي، حيث نشطت الحركة الفكرية والعلمية، وقام المنصور، وبعده هارون الرشيد والمامون، باستجلاب المؤلفات ونفائس الكتب الموجودة في خزائن الروم، أو في المكتبات الخاصة، وفتحت دار الحكمة أبوابها لاستقبال العلماء والمترجمين والطلبة، فانطلقت العقول من أغلالها، وأخذت الحياة الاجتماعية تنتعش وتعد بالإخصاب، ووجد العلماء الجوهرتين المفقودتين : التشجيع والحرية.

وبـدأ المترجمون ينقلـون الى اللغـة العـربيـة تلك الكتب والمؤلفـات في مختلف مجالات العلم، والتي كـادت تقضي عليها يـد الإهمال، ولم يشعر أبنـاء الشعوب العـربية بأي مـركب نقص إزاء هذه الترجمة من اللغـات الأخرى، فقد نسبوا الأقوال الى أصحابها، وكـان شعارهم الأمانة العلمية، والوقوف عنـد حدود الصدق في كل ما يقولـون ويكتبون، غير أن الرعيل الأول من المترجمين كـان قـد اقتصر في الانتـاج على اجترار مـا في الكتب المترجمةمن فلسفة وطب وفلك وكيمياء وريـاضة وهندسة، وغير ذلك، في حين أخذت تظهر على يد الرعيل الثاني إضافات جديدة مهمة، وبعد ذلك، قام الرعيل الثـالث بدوره العلمي في التصحيح، ونقد النظريـات وعرضها على محك التجربة والاختبـار. ثم إصدار المؤلفات في مختلف مجالي العلم، وفي أنواع المعارف الانسانية.

ونستطيع أن نـذكر هنا بعـض الاسماء، أمثال : ابن سينـا، والكندي، والفارابي والرازي، والغزالي، وابن رشد، وابن ماجة، وابن طفيل، وغير هم كثير.

والمهم الآن أن نعرف :

أولا : ماهو المنهج الذي سار عليه العلماء المسلمون في تناولهم للعلم؟ هل هو منهج يوناني، أم منهج مبتكر ؟

وثانيـا : ماهـو أثر المعارف العـربية الإسلاميـة على سير الحضارة الانسانية فـــي ذلك العصـــــر ؟

سؤالان مهمان، تبرز الاجـابة عليهما مدى القيمة الحقيقيـة للمعارف العربية، من جهـة، وماهو أثر تلك المعـارف على السير العادي للحضارة الانسانية من جهة أخرى.

أولا : المناهج

إن المهتم بالدراسات المقـارنة، ربما يكون متفقا معي على أن كثيرا من المذاهب العلميـة والفكريـة والأدبية قد تتفـق في المظهر والصـورة، ولكنها تختلف في المنهج والمنطلق، إذن، فدراسة المنهجية العربية الاسلامية تكتسي

أهمية خـاصة، سيما وأن نظـرية المعـرفة عنـد أبناء لغـة القرآن تتميـز بخصائص ومعطيات لا يشاركهم فيها أحد من أبناء الملل الأخرى.

ومن المعلوم أن اليونانيين قد اعتمـدوا في نظرية معرفتهم على القياس العقلي، واستعمال البرهان المنطقي، وقد توصلوا في مضمار العلم الطبيعي إلى نتائج هـامة في الطب، والريـاضيات والهندسة وغيرهـا، واعتبروا هذه النتائج بمثابة مقولات ومسلمات بنـوا عليها مقدمات منهجهم الصوري، غير أن هذا المنهج لايـميز في استعماله الشامل، وتناولـه في العـام، بين حقائـق الموجـودات في الخـارج، أي ما يسمـى بالعلـم الطبيعي، وبين حقائق الموجودات فيما وراء الحس، أي مايسمى بعلم الإلهيات، أوما وراء الطبيعة.

وإذا كـانت الفلسفـة هي أم العلـوم في ذلـك العهـد، فإن الفـلاسفـة اليونانيين خـاضوا غمار البحث في مسائل الطبيعيات وقضـايا الإلهيات، ولكن بمنهج واحـد، كـانوا يجرونـه حتى في مجال الفن المسرحي والنقـد الأدبى كما في كتاب «فن الشعر» لأرسطو، وقـد ظنه البعض غلطا في علم المنطق.

وجاء العلماء المسلمـون ليظهروا قصـور المعرفـة اليونـانية وفسـاد منهجهـا المنطقي والـريـاضي، من حيث شمـوليـة استعمالـه في عـالم المحسوسات وعالم المعقولات على السواء.

والواقع أن بعض البـاحثين المسلمين قد غرهم بريق المنهج اليـوناني، فنسجوا على منـواله – ربما بـدافع التحدي، وبحـاجة الخصـوم – رغم مخالفته لنظرية المعرفة الاسلاميـة، وعدم توفره على الشروط الموضوعية للبلوغ إلى اليقين، الذي هو غاية انسانية.

وكـان العـلامة ابن خلـدون – فيما أعلم – من السـابقين إلى التمييـز المنهجي بين حقائق العلوم، وبين حقائق ماوراء الطبيعة، حيث أوضح أن النتائج التي يتوصل اليها في العلم الطبيعي، عن طريق الاقيسة والحدود، وما ينبني عليـه من تصور السبب والعلـة إنما هي أحكام ذهنيـة، وكلية عامة، بيـد أن المطابقة بين تلك النتائج وبين ماهـو موجود في الخارج، لا تكون يقينيـة، إلا بواسطة الـدليل الحسي المبني على المشاهـدة والتجريب،

إذن فما الفائدة حتى من دراسة المنهج العقلي اليوناني، وهو لا يفضى بنا في علم الالهيات سوى الى الشك الذي كان أولا، بشهادة أفلاطون نفسه[1].

وعلى أي حال، فان المنهجية اليونانية لا تميز بين مواضيع استعمال الدليل العادي، والعقلي، والشرعي، وهذا مقام يحتاج الى تفصيل أكثر، ولكن نكتفي بالاشارة الى أن ادراك الاسباب والعلل في الموجودات الحسية، واستعمال القياس العقلي، بغية الوصول الى النتائج، من شأنه أن يفيد الجنس البشري، وذلك ما وكله الله الى فكر الانسان، وجعله سبب رقيه، ورفاهية حياته، وارتقاء حضارته، وحين أمرنا سبحانه بالبحث، واكتشاف سنن الطبيعة، تحقيقا لخلافتنا في الارض وتعميرها، لم يلزمنا باستعمال أي منهج عقلي أو تجريبي، بل هو حسب اطراد تقدم الفكر البشري في العلوم الطبيعية والتجريبية.

غير أن الفكر الاسلامي لم يكن يواجه في إطار منهجه السلفي فساد انتحال المناهج اليونانية فحسب، بل كان يواجه في الوقت نفسه عدة تيارات علمية واعتقادية، ظهرت في المحيط الاسلامي كنتيجة حتمية لاشتغال المسلمين بالعلم الطبيعي، وقد توصلوا في هذا المضمار الى نتائج هامة في الطب والرياضيات وعلم الطبيعة بصفة عامة.

ولبناء نظرية المعرفة الاسلامية على أسس صحيحة، يطمئن اليها العقل، ويؤيدها واقع التجربة والمشاهدة، فان المسلمين اهتدوا الى وضع مناهج خاصة بهم، لايشاركهم فيها أحد من أهل اللغات الاخرى، وهذه المناهج تتمثل في مصطلحات علوم الحديث، وعلم الاصول عند المتقدمين، ليس هذا فحسب، بل حتى بالنسبة لفلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، والقانون المدني والجنائي، وعلم السياسة والاقتصاد.

يقول أحد الفلاسفة الاروبيين : « ان القاعدة عند العرب هى : جرب وشاهد ولاحظ تكن عالما، وعند الاوربي ما بعد القرن العاشر الميلادي : اقرأ ما في الكتاب، وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما »[2].

---

1) مقدمة ابن خلدون. مطبعة مصطفى محمد – القاهرة – بدون تاريخ. ص : 515 وما بعدها.

2) تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا – الاستاذ عبد الله الجراري دار الفكر العربي ـ القاهرة – ط : 1 سنة 1380 هـ، 1961 م. ص : 35.

وفي ميـدان الاختـراع والاكتشـاف، فإن العرب سبقوا غيرهم من الامم في هـــذا الميدان، فقـــد صنعـــوا الســاعة وبت الابـرة، وعـرفـوا قانـون الجاذبيـة، وأثبـــتـوا علمـــيـــا دوران الارض، وقـالـوا بنظريـة التطـور والارتقاء.

وفـــي علم الحســاب ابتكـــروا الجبـــر والمقابـــلـــة واللوغارتمـــات، ووضعـوا علامـــة الصفـر، وطـوروا كتابـــة الارقـــام حتى أصبحـــت عـربـيـة.

ولهم في فن الطب والجراحـة اكتشـافـات تـدل على مبلغ علمهم، فقـد توصلـوا الى معرفة الـدورة الدمويـة، والتداوي بالطب الكهـرباءي، حيث استعملوا السمك الكهـرباءي المعروف بالـرعاد – "Torfille" كما نظموا الاجـازات العلمية لـلأطباء، واعتنـوا بالصحـة العموميـة الى درجةتظهـر عجزنا عن انجاز بعضها في الوقت الحاضر.

وفي الزراعـة مارســوا فن التطعيم وتصبير الفواكـه، وإثمار الاشجار والاغراس في غير إبانها. ويـدخل في إطار التمدين العام ما قـاموا به من وضع علامات الاميـال في طرقات السفر، وفتح طرق التجـارة، والدقة في الأوزان، وتسخين المنازل وتبريدها بـواسطة وضع قواديس متصلة داخل الجدران، وتبليط الشوارع وإنارتها، بينما باريس ولندن لم تعرفا هذا إلا في العصر الحديث. كما أحدثـوا فرق الكشفية لتربيـة الشباب، والعمل على نشر الفضيلة بينهم.

والجديـر بالملاحظـة أن اللغـة العربيـة كـانت لغة العلم والتجـارة في حوض البحـــر الابيض المتوسط، وفي أماكن نـائية من آسيا وإفـريقيا، لا توازيها في هذا الانتشـــار أية لغة أخرى، حتى إن "الفارو" كـاهن قرطبة قال :

"لقد نسي المسيحيون لغتهم، حتى ليندر العثور بين آلاف منا على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد اصـــدقائه رسالة لاتينية بأسلـوب لا بأس به، على حين ترى العدد الجم قـادرا على الابانة عما في نفسه بـأسلوب عربي خلاب، حين ترى حذقهم في قرض الشعر العـربي قد وصل الى حد فاقوا معه العرب أنفسـهم."

وقـــال أحـــد الاســـاقفـــة الفرنسيين بفـــرنســـا : "إن العـــرب علمـــوا المعاصرين فـــن الـــوزن الـــذي كان مجهـــولا في عهد الـــرومان واليـــونان الغابر"[3]

وهكذا تأثر الاوربيون في ميـــدان الادب والشـــعر والموسيقى بالحضارة العـــربية في الانـــدلس، وعنهـــا أخـــذوا في الشـــعـــر والموسيقـــى، وطريقـــــة وضـــع الاناشيد والاغانـــي، حتـــى إن شعـــراء جنـــوب فرنســـا المعروفـــين بكلمـــة

طروبا دور "Troubadours" كان شعرهم أشبه بالشعر العربي.

ثانيا : أثر المعارف العربية على الحضارة العالمية

إن العلماء الذين أشاعوا الحيـــاة في أوصال أوربا، وكانـــوا بمثابـــة الاشـــارة الخضـــــراء لانطلاق النهضة الحديثة، قـــد اقتبسوا علومهم من المدنية العربية والاسلامية، إما بـــواسطة الدراسة في الجامعات العربية، أو بـــواسطـــة الاتصـــال العـــادي بين الامم والشعـــوب كـــالحرب والتجـــارة – والسفـــارات والـــرحـــلات والهجـــرة وغير ذلك، إذن فـــالحضـــارة الأوربيـــة الحديثة كانت مبنية في انطلاقهـــا على أساس من العلوم العربية، حيث لم يكتـــف الاوربيون بترجمة الكتـــب العلمية والصناعية وندريبهـــا، أو التأثر بجو الادب العربي في ايقاعاته وسمو حكمته بل تجاوزوا ذلك الى الجانب الاجتماعي من الناحيتين النظـــرية والتطبيقية، وهو جـــانب ينبغي التركيز عليه، نظرا لأهميته وقوة فعاليته في بناء حضارة الشعوب، يقول الدكتور عبد الله المنصوري : " لقد أحدث الاسلام تقدما واسعا في أوربا بما لقنها من علم، في الوقت الذي كان فيه رجال الكنيسة ينظرون الى منتوج العلم، على أنه من عمل الشيطان".

في أوربـــا حيث خيم الســـحـــر، فإن المسلمين لم يطوروا في الـــدراســـات فحسب، بل تجاوزوا ذلك الى قـــواعد الأدب، وحســـن المعاشرة التي كـــانت المرأة الاوربية المستفيدة الاولى منها.

---

3) المصدر السابق.

إن عـالما متدينـا جدا، هـو الاستـاذ "بارطلـومي" قـد أخذ من هـذا انطبـاعه، حيث قـال : "العرب في تجارتهم وتقـاليدهم – وهم السـادة الجبـابرة في القـرون الـوسطى – كانـوا يلطفـون من عـادات فرسـانهم الخشنة، والفـرسان بـدورهم قد استمـروا في احساسـاتهم وهي أسمى حسنا، وأكرم نبلا، وأكثر إنسانية دون أن تضيع شجاعتهم ".

ومن المشكوك فيـه أن تكون المسيحيـة وحـدها، على الحالة التـي كانـت عليهـا، هي التي كانت تقوم بهذا، بل أن تلك الاحساسـات النبيلة مستوحات من العرب. وهكذا أيضا تكونت قوانين الفرسان.

يقـول بعض الغربيين :" لـولا الاسلام والعـرب لتأخرت النهضـة في أوربا قـرنا من الـزمن ولكن منـذ ألقى الغرب بنفسـه روحا ضـائعة في البحث العلمي، وامتلاك القوة أعلنها حربا عشواء ضد أساتذته القدماء.

ليس هـذا فحسب، بل نستطيع أن نثبت علميـا أن مشاعـل الثقافـة العربية كانت في يد مؤسس علم الاجتماع.

وعلى ذلك يمكن الحكم بأن الاوربيين قد استفادوا من المجتمع العربي أكثر بكثير مما استفادوه من الدين المسيحي في الاخلاق والمعاملات.

وكان أكثر ما يأخـذ بألبابهـم مـا يرونـه في العالـم الاسلامـي من تقـدم اجتماعـي وتنظيـم فـي الحساب والقضاء، وطرق التربية، ومكانة المرأة المسلمة، وقواعد السلوك، زيادة على المناهج الاقتصادية في التجارة، والملكية والارث.

ولكن الاوربيين، كما سبق أن قـال الاستـاذ فالـزر، مصـابون بـداء التعصب الاعمى فلا ينسبـون الافكار الى أصحـابها، وأكثر العلماء منهم لايقرون بالفضل لغيرهم من أبناء الشعوب الاخرى.

وإذا تجاوزنـا الفترات التاريخيـة السـابقـة الى قرب إطـلالـة العصر الحديث، فمن الانصاف أن نذكر أنه في الوقت الذي كانت الثقافة العربية تشـع اشعـاعاتها الاخيرة في الشرق، كان الشمال الافـريقي، وخصـوصا المغرب، يعيش نهضة فكرية، ويتمتع بتقدم محسوس في المجالات العلمية

والصناعيـة والاجتماعية والادبية، وناهيك بمثل الحسن الـوزان المعروف بليون الافريقي من رجال القرن السادس عشر.

ولكن نظـرا للصدمـات التي تلقـاهـا الشمال الافريقي، ابتـداء من رد هجمات الغـزو الاوربي، الى سقـوط الانـــدلس وإخـراج المسلمين منهـا، وانحســار الوجـود الاســلامي تحت تأثير الضربـات الصليبية، فإنـه لم يتمكن من استرجاع نفسه الذي استنزفته هذه الأحداث، حتى مني بصراع داخلي مرير، وتفكك في أوصاله الترابية.

في هذه الاثناء، كـانت أوربا تجمع كلمتها، وتتحفز للـوثوب والتوسع، لأنها أحست بـالبرء يسري في شرايين حيـاتها الاجتماعيـة والاقتصـاديـة والعسكرية، وأصبحت تمثل القوى الأولى في التجارة والصناعة.

والـواقــع أن أوربـا استفـادت من العلـــوم التي أخـذتها مــن العـالم الاسلامي، حيث كان للشمال الافريقي حصة الأسد في قيام نهضة أوربا الحديثة، بحكم موقعه الجغرافي المطل على البحر الابيض المتوسط، وساحل المحيط الاطلسي، فعن طريقه انتقلت الحضارة العربية، والثقافة الاسلامية، بما في ذلك الموسيقى، والشعـر، والأدب التربـوي الى اسبـانيـا وصقليـة، وبقيـــة الجـــزر فـــي البحـر الابـــيـــض المتـوسط، لتعم جميع أرجـاء أوربـا.[4]

وكيفما كان الحال، فإن الحضـارة الاوربية الحديثة والمعاصرة مـدينة للثقافة العربيـة في ميادين المعرفة الانسانية بصفـة عامة، حسب شهادة كثير من علماء الحضـارة والتاريخ والاجتماع الـذين يعتد بـرأيهم في هذا المجال.

وهـذه الحقيقـة تهيب بنـا، نحن أبنـاء الامة العـربيـة، لأن نكـون في مستوى العصر، ولكن في مستـوى الوضع الطبيعي الذي هيأتـه أمجادنا، ومـا يتمتع بـه الانسان العـربي في تطلع الى مكـان الصـدارة، والريـادة الفكريـة والاسهام بـالنصيب الأوفى في بناء حضـارة انسانيـة تجمع بين التقدم المادي والسمو الروحي.

---

4) عن مقال بعنـوان " دور الشمال الافريقي في الحضارة والفكـر الاهميين " الدكتور عبـد الله بعبو. مجلة جوهر الاسلام عدد : 8 ـ 9ـ10. السنـة العـاشرة. بتاريخ يـوليوز : 1394 هـ. 1974 م.

وتلك هي الحضـــارة التي يتوق إليهـــا الانســـان المعاصر، لتحـــرره من الافلاس الادبي والاجترار الفلسفي، وعبادة المســـاواة، تلك الحضارة التي تعيد الى الانسان كـــرامته وسعادته، في ظل تعـــاون أخوي سليم، وهي ما ينـــادي به المجـــددون والمصلحـــون، ومـــا ذلك على همة الشباب العـــربي بعزيز.

صـورة الحداثـة الاروبيـة
في الكتابات السفارية المخزنية
(الحداثة العسكرية نموذجا)

ذ. عبد السلام حيمـر
ثانوية النهضة ـ مكناس

ملخـص :

تتوخى هذه الدراسة إعادة بناء الصـورة التي استقرت فـي وعي كتـاب المخزن عن الحداثة الاروبيـة، بعد هزيمتي اسلي وتطوان. وذلك من خـلال تحليـل التقـارير التي دأب كتـاب البعثات السفـارية الى اروبـا على رفعها الى السـلاطين المغاربـة وكبار رجال المخزن ليكونوا على علم بمصادر قوة (الآخر) وبأوضاعـه الحضارية العامة.

من أين يستمد هذا الاخر قوته ؟ امن معتقـده الديني الذي يعرف الكاتب المخزني من ثقافتـه الفقهية انه بـاطل، أم من أشياء أخرى؟ مـا هي وما مقومـاتها؟ هل يمكننا اقتباسها منه دون مخاطر ؟ وقد انطلقت دراستي لتقاريـر الرحلات السفارية المخزنية التي لا يزال بعضها مخطوطا وبعضها لم يكتشف الا مؤخـرا (رحلة الجعيدي مثلا)، مـن فرضيـات اولهـا ان حديـث كتاب السفـاريـات عـن مقومات قوة الاخر يحتوي حديثا ضمنيا عن ضعف الأنا وسبل معالجته. وثانـي تلك الفرضيات ان كتاب المخزن – بتفاوت كبير فيما بينهم – وان كانوا قد فهموا عـددا من مقومات الحداثة الاروبية الا ان فهمهم ذلك ظل محدودا بحدود ثقافتهـم الفقهيـة بما فيه تصورهم الفقهي الثنائي للعالم من حيث انقسامه الى دار حرب ودار إسلام.

وتوصلت هذه الدراسة الى خلاصات منها :

1 – ادراك كتـاب المخـزن ان ((جيش النظـام)) جـزء مـن نظـام وحداثـة الدولة والمجتمـع الاروبيين، وان اساس ذلك النظام هو العقل وانتهـاج سياسـة عقلية، لاسياسة شرعية دينية، ومن ثم فلا ضرر من الاقتباس.....

2 – التبـاس موقـف كتـاب المخـزن مـن الحداثـة الاروبيـة (ومن الحداثـة العسكرية على وجه الخصوص) لاسباب ثقافية وضعتها هذه الدراسة.

3 – وجود تطابق بين اهمال كتاب السفاريـات لتعريب القوانين والنظم والمقررات الدراسية الغربية من جهة، واهمال المخزن – في سياسته التحديثية خلال النصف الثاني من القـرن 19 –لاقامـة مدارس عصريـة على النمط الاروبـي (في المجـالات العسكريـة وغيرها) يعمل فيهـا ومـن خلالهـا الافـراد العائـدون مـن البعثات الطلابية الى اروبا على نشر ما تعلموه من معارف ومهارات نافعة.

ما الصـــورة التي رسمها كتـــاب السفاريـــات – منذ هـــزيمة اسلي – للحداثة العسكرية الاوروبية، وما موقفهم منها ؟

لم يكن كتاب السفارات المخزنية يصفون مظاهر الحداثة الاوروبية – ومـــن ضمنهـــا الحـــداثة العسكريـــة – بـــدافع تعريـــف قرائهم المحتملـــين بـــ "الغـــريب والعجيب" من الظواهـــر والعادات وانماط السلوك المخـــالفة لمجتمعهم، بل كـــان دافعهم الاســـــاسي في ذلك، هـــو البحث فيما يـــرونـــه ويصفونـــه عن حلول لمشـــاكل الدولة المخـــزنية. ويمكن القـــول – بعبارة أخرى – إن تلك المشـــاكل هي التي وجهت أوصـــاف أولئك الكتاب الى أن تتجه وجهة معينة دون أخرى.

ولعل هـــذا ما يفسر الحيـــز الهام الذي احتلته المســـألة العسكـــرية، في مجمـــوع الكتابـــات السفاريـــة المخزنيـــة التي وصفت مظاهـــر ومقومـــات الحداثة الاوروبية.

ليست الحداثة العسكرية – في الكتابات السفارية المغربية – الا مظهرا من مظـــاهر حـــداثـــة الدولـــة والمجتمع الاوروبيين. ومن ثم، ربطت ربطـــا واضـــحا بين نظـــام الجيش، ونظام الدولـــة والمجتمع، لان الجيش النظامي الحديث هو عنوان قوة الدولـــة الاوروبية الحديثة التي اصبحت مطامعها الاستعمارية لا تخفى على أحد من أفراد النخبة المخـــزنية.لذلك نجد كتاب السفاريات يهتمـــون اهتماما خاصـــا بـــوصف ما يرونه أو يسمعـــونه عن الجيوش الاوروبيـــة أثناء تنقلاتهم بين المدن والموانـي ء الاوروبيـــة، وأثناء الاستعراضـــات العسكريـــة، وزيارات المصـــانع الحربية التـــي ينظمها لهم رجال الدولة المضيفة بهدف ارهـــابهم بالتفوق العسكري الاوروبي عددا وعدة وتنظيما.

في اطار هـــذا المنظور العـــام للكتابـــة السفاريـــة المخزنيـــة عن الحداثة الاوروبية في النصف الثاني من القرن 19 وبداية القرن العشرين، ارتأينا أن نحلل " المتن"[1] السفاري المخزني الذي خلفه لنـــا كتاب السفاريات

---

1) يتكون هذا المتن من الرحلات التالية :

– رحلة الصفار الى باريز : لمحمـــد بن عبـــد اللـــه الصفـــار، مخطـــوط الخزانـــة الحسنيـــة =

المخـزنيـة، محاولين ابـراز موقفهم مـن الحداثة العسكـريـة الاوروبيـة (بوصفه وجها آخر لموقفهم من تحديث الجيش المغربي)، وذلك من خلال تحليل العلاقة بين مفهومي :

– دولة / والجنـد، كما تبدت لنـا أثناء قـرائتنا لنصـوص " المتن " السفاري الهام.

– الدولـة والجنـد :

ليست الـدولة الحديثـة الاوروبيـة – كما وصفهـا كتاب السفـارات المخزنية – مجموعة أفراد وجماعات ترتبط بعلاقات شخصية مع الحاكم الـذي يجسد في شخصـه السلطـة، بل انها نسق من المؤسسات منظمـة تنظيمـا قانـونيا، يجعلهـا مجـردة متعـاليـة عن الاشخـاص – يقـول الصفار :

(اعلم أن من قـوانينهم أن يجتمعـوا كل سنة في القمـرتين، ويحدثـون قـوانين لم تكن أو يقرون مـا كان منهـا مـوجودا. ومن جملـة ذلك أنهم يقدرون جبايات العام، وما يصرف فيـه من بيت مالهم بموافقة السلطان وأهل الرأي منهم... ومن قوانينهم أن جعلوا ذلك الـداخل يدخل بيد وزير الخزنة أعنـي أمين بيت مالهم، ويخرج على يـد الوزراء جميعا كـل واحد ومـا يخرج على يده، وبيـان ذلك أنهم رأوا أن السلطان وحـده لا يستقل

= ـ رقـم 113. تحفـة الملك العزيز بمملكة باريـز لإدريس بن محمـد بن ادريـس العمـراوي (الذي نتمنى ان تتاح لنا فرصة تحليل موقفه في مناسبة اخرى).

– الرحلة الابريزية الى الديار الانجليزية لابي الجمال محمد الطاهر بـن عبد الرحمان الفاسي. تحقيق محمد الفاسي / سلسلة الرحلات، مطبعة جامعة محمد الخامس فاس 1967.

– تحفة الاخيـار بغرائب الاخبار لابي العـلاء ادريس الجعيدي، مخطوط الخزانـة الصبيحيـة بسلا (مخطوط خاص بدون رقم).

– التحفة السنية للحضرة الشريفة الحسنية بالمملكة الاصبانيولية لابي العباس احمد بن محمد الكردودي، المطبعة الملكية، الرباط 1963.

– رحلة الى انجلترا للحسن بن محمـد الغسال مخطوط الخزانـة العامة في مجمـوع تـحـت رقم 1496 .

– "الغصـون الكاسيـة فـي الرحـلـة الباريسيـة" للوزيـر عبـد الله الفاسـي مجلـة آفاق العدد 1سنة 1990.

بأمور الرعية كلها فأراحـوه من تكلف المشقة في ذلك، واتخذوا عدة أناس سموهم وزراء وكلفوا كل واحد بأمر خاص وجعلوا نظره قاصرا عليه).

يتحدث الصفار هنـا عن بعض المكونات الاساسية للـدولة الليبرالية الحديثة : المؤسسة البرلمانية، والحكومة، ورئاسة الدولة.

وإذا كان الصفارقـد وجد في قاموسـه الفقهي كلمات : "السلطان"، و"الوزراء"، و"أمين المال"، و"الـرعية" للدلالـة على : الملك، أو الرئيس، والحكـومة، ووزيـر المالية، والمواطنين، فإنـه تأرجح في تسمية المؤسسـة البرلمانية (لعـدم وجود ما يقابلهـا في مجتمعه) : فمرة آثر ادخـال اللفظة الفـرنسيـة (القمـرتين) في لغتـه العـربيـة للـدلالـة على البرلمان ومجلس الشيوخ، ومـرة استوحش تلك اللفظـة فنبذهـا لتسمية المؤسستين بأهل الرأي، من بين الوزراء التسعة، يذكر الصفـار وجود وزير الـكـرة، الذي يختص بتدبير الشؤون العسكرية لـدولته بعد أن تمكنه هذه الاخيرة من غلاف مالي من الميزانية العامة يكون أداة لذلك التدبير.

فيصرف (وزير "الـكـرة" ميزانية وزارته السنوية على "الفسيانس" والجنيرالات والعساكر داخل البلد وعساكر مدينة باريز).

كما يصرفهـا على المدارس والكليـات المتخصصـــة في ("تعليم علـوم البحـر ومهنـــه "وعلى رؤســاء السفـر والسفـن والمراكب) وعلى تجديـد العسكر، اذ أن الفرنسيين : (يجددون في كل عام ثمانين ألف من العسكر. ومن دخل في العسكـــر يجب أن يبقـى في الخدمـــة ثمان سنين ثم هـــو بالخيار).

يثير الصفـار النظر هنـا الى جـانب من جـوانب الحداثـة العسكريـة الاوروبيـة متمثلا في العمل بنظـام العقـود بين الجيش والمنخرطين فيـه، وعقود محددة في الزمـان يلتزم بموجبها المنخرط بأداءمهامـه خلال مدة العقد، وهي ثمان سنوات، عند إقضائها يبقى له الخيار في تجديد عقده أو عدم تجديده. واذا كـان الجيش الفرنسي الذي قابلـه المغاربة في اسلي على غاية من الترتيب والنظام، فليس ذلك اعتباطا أو مجرد صدفة. فوراء ذلك كلـه سيادة المؤسســات، وسيـادة القانـون، ووجـود تراتبيـة محددة في

الجيش، ووجـود ميزانيـة مالية مضبـوطة تمكن الحكـومة مـن وسائل تسيير أجهزة الدولة، ومن بينها : الجيش.

ما مـوارد هذه الميزانيـة : ؟

هذا السؤال كان يكتسي في مغرب القرن 19 وبداية العشرين – أهمية بالغة – فأعظم مشكلة كانت تؤرق السلاطين " الليبراليين " – بتعبير جان لوي ميج "Jean Louis Miège التواقين الى تحديث الدولة المغربية " كانت تتمثل بـالضبط في نذرة الموارد الماليـة – فتحديث الجيش وتحديث الادارة واستحداث أسطول بحري، وإرسال البعثات التعليمية الى الخارج، واستحداث صنـاعة عصرية. كـل ذلك يتطلب أموالا وفيرة، لايستطيع " بيت المال " الإيفـاء بها بسبب محدوديـة النظـام الضريبي الشرعي[2] وعدم امكانية تطبيقه على القبائل " السائبة "، و" الاجانب الاوروبيين " و " المحميين " المغاربـة، واعفاء فئـات من النخبـة المخزنيـة، كالاشراف والعلماء من أداء الضرائب، وحـرمان المخـزن من حريـة العمل التشريعي فيما يتعلق بواجبات الجمارك بمقتضى اتفاقيات دولية.[3] هذا بالاضافة الى مديونية المغرب لاوروبا، مديونيـة ابتدأت منذ هزيمة تطوان وتفاحلت على إثر اصدار قانون " الترتيب " العزيزي، وثورة بوحمارة.

واذن فـاشكاليـة تحديث الجيش، مـرتبطة ارتبـاطا وثيقـا بضرورة تحديث مـالية الـدولة. ولذلـك يهتم الصفار في "رحلتـه" اهتماما بـالغا باستكشاف موارد ومصادر الميزانية المالية للدولة الفرنسية التي تتيح لها امكانيات بناء العسكر النظامي الحديث.

بعد أن يخبرنـا الصفار بأنـه اطلع على ميزانيـة فرنسـا لسنة 1845 مطبوعـة في كتاب فسره لـه بعض المترجمين الفرنسيين، وبعـد أن يخبرنا

---

2) انظر عناصر هذا النظـام الضريبي في مخطوط (تعظيم المنة بنصرة السنة) ج 1 ص ص 175 /176 لاحمد بن خـالد النـاصري، مخطوط الخزانـة الصبيحيـة بسلا. ومن الـواضح ان جل الموارد المالية التي حددها النظام الضريبي الشرعي قـد تعطلت خلال النصف الثاني من القرن 19 اثر صدمة الحداثة الاروبية.

3) اهم تلك الاتفاقيات في هذا المجال : الاتفاقية المغربية البريطانية لسنة 1856.

بمقـدارهـا الاجمالي يحاول حصر مـداخيلهـا في [" الارض وخـراجهـا، وغـلال أراضي " البلك" و أكـريـــة " دور البلك " في ســائر الاقـاليم الفرنسيـة، وضرائب رخص فتح الحوانيت للبيع والشراء، وضرائب كتـابة عقـود الملكيـة (في كـاغط خـاص فيـه طـابع البلك "... ومكس الخمـر، وفابريكات السكر). التي بفرنسا "]... والاقتطاعات على الاجور والمرتبات والارباح التجارية والمداخيل المختلفة.

ويستمـر الصفار في تعـداد وجوه الضرائب والمداخيل الماليـة للدولـة الفـرنسية، تعـدادا دقيقـا وكأنه بـذلك يحاول افـادة أصحاب القـرار في المخـزن، بما يمكن أن يكـون حلولا " لمعضلـة " النـذرة الماليـة " التي يعـاني منها الامـرين. وفي تعداده ذلك، قـد لا تسعفه لغتـه للدلالـة على ظواهر غـريبة عن مجتمعه المغربي.فلا يتردد في ادخال الكلمـة الفرنسية ذاتها، في تعبيره كما هـــو الحال في "أراضي البلـك" و "دور البلك" و"فـابركـات السكر" الـخ... وعندمـا يلاحظ وجـود شبـه بين ظواهـر المجتمع الفـــرنسي ونظيره المغـــربي لا يتردد في استعمال المصطلحـــات المخـزنية التقليـديـة " كالقبـائل " والايـالـة " و"الخراج" أثناءوصفـه وتحليله لها، كما سنـرى. واذن نحن هنا أمام مـواجهة بين مجتمعين تتم من خـلال الكاتب الـواصف يكون الخطاب فيهـا عن الآخـر –كما أشرنا ســابقا – خطـابا ضمنيـا أو صريحا عن الانا، وفـرصة لممارســة وعي بالذات وبالاخر في آن معا.

وهكذا، فـان محاولة الصفـار تحديد العـلاقة بين مـداخيل ميـزانية فرنسا، ومصـاريفها تقوده إلى التحديد بواسطة المقارنة، فيقول الصفار : [" وليس لهم بيت مال يجمعون فيه المال كما عندنا، بل يقدرون الداخل والخارج، ويسوون بينهما أو يفضل الشيء اليسير، وان قصر الـداخل عن القيام بالخارج، استنبطوا وجوها أخر للداخل حتى يكون فيه كفاية قيام بـــالخارج، وان فضـــل من الخارج كثيرا اسقطـــوا البعض مـــن وجـــوه مـداخيلهم. وسمعنا عنهم في هـذا العام أنهم أسقطـوا عن قبائل إيـالتهم خـراجـا كانـوا يؤدونـه، لان مدخولهـم الآن صاريفي بالخارج ويفضل منـه "].واذن فهناك نظـام في مـالية الـدولة، قـائم على أســاس التقديـر

والإستنباط أي على أساس العقل. ولا يستطيع أي أحـد من رجال الدولة – بمقتضاه – أن يتلاعب بالمال العمومي، لان قانون المالية " ونظامها " انما يضعه نواب الامة، وهم المكلفون بمراقبة تطبيقه تطبيقا سليما. يقول الصفار : [ولا يستطيع رؤساء الدولة أن يخفوا شيئا من ذلك أو يزيدوا فيه أو ينقصوا منه من قبل أنفسهم، لأن أهل القمرة الصغيرة وهم وكلاء الرعيـة أول ما يبتدئون به في القمـرة أنهم يحاسبون الدولـة على الداخل والخارج في العام الفارط "].

وإذا ما استحضرنا تلاعب القواد والامنـاء ونظار الاحباس بالمال الذي يجمعـونه من الضرائب والعـائدات المخـزنية في مجتمـع ما قبل الحمايـة بغـرض الاثراء الشخصي السريع على حسـاب الـدولة، نعـرف لماذا اهتم الصفار بآليات المراقبة على رجال الدولة في المجتمع الفرنسي الحديث. ولما كانت محاسبـة "مجلس نواب الامـة " للسلطة التنفيذيـة قائمـة، وكانت القرارات الماليـة تؤخـذ بصفة جماعية يسـودها الاحتكـام الى نور العقل، وضوابـط القانون، فإن العـدل يتحقق في المجتمع مما يشجـع افراده على التنافس في أوجه الكسب فتكثر أموالهم فـلا يتأثرون أيما تأثر بالضرائب والجبـايات المفـروضـة من طرف الـدولـة. ولـذلك يقول الصفـار ["لا يستغرب وجود هذا المال عنـدهم، فان مالهم كثير لحرصهم على التكسب وجمع المال، ولا اهتمام لهم الا بـه، وكل وجه مـن وجوه مـداخلهم كثير الفائدة من تجارة وصناعة وزراعة وغير ذلك، لأنهم يضبطون أمورهم في ذلك غـاية الضبط حتى أن عنـدهم من اخترع صنعة لا يـزاحمه غيره في عملها، ومن ظهرت على يده مزية من صناعة أو تجارة أو زراعة أو غيرها أعطوه عليها العطاء الجزيل. "].

ويستشـهد الصفار على حسن نظام الفرنسيين واجتهاداتهم العقلية في المجال المالي قصـد " تكثير الأموال "، باستحـداثهم الاوراق البنكية التي تقوم مقام " سكـة الدراهم والدنانير" مبينا مزايـاها في تسـهيل المبادلات التجـاريـة و" بـالبنكـة – التي يقـول عنهـا الصفـار إنها " من أعظم مكـاسبهم "، و"بـالمضـاربـات في البـورصـة "... ولـذلك لا يتضرر الفرنسيون من الضرائب التي يسميها الصفـار، العالم الفقيه، " مكوسا".

وقـد لاحظ الصفار أن ببـاب باريـس [" حراس وعسكـريون واقفـون يفتشـون كل من دخل أو خـرج لاجل المكـوس التي تؤخـذ ممن يـدخل للمدينة ويخرج منها بما يماكس عليه عندهم "]. كما لاحظ أن [" أعظم ما تؤدى عليه المكوس عندهم الخمر حتى جعلوا له ديوانة مخصوصة في ناحية على حـدتها "]. بيد أن هذه المكوس إنما تدخل في تكـوين ميزانية المدينة فتصرف في [" تعديل طرقها، وايقاد الفنارات بها، وهي عندهم في كل بلد... ويصرفون أيضا هذه المكوس على اسبيطارات المرضى ومدارس تعليم أولاد الفقراء، وغير ذلك من مصالح البلد "].

واذا كـان الحراس والعسكر، هم المكلفـون بمكـوس أبواب المدن، فـان أنواع الجبايات المالية التي تجمعها الدولة من نشاط المجتمع الاقتصادي والمالي، هي التي تمكنها من تكوين الجيش المنظم المرتب وتجهيزه بأحدث أنواع الاسلحة والعناية بلباسه وقوته، ومسكنه، ونظافته، وسلوكه، حتى يكون في أتم الاستعـداد لحفظ الامن والنظام في المدينة والمجتمع، والـدفاع عن الامن ضد أعـدائها. فقد سجل الصفار وجود عـدد من " القلعات " المحيطة بباريس ["يسكنها العسكر، وفيهـا أبراج المـدافع، وبهـا يسكن الطبجيـة، لهم بها بيـوت عديـدة فيهـا فـرشهم وأسلحتهم وبها بيـوت وخـزانـات لانواع السـلاح في أحسن صـورة في نظـافة وضعـه وكيفيـة إنزاله "].

وبعد أن يذكر الصفار العنـاية الهامة التي يحيط بها عسكـر الطبجية [" الخيل التي تجر المدافع وألاتها "]، يسجل حـرصهم على أن يكـون بباب الاصطبل، [" لوح مكتوب فيه قانون سياسة الخيل، ومقدار علفها وغير ذلك مما يتعلق بمباشرتها "].وهكذا لا يفلت مجال من مجالات حياة المجتمع، بما فيه الاعتنـاء بخيل سلاح المدفعية، من سيادة القـانون الدال علي حسن الترتيب و"النظـام". ولم يحرص الصفار على وصف سـلاح المدفعية عبثا، فقد كان المغرب في أمس الحاجة الى اقتباسه من الفرنسيين بعد هـزيمة اسلي، وكان في أمس الحاجـة أيضا الى سلاح البحريـة الذي افتقر اليه للدفاع عن موانئه منذ أن قام المولى سليمان بتصفيته خوفا من أن يـورطه في نـزاع وخيم العواقب مع الاوروبيين. ولـذلك نجد الصفـار

يفرد للبحرية الفرنسية وصفا دقيقا، كما رآها أثناء زيارته لمدينة تولون التي يقول عنها بأنها ["مأوى عساكرهم البحرية، ومرسى سفنهم الحربية "]. وبعد أن يذكر وجود مصنع للسفن الحربية بما سماه بالطرسنة "، يصف أحد السفن الحربية الضخمة التي ينتجها ذلك المصنع عندما زاره بطلب من أحد الضباط الفرنسيين.

وقد حرص الصفار على تسجيل اعجابه الكبير بما رآه في " البابور فيرسال " :[" من الطبجيات والمدافع وسائر آلاتها وإقامتها، ومن العساكر وترتيبها ووضع الاشياء في محلها، واسراع من به لاجابة أمر كبيرهم، وطاعتهم له، ومن الاتقان والحزم والضبط ما ينبيء عن عظيم قوتهم، وحدة عقولهم، وحسن إعدادهم وتدبيرهم واستعدادهم للامور قبل أن تنزل بهم "]. ومن ثم فإن مبدأ قوة البحرية الحديثة تتمثل في نظام الطاعة والانضباط، وحسن الترتيب والتنظيم، وحدة العقل والتبصر بمجريات الامور قصد التحكم فيها، والاستفادة منها. وهي معاني متعددة يمكن ادراجها في معنى واحد هو "النظام".وهذا "النظام" لا يتجلى في الهيكلة التنظيمية للجيش في حالة سكونه، بل انه يتجلى أيضا في حالة قيامه بوظائفه أي في طريقة حربه وقتاله. وفي هذا المعنى يقول الصفار واصفا أسلوب قتال البحارة الفرنسيين : [" والحاصل كل واحد منهم له شغل معين لايفعل غيره، وكل طائفة لها مدفع معين لاتباشر الا هو، فإذا صاح به كبيره فلا يحتاج أن يأتيه ويقف ويقول له ما أفعل، أو يذهب اثنان لأمر واحد يقوم به واحد وحده، أو تذهب جماعة لمدفع واحد ويبقى الأخر لا يذهب اليه أحد لأن ذلك كله عطلة وهو خلاف الحزم، فبمجرد ما صاح بهم كبيرهم المذكور جاءوا وجبدوا المدافع من طيقانها، وعمروها وأخلوها في لحظة كأن ذلك كله فعل رجل واحد، ثم عادوا أيضا وعمروا تلك المدافع كلها وأخلوها في لحظة. ولا تسمع مدفعا واحدا انما تسمع كالرعد المتتابع، ثم عادوا، وعادوا، وكل ذلك في أسرع زمان، وذلك كله على الضبط والحزم والاعتناء التام، وعدم الغفلة بالأمور "].

وهكذا فاذا كان أسلوب قتال البحارة يقوم على أساس التخصص وتقسيم العمل تقسيما دقيقا، فان ذلك لا يؤدي الى " الفوضى "

و" التشتت "و " التشرذم "، بـل انـــه يفضي على العكس مـن ذلك إلى التكامل و" النظام " : بحيث تصير الاعمال المتمايزة التي يقوم بها أفراد الجيش، أثناء القتال، وكأنها تصـدر عن " فعل رجل واحد ". ولا يتمالك الصفار نفسه وهو يصف أسلوب قتـال هذا الجيش من أن يبدي إعجابه واندهاشه قائلا : [" والله ! فليست لهم قوة بأبدانهم ليست لغيرهم، بل ربما كانـوا أضعف من غيرهم في ذلك، انما الـذي لهم : الاعتناء والترتيب الحسن، ووضـع الاشيـاء في محلهـا، ويبنـــون أمـورهم كلهـا على أصح أساس، ويستعدون للامور قبل وقـوعها"]، وكأن الصفار يعرف أن من بين قرائه من سينكر عليـه هذا الاطراء للحربي الكافـر، لذلك نجده ينهي كلامه قائلا : (ولا يعرف حقيقة ذلك الا من شاهده).

لا يكتفي الصفـار بهذا الاعتراض، على اعتراض مفترض لمتلق محتمل، بل انه يجاهـر بعد ان حضر استعراضـا عسكريـا نظمه نابليـون الثالث (مبالغـة في اكرامنا – يقول الصفـار – والاعتناء بنا ظاهـرا... وزيادة في تبكيتنا والتنكيت علينـا باطنا) يجاهـر باعجـابه بجيوش العـدو الحديثة وينتقد بمـرارة انحلال الجيش المغـربي وضعفه. فبـالرغم من كفـر هذه الجيوش الحديثـة، فان قوانينهـا عادلـة وسيرتها مرضية لانبنـائها على ضـوابط العقل الـذي لا ((نظـام)) الا به. يقـول الصفـار بحس نقـدي عقلاني وكانه يساجل رأيا سائدا في المخزن مفاده ان غلبة الجيوش يكون بقـدر مـا يحصل لافرادهـا من ايمان صحيح لا بقـدر تنظيمهـا تنظيما حديثـا محكما :((وهكذا حتى مروا عن أخـرهم، ومضوا وتركوا قلـوبنا تشتغل نـارا لما رايناه مـن قوتهم وضبطهم وحـزمهم، وحسن تـرتيبهم ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الاسلام وانحـلال قوته واختلال امر اهله. فما آحـزمهم وما اشد استعدادهم، ومـا اتقن امورهم، واضبط قوانينهم وما اقدرهم على الحروب، ومـا اقواهم على عدوهم لا بقلوب ولا بشجـــاعـة ولا بغيرة على ديـن... انما ذلك بنظـامهـم العجيب وضبطهم الغريب، واتباع قوانينهم التي هي عنـدهم لا تتخرم، ان صدرت عن واحد منهم زلة اجروا عليـه شريعتها سواء كان رفيعـا او وضيعا، وان ظهرت لاحد منهم مزية ارقوه درجتهـا، لا يطمع احد منهم في غير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده ان ينزع منـه. فعلى ذلك يبذلون مهجهم في المعارك،

وياقـون بانفسـهم في المهالك. ولو رايت سـيرتهم وقـوانينهم لتعجبت منها غايـة العجب مع كفرهم وانمحـاء نور الايمان من قلـوبهم. وما راء كمن سمعا.)

وما رآه الصفـار وعاينـه، ان سبب تفوق الجيش الفـرنسي كامن في (نظامه العجيب وضبطه الغريب وسيادة القانون على جميع افراد الجيش بل المجتمع كلـه، الامـر الـذي يؤدي الى انتشـار العـدل والامن واطـلاق الطاقات الابـداعية المختزنة في الناس من عقـالها لفائدتهم وفائدة المجتمع كافـة.واذا كان الامر كذلك، فـان ذلك النظام ملك مشاع للبشريـة جمعاء، مـادام لايـرتكز على ديـن بعينه ويحق لكـافـة الشعـوب –مهما اختلفت ديـاناتها – ان تقتبسـه. وهكذا لا يصبح ((النظـام)) دالا على ((الجيش الحديث)) فقط الذي يتمنى الصفـار اقتباسه، بل يتسع مدلـوله ليصدق على ((دولة القانون)) وعلى المجتمع الراسمالي الحديث.

وبالرغم من بعض الخجل والحذر والخوف، فـان الفقيه الصفار– ويا للمفارقة – هو اكبر داعية الى الاخذ بالحداثة الاروبية في المجال العسكري وفي غيره، وهو اكثر من غيره استيعابا لمقوماتها. ولعله في ذلك كله اشبه ما يكون بـرفاعة رافع الطهطاوي الذي كان الصفـار قد اطلع على رحلته "تخليص الابريز " قبل أن يزور باريس سنة 1845.(4) والظاهر أن رحلة الطهطـاوي كانـت مشهورة في أوسـاط كتـاب المخزن بـدليل أن الكـاتب ادريس بن محمد بن ادريس العمراوي، كان هـو الآخر مطلعا عليها قبل زيارة باريس في وفد سفاري سنة 1860.(5)

وكان الصفار وابن ادريس أكثر كتاب السفاريات الى أوروبا استيعابا للحداثة الاوروبيـة، وأكثرهم فهما لمقوماتها، وأكثوهم حماسـا في الدعوة الى الانفتاح عليها والاقتباس منها.

---

4) يقول الصفـار (وذكر الرفعة افنـدي برحلته ان محيطها (بـاريز) سبعة فراسـخ، وكـان طال مكثه بها نحو خمس سنين). رحلة الصفار : مصدر سابق ص 54.

5) يقول ابن ادريس في تحفة الملك العزيز ص 60 طبعة مؤسسة التغليف والطباعة طنجة 1989 ما يلي (وكـراء الدار تابع لثمنها...فقـد كنت كذبت في ذلك حتى رايته مذكـورا في رحلة الشيخ رفاعة المصري).

ولعل خبرتهما بشؤون الدولة، وتمرسهما بصعوباتها، هو ما جعلهما أكثر كتاب السفاريات عقلانية وانفتاحا علي الحداثة الاوروبية.

أما الكتاب الذين وصفوا مظاهر تلك الحداثة سواء كانوا معاصرين لابن ادريس كأبي الجمال الفاسي، أو الذين أتوا من بعده كالكردودي وادريس الجعيدي والغسال، فانهم كانوا أقل فهما واستيعابا لما شاهدوه ووصفوه أثناء سفارتهم بالرغم من اعجابهم وانبهارهم بمظاهر حداثة أوروبا، ومن ضمنها حداثتها العسكرية.

من ذلك، أن أبا الجمال الطاهر الفاسي يحدثنا منذ الصفحات الاولى من "الرحلة الابريزية الى الديار الانجليزية "عن وجود [أزيد من مائة بابور...معدة للكرة"] ببور صموت وحدها، محاولا اعطاء فكرة لقرائه عن قوة انجلترا العسكرية... هذه القوة التي ستتحدد ملامحها بصورة أفضل في وصف الطاهر الفاسي لاستعراض عسكري حضره الى جانب الملكة فكتوريا بالاضافة الى مناورة حربية تمت بالمناسبة...

يذكر الطاهر الفاسي أن الانجليز أحدثوا – بسبب عداوتهم مع الفرنسيين – عسكرا خاصا بمدينة لندن وحدها يصل عدده الى مائة وعشرين ألفا، اختير جنوده من بين " أعيان المدينة ". ولعل ما جعل الطاهر الفاسي يذكر الاصل الاجتماعي لهذا الجند هو تذكره للتجربة الفاشلة الاولى التي قام بها المخزن في مجال تحديث الجيش المغربي حيث نفر من الانتظام في " الجيش المستحدث " أعيان الأمة.

ويلفت الطاهر الفاسي انتباه قراءه من رجالات المخزن، الى أن فئة التجار هي التي تتكلف عادة بمؤونة ذلك الجيش أما في أيام الحرب فان الدولة هي التي تتكلف وحدها بتوفير حاجياته المختلفة... واذن، ليست الدولة وحدها المعنية بأمورالجيش، بل فئة التجار أيضا – ولعل هذه الفكرة هي التي انتشرت بعد هزيمة تطوان وجعلت الناس يفكرون في أن المال الضروري لتحديث الجيش، ودفع غرامة الحرب للاسبان، يجب أن يدفعها التجار المغاربة من مالهم " الا أن المخزن استبعد هذه الفكرة نظرا

لتأخر البـورجوازية التجاريـة المغربية انئذ وعـدم قدرتها على المساهمة الفعالة في تمويل مشروع التحديث العسكري.

وبعد أن يصف تمثال القائد العسكري Willington واحتفال الانجليز به نظرا لدوره الحاسم في الحاق الهزيمة بنابليون بونابارت بمعركة واترلو، مذكرا بتحـالف الانجليز والنامسا ضـد فرنسا، ينتقل الطـاهر الفاسي الى وصف استعراض الملكـة للجيش حيث تتابعت صفوف العساكـر منظمة مـرتبـة : صفوف الموسيقيين العسكـريين أولا ثم صفـوف المشـاة أو " العسكر الـرجلي "، ثم الموسيقيين، يليهم جيش الفـرسان (أو الخيـالة). ولما كان اعجـاب الطاهـر الفاسي بنظـام هذا الجيش كبيرا، فقـد أطنب في وصف ملابســه وأسلحته وآلاته الموسيقيـة وأسلوب حركتـه، منتهيا الى القول بأنه رأى في هـذا الاستعراض : [" ترتيبا عجيبا، وأسلوبـا غريبا، ربما اندهش رائيه، وهـال بغتة ملاقيه"] –وفي الاستعـراض الثاني الذي نظمته الملكـة فكتوريـا على شرف السفارة المغربيـة، رأى الطاهـر الفاسي جيش المدفعية الانجليزية فوصفه وصفا يقارب وصف الناصري للجيش الاسباني أثناء تأريخه لحرب تطوان... يقول الطاهر الفاسي :[" كل ألف من هذا العسكر يتبعه عـدد من المدفع، محمول على كراريط، تجرها خيل جياد، وتتبعها أيضا كراريط خاوية، بقصد حمل الجرحى والقتلى،... وكل واحد من هذا العسكـر حامل لفراشه، وآنية أكلـه وشربه وزاده،...] وبعد أن يصف وصفا دقيقا مناورة عسكرية قام بها هذا الجيش أمامهم يعتذر الطاهـر الفاسي عن ذهـوله أمام التفـوق العسكري البريطـاني معللا ذلك التفوق الساحق باعتنـاء الامة البريطانية باصلاح أحـوال دنياها، وترتيب أمورهـا ترتيبـا محكوما بقـوانين وضوابط...، منتهيـا الى الاحتماء بآلية التبريـر قصـد حفظ التـوازن النفسي الـذي اختل بسبب مـارآه وسمع... يقول الطـاهر الفـاسي : [" والحاصل أنهم – دمرهم اللـه – يستعملون أشياء تدهش، سيما من رأى فجأة، وربما اختل مزاجه من أجل ذلك، ولا حول ولاقوة الا بالله العلي العظيم، كيف تحيلوا على اصلاح دنياهم، حتى ادركوا منها مناهم، واستعملوا لـذلك قوانين وضوابط، وفي كل ما يقربهم منهـا ضوابـط، وفيه إشـارة الى أن طيبـاتهم عجلت لهم، وذلك نصيبهم

وحظهم، وفيه اشارة أيضا الى أن الدنيا لاتزن عند الله جناح بعوضة...والله يحفظ بيضة الاسلام، ويحميها من كل مكروه".].

فلو كانت الدنيا ذات قيمة، لما حبى بها الله الكفار، ولحبى بها عباده المسلمين المومنين !!. وهذا ما جعل الطاهر الفاسي يصيح في مكان آخر معلقا على التفوق التكنولوجي البريطاني بأن [" الدنيا سجن المومن، وجنة الكافر"]، وبأن [" النصارى حرموا جنة الاخرى، فأعطاهم الله جنة الدنيا بستانا متصلا من البحر المحيط بالاندلس، الى خليج قسطنطينية".].

وعندما زار الطاهر الفاسي مصنع الاسلحة الذي يصنع في كل شهر من المدفع أربعمائة، ومن الكور الكبير والمتوسط والصغير في كل جمعة عشرون ألفا " ويستخدم ستة آلاف عامل، عبر عن إعجابه قائلا : ["والحاصل، أنهم أتعبوا أنفسهم أولا في إدراك المسائل النظريات، وكابدوا على تحصيلها حتى صارت عندهم ضروريات، ولا زالوا يستنبطون بعقولهم أشياء كثيرة..."].

وإذن، فمصدر تفوق الانجليز في الشؤون العسكرية، كما في الشؤون المدنية، هو العقل، اذ أنه مصدر " النظام " وحسن الترتيب، واستنباط الضوابط والقوانين... بيد أن العقل المقصود هنا هو " العقل الظلماني " الذي هو أدنى مرتبة من " العقل النوراني"...ذلك لان الاول مخصوص بادراك الماديات، والثاني مخصوص بادراك أسرار المعنويات والروحيات. الاول طريق الكافر، والثاني منهج المومن.

يمثل الطاهر الفاسي نموذج المثقف المخزني التقليدي الذي لا يجد بدا من أبداء الاعجاب بالحداثة الاوروبية كما رآها في الجيش ومرافق الحياة الاجتماعية البريطانية... بيد أنه يعرف أن اظهار هذا الاعجاب قد لا يروق لبعض قرائه في الاوساط المخزنية السائدة، فقد يرون فيه مروقا عن قيم الدين، ولذلك يترافق لدى الطاهر الفاسي ابداء الاعجاب بالحداثة الاوروبية، مع اظهار تشبثه بالقيم الدينية التقليدية قصد صرف الشكوك في صحة تدينه وايمانه. ويظهر من خلال تعليق الطاهر الفاسي ومواقفه

المعلنة أنه أكثر كتاب السفاريات المعـروفة في هذه المرحلة تقليدية. ولربما كانت ثقافتـه ومستوى تعليمه العام لا يـرقى الى مستوى الصفار، وابن ادريس، والكردودي مثلا، ولا يشذ موقف أبي العلاء ادريس الجعيدي في تحفة الاخيار بغرائب الاخبار " عن مـواقف أسلافه من كتاب المخزن، فقد وقف الاعجـاب والانبهار أمام مظـاهر الحداثة الاوروبية، عسكـرية ومدنية، كما تجلت له أثناء زيارته لفرنسا، وبلجيكا، وبريطانيا، وايطاليا. وكان الجعيدي خلال زيارتـه تلك، حريصا على تسجيل كل ما كانت تقع عليه عيناه من مظاهر الحداثة تسجيلا دقيقا، وفي عين المكان... فكثيرا ما كان يـزور المصانع العسكـرية، والمنشآت الاقتصـادية المدنيـة، والمتاحف والقصـور، والمؤسسـات الثقـافيـة كـالمسرح والسينما، وهـو يحمل قلما وورقة يصف بها كل مـا رآه وسمعه، وكثيرا ما كـان يستعين في وصفه بالخطاطات والرسوم

الايضاحية التي حرص أثناء كتابـة رحلته – بعد العودة الى الوطن – على تسجيلهـا في هـوامش " تحفـة الاخيـار". وكأنـه بـذلك يحضر "وصفـات" مطـابقـة لما رآه من آلات ومنشآت، تسهل على المخـزن اقتباسهـا وانتحالها. بيد أن هذا الاعجـاب بالحداثة الاوروبية وإطـراءها سرعان مـا يتحول لـدى الكاتب الى خـوف شديد مـن أن تفهم الأوساط المخزنية التقليديـة المنغلقة اطراءه على أنه اعجاب بمنظومـة القيم الدينية النصرانيـة، وإعـلاء من شـأن " المخـزن " النصراني وحط من شأن " المخزن المغربي ".

والقـاريء لمخطـوط " تحفـة الاخيـار" يـلاحظ أن " الحداثـة العسكـريـة...، قـد أخـذت قسطـا هـامـا من اهتمام أبي العـلاء ادريس الجعيدي.

لا يهتم الجعيدي بوصف وتحليل كيفيـة تكوين " الجيش الحديث " على غرار الصفار وابن ادريس، لان "جيش النظام" كان قد استحدث في عهد السلطـان محمد بن عبـد الرحمن، فأصبح المشكل المطـروح في عهد ابنه الحسن الاول يتمثل في ايجاد السبل والـوسائل لتطـوير ذلك الجيش عـددا،وعدة، وتجهيـزا، وتـدريبا... ولهذا السبب نجـد الجعيـدي يركـز

اهتمامه اكثر من سابقيه على وصف مصانع الاسلحة [" من مدافع حديثة، وكور، وقاذفات تحت مائية لتدمير السفن، ورشاشات، و" مكاحل" حديثة متطورة"...]، وعلى وصف المدارس العسكرية (أو سكويلات العسكر بتعبير الجعيدي). أضف الى ذلك أن السلطان الحسن الاول أرسل بعثته السفارية (التي كان الجعيدي كاتبا لها) الى أوروبا لانجاز مهمات منها استطلاع سوق الاسلحة الاوروبية قصد التزود منها بما يسد حاجيات المخزن في مجال التسلح العسكري.

ففي فرنسا، زار الوفد المغربي عددا من المنشآت العسكرية : فبعد زيارته [" لقشلة فيها المرضي من العسكر من وقت حروبهم مع الروسيا"] واطلاعه على قبر نابليون بونابرت الذي رأى فيه الجعيدي دليلا أخر على " تفوق الواحد القهار "، زار الوفد متحفا لانواع الاسلحة [" قبل ظهور البارود " و " حين ظهور البارود "] لكي يأخذ فكرة عن مسار تطور صناعة الاسلحة في فرنسا والعالم. ولما كانت بروسيا قد وحدت الامة الالمانية بعد الحاقها هزائم بفرنسا في السنوات القليلة التي سبقت زيارة الوفد المغربي لفرنسا، فان أثر هذه الحروب كان باديا في المتاحف العسكرية الفرنسية نفسها، كما أن الوفد المغربي استوعب من ذلك أن قوة عسكرية أوروبية أخرى وهي المانيا قد ظهرت، وأن المتاحف العسكرية تلعب دورا هاما في البحث التكنولوجي العسكري. يقول الجعيدي في أثناء وصفه لمصنع فرنسي ينتج الرصاص والقذائف، ويضم معرضا لانواع الاسلحة :

[" وفي بيت آخر كورة صغيرة مستطيلة على هيئة الجوزة الكبرى – وقد رصفت بمسامير قيل هي مما كان يرمي عليهم البروصيا، وأن واحدة نزلت في طريق طويل عريض وتفرقعت هناك فقتلت خمسين منهم، وطفيت الفنارات التي كانت في ذلك المحج، وسقطت سراجيمه، وأصاب طرف منها : [" الجلنار " كان مع السلطان في كروصة فقتلته. وهكذا ذكر ترجمانهم ثم (انتقلنا) الى بيت آخر وجدنا فيه عينات من المكاحيل مهما ظهرت عينة جديدة عند جنس من الاجناس يوتى لهم بها بعدد منها، فيسلمونه للمعلمين المهندسين يختبرونها ويقلبونها،

ويخبرونهم بما يظهر لهم منها"]، وفي نفس هذه " الدار " عاين الوفد لاول مرة البنادق الاوتوماتيكية التي استحدثها الفرنسيون، حرص الجعيدي على وصفها باعجاب كبير بقوله :

["...وبينوا لنا عينة أحدثها الفرنصيص، يفتح خزنة الجعبة، ويجعل فيها ثمان عمارات من البارود، فتكون العمارات مدفونة في طول السرير قرب رأس الجعبة الى الخزنة، فاذا تمت عمارتها يجذب القرص فتخرج العمارة الاولى، وبنفس خروجها تدفع جعبة السلك العمارة الثانية الى الخزنة ثم يفتحها فتلفظ الخزنة الجعبة التي كان فيها البارود وتطير منها... وعند ذلك تستقر العمارة الثانية في الخزنة في موضع التي خرجت برجع السلك لها الى الخزنة، وهكذا العمل بها حتى تخرج العمارات الثمان"، قيل انهم يدركون بهذه العينة خروج أربعين عمارة في الدقيقة الواحدة "].

وكما جرت به العادة، حضر الوفد المغربي استعراضا نظمه رئيس الجمهورية الفرنسية في باريس، واذا كان الجعيدى قد حرص على وصفه وصفا دقيقا، فان مفعوله النفسي في الجعيدي وصحبه، لم يرتق الى المستوى الذي رأيناه لدى الطاهر الفاسي، قبله بسنوات... فما أثاره في منظر هذا الجيش : هو نظامه الناجم عن توزيع أفراده الى : مشاة / وخيالة / ومدفعية / وموسيقيين وتوزيع كل هذه الاسلحة الى فرق منظمة تنظيما تراتبيا...

فبعد أن يصف الجعيدي جيش المشاة الذي استعرضه " كبير الدولة " موزعا الى فرق، كل فرقة مسبوقة بفرقة موسيقية تؤدي معزوفاتها العسكرية باتقان، تجده يصف بقية الجيوش الاخرى التي شاركت في " التسراد " المذكور قائلا :

["ثم أتت فرسان العسكر ومعها الطنابرية، وأصحاب الموسيقا، ومروا صفا بعد صف، وهم خمس فرق، في كل فرقة نحو ألف كما تقدم، ومرت بعدهم أربعون فرقة من الخيل تجر المدافع في كل فرقة خمسة، ستة، مدافع، كل مدفع يجره خمسة من الخيل، والعسكر راكب عليها،

وعلى كل كريطـة مدفع أربعة مـن العسكر. وعدد الفـرق التي مرت على هذه الصفة أربعون فرقة فيهـا أزيد من ألفين، لان بعض الفرق كان يمر فيها صفان من المدفع صفا إثر صف. فعلى هذا يكون جملة العسكر الذي حضر التسراد في ذلك نحو خمسين ألفـا بين فرسـان ورجلية... وقيل إن ذلك العسكر الذى حضر التسراد هو عسكر باريس لا غير."] وإذن نحن هنا أمام كـاتب مخزني يصف " جيشا حديثا منظما، وصفـا هادئا يكاد يصل الى حد التصـوير الفـوتوغـرافي "، مجردا من كل شحنة انفعـالية نفسية، لان المخـزن كان قـد أسس بعض الفـرق العسكريـة المنظمة على غـرار هذا النمـوذج الاوروبي الحديث، فأصبح معتـادا مألوفـا... وليس المثير لانـدهاش الكـاتب الآن هو تنظيم هـذا الجيش وحسن ترتيبـه، بل المثير لاعجابـه هو كثرة عـدده، ونوعية تسليحـه وعدته وزيـه، لما كانت مهمـة البعثـة السفـاريـة المغربيـة تقتضي الاطـلاع على أنـواع الاسلحـة المستحدثـة في أوروبا – كما أشرنـا سـابقـا – فإن الجعيـدي لم يكتف بـوصف معامل الاسلحـة التي زارها بل أضـاف الى ذلك إخبار المخـزن بأثمان منتوجاتها كالبنادق والمدافع وغيرها... ففي زيارته لمصنع بلجيكي للبنادق يقول الجعيدي مثلا :["... توجهنا لدار فابريكة صنع المكاحيل... فحين وصلنا اليها تلاقانا كبيرها بالترحيب والتعظيم... فصعد بنا لخزين بأعـلاها، فوجـدنا فيـه جميع العينات التـي تصنع للاجنـاس كما تقدم، وجميع عينات الكـوابس، ومن المكاحيل مـاله جعبتان، وثمن هـذه العينة أربعـون ريالا. ومنهـا مالها جعبـة واحـدة وتعمر من الخزنـة وهي من العينـة المختصرة في الوقت الـذي لم يظهر حينئـد أرخص منها، وثمنهـا ثمانية عشر ريالا، وهناك بأقل من ذلك، حتى أن هنـاك عينة بالزناد ذات جعبة واحدة ذكر أن ثمنها ريال واحد وخمسا ريال."].

وأثناء زيـارة الوفد المغربي لاحـد المركبات الصناعيـة البلجيكية التي تصنع [" آلات الحديـد مثل مـاكينـات بـابورات النـار، وبـابـورات البر وطـرقهـا، وآلات القـراصن والفـركـاطـات التي تصنـع من الحديـد، والمدافع..."]، نجـد الجعيـدي يشير الى بعض مقـومـات تلك الصنـاعـة كـانهماك العمال البلجيكيين في استخـراج " معدن الفـاخـر " أي الفحم

الحجري واصفا كيف ينزلون لاستخراجه الى حدود خمسمائة متر في باطن الارض، وجلب معادن الحديد والنحاس وغيرها بواسطة السكك الحديدية، واستخدام مهندسين ("نشأوا في علوم الهندسة والرياضيات"). ولا ينسى الجعيدي أن ينقل الى قرائه من رجالات المخزن، بأن المسؤولين عن هذا المركب الصناعي الذي [" يخدم لجميع الاجناس من جميع ما يطلبونه من المكينات "]، ذكروا له [" أن في غربنا (أي المغرب) من ذلك معادن كثيرة...].

ويظهر من تحفة الاخيار أن الجعيدي كان كثير الاهتمام بالاطلاع على ما تصنعه المعامل البلجيكية من مدافع حديثة، خاصة المدافع الصغيرة التي يسهل على الجندي حملها، وجرها، والعمل بها بسرعة وخفة... ولعل هذا الاهتمام كان يعبر عن اهتمام المخزن بالاسلحة التي تمكنه من التوفر على طاقة نيران كثيفة فعالة ملائمة للحرب ضد القبائل " السائبة " المتمردة. ولذلك نجد الجعيدي يصف وصفا دقيقا كيف يتم صنع هذا النوع من المدافع مدعما وصفه برسم توضيحي على طرة الصفحة، وكأنه يريد تقديم " وصفة " صالحة للتطبيق بالمغرب. ثم يظهر الجعيدي مزايا هذا النوع من المدافع، ذاكرا أصنافها، وقدرتها النارية، ومداها...وأثمنتها، قائلا :

[" ... ثم تكلم كبير الدار مع بعض الخدمة التي فيها وهو ولد صغير يبلغ سنه ثلاثين سنة... فعمد الى ذلك المدفع، وفصله عن كريطته، ودفعه، ووضعه على كتفه، وبقي واقفا به هنيهة، ووضعه على كريطته، ثم أتى معه ولد آخر في قده وجعلا كالعصا على رجل الكريطة لانها لها رجل واحدة، وأخذ كل واحد منهما بطرفها بيد واحدة، وخرجا به الى وسط الدار، وصارا يجريان به، وهما يحركانه، وفورمته وراءهما. ولم يكن عليهما في ذلك كبير مشقة. ثم رداه الى محله. ووجدنا مدفعا آخر مصنوعا مثل هذا أكبر منه بنحو نصف ذراع فيه ثنتان وثلاثون عمارة كما في الآخر، ووجدنا آخر فيه سبعة وثلاثين عمارة قيل أنه يرمي في الدقيقة الواحدة ستمائة رصاصة، وغاية البعد أنه يرمي به اثنتان وعشرون مائة متر، وهي تنيف عندنا على ثلاثة وأربعين مائة ذراع...

ووجدنا آخـر أكبر من تلك المدافع طوله نحو ثـلاثة أذرع، وليس فيه الا سبع عمارات، فورمة كـل واحدة قدر دور نصف الريال، قيـل انه يرمي بمقدار خمس وثـلاثين مائة ميتر. وسئل عن ثمن هـذا المدفع فقيل أربع عشرة مـائة ريـال. فقيل وكم معـــه من عمارة، فقـال خمســون بقصـد التجريب. وماعداها فلهـا ثمن يخصـها. فسئل عن ثمن الصغار. فقال ان ذلك عند الباشدور الذي لهم بطنجة..."].

ومن الواضح أننا هنا أمام كاتب لا يصف المظهر التكنولوجي لحداثة العسكريـة لذاتها، بل يصفها قصد اقتبـاسها واستيرادها بـواسطة البيع والشراء، لكي تكـون في المستقبل لنـا. وعلى هـذا المنوال سـار أبـوالعـلاء ادريس في "تحفـة الاخيار" بغـرائب أخبار الحداثـة الاوروبية، سـواء في فـرنسا أو بـريطـانيا، أو بلجيكـا، أو إيطاليـا... لا يقف أمـام مؤسسـة عسكريـة، أو تكنولـوجية (عسكريـة كانت أو مـدنية)، أو صنـاعية، أو تجارية، أو ماليـة، أو ثقافية... حديثـة، يرى فيها تفوقـا وتقدما، الا وفي يده القلم والـورقة لـوصفها في عين المكـان الذي شاهـدها فيـه، وصفا مباشرا تفصيليا قد يصل في الكثير من الاحيـان الى الاطناب الممل. وعندما لاتسعفـه اللغـــة العـربيـة الفصحى في وصـف تلك التنظيمات الحديثـة الاوروبيـة، لا يتورع في استعمال الـدارجة المغـربيـة، معززة بـالرسـوم والخطاطات التوضيحية.

هـذا الوصف التفصيلي، الهادف الى تحقيق غـايـات عملية، تحديثيـة، رسمها المخزن الحسني لذاته في المجـالات العسكرية والصناعية والتقنية، هـو ما يطبع " تحفـة الاخيار " لابي العـلاء ادريس الجعيدي السلـوي بطابع خاص يميزها عن غيرها من تقارير الرحلات السفارية المغربية الى بلدان أوروبا خلال النصف الثانى من القرن 19.

وإذا كانت بعثة الجعيدي لم تزر اسبانيا، فلم ينقل الجعيدي للمخزن عن مظاهر حيـاتها المجتمعية أي خبر، فإن السلطان الحسن الاول أرسل بعثة مخزنية أخـرى، عندما سمحت بذلك الظـروف، الى ذلك البلد، وكلف أبـا العبـاس أحمد بن محمـد الكردودي بمهمـة الكتـابـة في تلك البعثـة السفاريـة. وكانـت حصيلة هـذه البعثة السفاريـة من النـاحية الفكـرية

والادبية هي التقرير الذي كتبه الكردودي عن أطوار الرحلة السفارية لفائدة المخزن الحسني، وهو الذي عرف ب " التحفة السنية، للحضرة الحسنية، بالمملكة الاصبنيولية ".

منذ بداية الرحلة، يسجل الكردودي المجهود التحديثي الذي قام به السلطان في المجال العسكري، بهدف الاستعداد للجهاد، ومقاومة الاطماع الاستعمارية الاوروبية، واصفا باعجاب الحصون التي بناها السلطان بطنجة وجهزها بالمدافع الضخمة المستوردة حديثا من أوروبا، تلك المدافع التي يقول عنها الكردودي بأنه : [" يستغني بالواحد (منها) عن العدد الكثير من غيرها من العمل القديم، لانها توجه لاي وجهة يراد أن تستقبلها أماما ويمينا وشمالا بالات محمولة عليها من غير مشقة ولا تعب "].

وهذه المدافع تملأ من فمها بقذائف حديثة : [" ليست كعمل الكور القديم بل هي مستطيلة كهيأة قالب السكر. تقطع مسافة قدرها... نحو أربعة أميال، وما أصيب بها مركب الا تصدع"]. و[" يستخدم المدفع الواحد (منها) بآلته خمسة عشر رجلا".].

بالاضافة الى ذلك، يذكر الكردودي أن السلطان استخدم مهندسين أوروبيين في بناء تحصينات طنجة، بمرتبات ضخمة، وأنه عندما [" تبين له أن أحد المهندسين من النصارى ارتكب التراخي في خدمته لتطول المدة، ويستفيد من ذلك مالا يحصل لاحد بعده، وجه... من عملة أرضنا، ومعلمي قطرنا، من أخلصوا الله في عملهم..... وقد يظن بهم عدم المعرفة، فصاروا بعد أن كانوا نكرة معرفة، وأجادوا وأتقنوا وجاءوا بما لم يأت به من قبلهم وأحسنوا، حتى أن النصارى حيث شاهدوا عملهم استغربوا صدور ذلك منهم، واستحسنوه وسلموه لهم. وقد فاق عملهم عمل النصارى بشدة الاتقان وتجديد المخازن والابواب...كل ذلك في مدة يسيرة لو وكل الامر فيها للمهندسين النصارى لما كمل في أضعافها، وضوعف الصائر عليها ضعافا مضاعفة "] .

نفهم من كلام الكردودي، أن المخزن الحسني قام بمجهود تحديثي في المجال العسكري مستعينا بمنتجات التكنولوجيا العسكرية الاوروبية

التي طالما وصفها كتاب السفاريات السابقون وصفا بلغ مداه الاقصى لدى ادريس الجعيدي، مستخدما الخبرة التقنية للعمال والمهندسين الاوروبيين. لقد أصبحت بعض مظاهر الحداثة العسكرية أمرا واقعا في المغرب خلال العهد الحسني، وأصبحت تطرح مشكلات يذكر منها الكردودي مشكلة التأطير والخبرة التقنية الاجنبية، التي حاول السلطان ايجاد حل لها بإيفاد المزيد من البعثات الطلابية الى أوروبا. ولا يغفل الكردودي عن التذكير بذلك قائلا :

[" ومن اعتناء سيدنا... بأمور الجهاد، ورغبته فيما يعود نفعه على البلاد والعباد صار يوجه من أهل كل حرفة من الحرف التي هي آلة للجهاد من يستقصي معرفتها، ويعلم صفتها وكيفيتها، حتى يستغني به فيها عمن سواه من الاجانب... وصار أيده الله يوجه على الفابريكات التي يستخدم بها ذلك..."].

ان الكردودي – بوصفه كاتبا مخزنيا – يجد في المجهود التحديثي الذي قام به السلطان الحسن الاول، مرتكزا ومرجعا فيما سيكتبه عن مظاهر الحداثة العسكرية الاسبانية في منتصف العقد الثامن من القرن التاسع عشر. لذلك نجد وصف الكردودي لمظاهر الحداثة العسكرية الاسبانية ينحو –غالبا – منحى المقارنة بما يتوفر عليه المغرب منها، فيقيس احداهما على الاخرى، مستنبطا من ذلك القياس أوجه الشبه والاختلاف منتهيا الى اطلاق حكم تقديري لصالح هذا الطرف أو ذاك.

من ذلك مثلا، أن رفاق الكردودي في البعثة السفارية أسرعوا بمجرد وصولهم الى مدينة قادس الاسبانية، الى تقديم طلب (" لقائد المخزن المكلف بالنظر في أمر العسكر والابراج والمدافع الطبجية") كي يسمح لهم بزيارة أحد تحصينات وأبراج المدينة. وعندما تمت الزيارة، وجدنا الكردودي لا يصف ما رآه في البرج الاسباني الا بمقارنته مع مثيله بالمغرب... يقول الكردودي : [" ومقصودنا أن نرى كيفية بنائها (الابراج)، وعظم مدافعها وكيفيتها لنعلم الفرق بينها وبين أبراج طنجة الجديدة البناء... وفي هذا البرج مدفعان كبيران أكبر من المدافع الستة المجعولة بثغر طنجة... أحدهما من خمسة وعشرين طنا، والآخر من

ثلاثين طنا، غير أنهما يعمران من مؤخرهما لا من أفواههما، ولا جل ذلك يستخدمهما ثمانية أناس لا خمسة عشر، وحركتهما أخف بكثير من حركة مدافع طنجة، وقد رأينا حركتهما وكيفية تعميرهما وغير ذلك من كيفيات استعمالهما مما يبين أنهما في غاية الجودة والاتقان، وعدم المشقة في الاستعمال، مع الاختصار في الآلات وعدد الرجال، الا أن الابراج التي جددت بثغر طنجة، لاستخدام مدافعها فيها، أتقن عملا وأحسن شكلا.... وليت مدافعها كانت تعمر من مؤخرها كهذه، اذ لو كانت كما تمنيناه لكانت جامعة مانعة "].

هكذا نجد الكردودي يخلص من مقارناته الى نتيجة هامة، ينبه المخزن اليها، وهي أن هناك مدافع أحدث، وأجدى، من المدافع التي اقتناها المخزن من أوروبا.تمتلكها اسبانيا بينما لا يمتلكها المغرب. وهذا يعني أن المغرب – رغم تجديده لمدفعيته كما رأينا – لم يحز من أوروبا على أحدث أنواع مدافعها، تلك التي تعمر من مؤخرها لا من أفواهها – فليست أوروبا بخيلة بأطرها النزيهة الكفأة على المغرب فقط، بل هي بخيلة أيضا ببيعه أحدث منتجات تكنولوجيتها العسكرية، وذلك حتى تتمكن من المحافظة على تقدمها العسكري، وتكريس تأخره، رغم جهوده المبذولة في تدارك ذلك التأخر.

وفي اشبيلية، زار الوفد المغربي، معسكرا ومصنعا للمدافع. والجدير بالذكر أن الكردودي لا يصف - كعادته – ما يراه في المعسكر والمصنع الاسبانيين الا بمقارنته وقياسه على ما يعرفه عن أحوال المغرب في المجال العسكري. فبعد أن وصف الكردودي المعسكر الاسباني ذاكرا توفره على مستشفى مجهز [" بالآلات الطبية وأنواع الادوية "] وعلى مطبخ، ومحل الاستحمام والنظافة، ومحل للحلاقة يحتوي على [" آلات حجامته الدالة على خسته، مع نظافته ! "]، وصف فرقتين من العسكر الاسباني اصطفت لآداء التحية للوفد المغربي. وانتهى به ذلك الوصف الى القول : [" وجميع ذلك (المقصود نظام العسكر الاسباني) مثل ما يفعله عسكر سيدنا لافرق فيه بينهم وبيننا "].

وبعد أن حضر الـوفد استعـراضا لسـلاح المدفعية (عسكـر الطبجية) أبان فيـه الجنود الاسبان حسن تنظيمهم وتـرتيبهم، علق الكردودي على ذلك قائلا : [" وأين ذلك من ترتيبنا العجيب الذي لا يزدريه إلا خائن في دينه مريب، فإنك ترى خيولنا العـربية متى أخرجت من أماكنها، وبرزت عن مكامنهـا، واصطفت صفوفـا، وصارت ببسيط الارض وقوفـا، عليها فرسان لا يدرك شأوهم في الفروسيـة... ما رأهم من وصف بالإقدام إلا انفض عرقا، وفقد عقله فرقـا، أو جبان إلا خر لوقته صريعا... الخ..."]. والظاهر أن منظر المدفعيـة الاسبانية قد استفز المشاعر الـوطنية والدينية للكـردودي فكـان رد فعلـه على ما رآه منفعـلا، متعصبـا لقـومـه. ومن المعروف أن التعصب للقوم يكون – في كثير من الأحيان – ألية دفاع

عن توازن الذات عنـدما يعرض "الاخر" ذلك التوازن للخطـر. وغالبا ما تحجب هذه الالية عن "الذات" رؤية الواقع المؤلم المهدد كما هو، فهي تنحو دوما الى تشـويهه بالحط من شأنه لإعلاء الـذات قصد التحرر من التوتـر والشعور المؤلم بالخطـر. وعادة، لا ينتج عن هـذه " الذات " الا مواقف تقليـدية، منغلقـة. لذلك لا نعجب من مـوقف الكردودي من آلات الحجامـة " أو الحلاقة كما رأينا سـابقا. كما لا نعجب من موقفـه العام مما رآه في إسبانيا من تنظيمات عسكرية وصناعية حديثة، ذلك المـوقف الـذي عبـر عنـه، في ختام رحلتـه، على اثر زيـارته لمصنـع المدافـع، بقولـه : ["وهذه الدولة، وإن اقتفت أثر غيرها في ذلك (أي في التنظيمات العسكريـة والصناعية)، فانها لم تبلغ بعض البعض ممـا استنبطوه، ولا علمت من صناعاتهم مثل ما صنعوه، ولكنها لم تهمل ذلك اهمالا كليا،... بل جدت في إدراكـه فأدركت ما تيسر من ذلك، وهم جادون في مـا سلكه غيرهم من تلك المسـالك. وعقول أهل مغـربنا أكثر منهـم حدة، وفطنتهم بلغت منتهى الامر وحده، فما توجه أحد منهم لناحية ورأى من الصنائع ما توجه اليه الا أدركه في أقرب مدة."].

نعم، ان الكـردودي محق في تـأكيـده على تأخـر المجتمـع الـرأسمالي الاسباني – آنئـد – بالنسبة للمجتمعـات الاوروبية كفـرنسا وبريطـانيا مثلا، الا أنه حق أريد به باطل. إذ المقصود به تبرير تأخرنا بالنسبة له.

ولعل موقـف الكردودي أكثر المواقف قـربا وتشـابها مع موقف الطـاهر الفاسي من الحداثة العسكرية البريطانية. هذا مع العلم أن المجال السياسي ـ الديني التقليـدي المخزني ـ لم يكن يتيح لكتاب السفـاريات الى أوروبا امكانية التعبير الحر عن أفكارهم ومـواقفهم من الحداثة الاوروبية، دون أن يخافوا على أنفسهم أو مناصبهم من عقـاب المخزن أو بعض أوساطه على الاقل. ولهذا كان الحذر في القول، وتبريـر المواقف لجعلها تتطابق مع منظومة القيم التقليدية المخزنية ومع تـوقعات الدور الذي يقومون به في جهاز المخـزن، والخوف من الصدع بالـرأي والنصيحة الا ناذرا، هـو ما يشكل القاسم المشترك بين كافة كتاب السفاريات الذين عرضنا لكتاباتهم في مـوضـوع الحداثـة العسكـريـة. ولا يصـدق هـذا القـول على كتـاب السفاريات المخزنية في النصف الثاني من القرن 19 فقط، بل يصدق على كتاب بداية القرن 20 أيضا. فهذا الحسن الغسال الـذي زار بريطانيا في عهد السلطان عبد العزيز قصـد تهنئة الملك ادوارد السابع بالجلوس على العرش الانجليـزي، لا يجد مناصـا بعد وصفـه " لجيش المستعمرات " واعتنـاء المسـؤولين بتكـريم وتـرقية الشجعـان فيـه بـواسطـة الـرتب والنياشين، ووصفـه لفابـريكات المدافع و"الكـور" وغيرها، من أن يعلق على بعض البروتـوكـولات التي أرغمتهم على إحناء رؤوسـهـم لولي عهـد بريطانيا أثناء استقبال رسمي، قائلا بنبرة تبريرية صوفية غريبة :[" إن مـا ذكر مـن تمييل رأسه (أي السفير المغـربي) وخضـوعـه فلا ينـوي خضوعـه للظالم أو الكـافر، إنما خضـع للنور المحمـدي الساري في ذات ذلك الظالم أو الكـافر كما قـال عبد العزيـز الدبـاغ في إبريـزه، يقول ابن مشيش : ولا سيء الا وهو به منوط "]. ويمكن القـول بصفة عامة، بأن كتـاب السفـارات المخـزنيـة قـد بحثـوا عن سر نظـام الجيش الاوروبي الحديث، في نظام الـدولة والحكـومة، نظـاما قـائما على أساس القـانون، والمؤسسات الصوريـة المجردة المتعالية عن الاشخـاص. وبما أن القانون والمؤسسات يعبر أن عن إرادة الامة، فإن الافراد قد يزولون ويتغيرون في حين أن القـوانين والمؤسسات بـاقية. ولـذلك فان تسميـة كتاب المخـزن الجيش الحديث " بـالنظـام " بسبـب انتظـام أفـراده وجماعـاتـه – في صفوف متراصة أثنـاء القتال – سيوحي لهم بعد اطـلاعهم على مقومات

حداثة أوروبا، بتعميم مفهوم، " النظام " ليشمل المجتمع الاوروبي الحديث برمته.

وقد أدرك هؤلاء الكتاب أيضا أن أساس هذا " النظام " هو العقل، أو إن شئت : هو انتهاج الاوروبيين في تدبير شؤونهم – ما فيها شؤونهم العسكرية – سياسة عقلية، " اصطلاحية " " وقتية " – بتعبير مثقفي مغرب القرن 19 – وليس سياسة شرعية. ولربما كان مرادهم بابراز انفصال " النظام " عن كل سياسة شرعية (مسيحية أو غيرها) هو اضفاء الطابع " الكوني –الانساني " عليه مما يجعل انتحاله واقتباسه من الاوروبيين أمرا ممكنا، لا يصطدم بمنظومة الشرع الاسلامي، بل ان الشرع، اذ يحث المسلمين على امتلاك وسائل " القوة "، و" النظام " وسيلة لتلك القوة، يدعو وجوبا الى انتحاله من الاوروبيين، واذا كان كتاب سفارات المخزن الى أوروبا قد حاولوا وصف مقومات الحداثة الاوروبية، ومن بينها العسكرية، فإن ذلك الوصف كان موجها كما لاحظنا - في تحليلاتنا السابقة – بمشاكل المجتمع المغربي وحاجياته : وهذا ما يبرر المكانة الهامة التي أفردوها لمصادر " مالية " الدولة. تلك المالية التي تمكن الدولة من استحداث " جيش النظام "، وتجديده، وضمان مؤونته، ورواتبه وتسليحه وتدريبه وتعلمه... والملاحظ مرة أخرى أن هؤلاء الكتاب سجلوا أن تلك الموارد كانت مكوسا أي ضرائب اصطلاحية " وقتية " عقلية وليست ضرائب شرعية.

ولم يخف هؤلاء الكتاب اعجابهم بهذا " النظام "، واندهاشهم الشديد من " تكنولوجيا الحرب " التي " استنبطها " الاوروبيون بعقولهم وحسن تدبيرهم وحرصهم على التبصر بأمور دنياهم. الا أن ادراكهم لمطامع الاوروبيين الاستعمارية التوسعية في استتباع المغرب بعد احتلالهم لعدد من أقطار " دار الاسلام "، وحرصهم على النظر الى أوروبا من " المنظور الفقهي التقليدي " الى العالم، وخوفهم من أن يؤول مدحهم لحداثة الاوروبيين تأويلا قد يغضب المخزن، كل ذلك أدى الى أن يكون موقف أولئك الكتاب من " النظام " موقفا ملتبسا

متناقضا : إعجـاب ممتزج باحتقار شـديد (الطاهر الفـاسي مثلا)، وحب بكراهية، ورغبة برهبة...

وبـالرغم من وصف هـؤلاء الكتـاب لعدد من مقـومات، " النظـام " الحديث، في علاقته بالدولـة الرأسمالية الليبرالية الاوروبية الحديثة الا أن ذلك الوصف كان محدودا بحـدود ثقافة أصحابـه التقليدية التي لم تكن تؤهلهم للمضي قدما نحو تفسير متكامل، علمي، وعقلاني، لأسس قوة " جيش النظام " في علاقاته المتبادلـة بدولته الليبرالية ومجتمعه الرأسمالي الصنـاعي. من ذلك مثلا، اننـا نجد هـولاء الكتاب يتحـدثون عن وجـود قـوانين تنظيميـة للجنـد تحكم عـلاقـاتهم ببعضهم البعض مهما كـانت مواقعهم في التراتبية العسكـرية، الا أننا لا نجد اهتماما يـذكر لدى أولئك الكتاب بـالبحث عن / وفي تلك القوانين، ومحاولـة تعريبهـا ليطلع عليها السلاطين ورجالات المخزن الـراغبين في التحديث، كما أنهم يحدثوننا عن وجود مدارس عسكرية يتخرج منهـا الجنود بثقافة عامة تشتمل – فيما تشتمل عليه – على معـرفة بـالقوانين والتشريعـات العسكريـة الى جانب التـداريب الحربية، الا أنهم لم يجهـدوا أنفسـهم في البحث عن نظـام تلك المدارس، وبرامجها الدراسية، وأسـاليبها التعليمية، والكتب المقررة فيها... وهذا الاهمال – على مستوى الكتابة النظـرية – من طرف كتاب المخزن، وسياسته التحـديثية العملية، عندما أرسل البعثـات الطلابية الى المدارس والمعسكرات الاوروبيـة قصد التعلم والتدرب دون أن يهتم اهتماما يـذكر ببناء مـا يضاهي تلك المدارس والمعسكرات التدريبيـة في المغرب ليمارس فيها المتعلمـون المغاربة العـائدون من أوروبا تعليم ما تعلمـوه من علوم ومهـارات لابناء شعبهم، فيتأصل فيـه العلم الحديث، وتتجـذر فروعـه، وتنمو أفنانه لصالح نهضة المغرب واستقلاله الوطني.

التواصل الفكري والثقافي بين المشرق والمغرب من خلال (الترجمان المعرب(*))[1] لابي القاسم الزياني[2] الوزير المؤرخ الأديب

ذ. علال معكول
كلية الآداب –مكنـــاس –

ملخـص :

يلعب التـواصل دورا أســاسيـا في عمليــة التأثير في الحضـارات المختلفة، والتأثـر بها. وهذا التـواصل يكون ذا أهميـة كبرى بين الدول والمجتمعـات التي تجمعهـا حضـارة واحـدة، حينما تتعـرض للتـدمير والانهيار.

وبالـرجوع الى كتـب الرحلات المغـربية ودراستهـا دراسة متـأنية لاشك أن القارىء سيـدرك من خلالها مـا آلت اليه الحضارة الاسـلامية والعربية في بعض الفترات الحالكة.

وبحوار علماء المغرب لنظرائهم في المشرق، ومشاركتهم في المناظرات والمجـالس العلمية... نـدرك شعورهم واحسـاسهم بالقلق لما آلت اليـه الاوضاع هنا وهناك، بالاضافة الى تنبيهاتهم التي لاتخلو من دلالة على تميـز المغـرب عن المشرق في بعض المظاهـر والحالات، حتى في المجـال الذي لايقتضي الاختلاف فيه مثل العبـادات، فما بالك في اشياء أخرى...

(*) يستفيـد البحث كذلك مـن (الترجمانة الكبرى)، لكـون المؤلف يشير اليـه للتوسـع في الاخبـار المنقولة، انظر البستان الظريف الذي يشتمل على (الترجمان المعرب) مخ. خ. ح رقم 11542 ز، ورقة 210.

1) يوجـد ضمن البستان الظريف للمؤلف نفســه مخـط. خ. ح. رقم 11542ز وضمن الترجمانة الكبرى التي يشير اليها فيه للتوسـع في الاخبار، الشيء الذي يجعل هذا البحث غير مقتصر على ماورد في الترجمان المعرب، وقد اعتمدت في الترجمانــة على النص المخطوط. لكون المطبوع غير سليم من الاخطاء، وغير متـوفر على وسائل التحقيق العلمي، مع الجهـد المشكور الذي بـذله الناشر.

2) ولد بفاس سنة 1147 هـ، حين استقر والده بها بعد وفاة السلطان اسماعيل، وكان يصلي به=

ويؤكد لنا ابو القاسم الزياني في رحلته ما ياتي :

1 – ضعف حكام الامبراطورية العثمانية في أواخر عهدها، و((رغبتهم عن الجهاد، والميل الى الدعة واللهو))، واهتمامهم البالغ بالهدايا ((التي هي عندهم قانون في الدولة)).

2 – تمويل المغرب لنفقات حروب الامبراطورية العثمانية مع أعدائها برسم الجهاد.

3 – عدم تشجيع الحكام الاتراك للحركة الثقافية في المشرق، واهتمامهم البالغ بجباية الاموال والضرائب بالحق والباطل...

4 – بيع الوظائف الشرعية في المشرق بالمزاد العلني، يتولاها من يقدر على دفع المبلغ الكبير، حتى ولو لم يكن مؤهلا لذلك.

5 – احتقار الاتراك للجنس العربي، وبغضهم لكل من يتكلم العربية أو البربرية أو الهندية ((حتى علماؤهم وأشرافهم وأولو الامر منهم، فسبحان من ابتلاهم بذلك)).

6 – قيام الحركة الاصلاحية الوهابية في الحجاز، وموقف أبي القاسم الزياني منها ومن مؤيديها في المشرق والمغرب.

يلعب التواصل دورا أساسيا في عملية التأثير في الحضارات المختلفة، والتأثر بها تبعا لمنطق الحياة القائم على الصراع في كل شيء، والحركة مدا

= في مدينة مكناس، من شيوخه أحمد ابن الطاهر الشرقي، ومحمد بن الطيب القادري، وأحمد بن ابراهيم والتاودي بن سودة، وغيرهم، رحل مع والده الى المشرق حيث كان ينوي المجاورة في الحرم الشريف، بعد أن باع جميع ماكان يملك بالمغرب، وكان ذلك سنة 1169هـ وتحت تأثير الظروف القاسية هناك، رجع الى بلده حيث أصبح أبو القاسم كاتبا للسلطان محمد بن عبد الله ووزيرا له، بعد ان عارضه أبوه في تولية تلك الناصب، كما وزر للسلطان سليمان، واصيب بنكبات عدة أدت به في النهاية الى نبذ الوظائف الرسمية، والانصراف كلية الى التأليف والتدوين فصدرت عنه عدة مؤلفات مازالت كلها مخطوطة باستثناء الترجمانة ومنها جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت والمرجان، وتحفة الحادي المطرب في نسب شرفاء المغرب، والترجمان المعرب، والبستان الظريف، والروضة السليمانية... الخ. انظر ماتحدث به المؤلف عن حياته في خطبة الترجمانة وخاتمتها، وفي ثناياها، وفعرس الفهارس 1/ 313 – 315 تحقيق إ. عباس، دار الغرب الاسلامي بيروت ط 2/ 1982، وذكريات مشاهير وجال المغرب ع. 2 لعبد الله كنون، والاعلام للزركلي 2/ 172 – 173 ط. 5.

وجـزرا.. لتستفيد البشريـة مما ينتجـه الانسان، وتبـدعه عبقـريته هنـا وهنـاك، فتكثر المعـارف وتتلاقـح الحضارات بعضهـا من بعض حسب طبيعـة الاتصال ومستـواه وحـدوده.. فيكون بـالسيطـرة والقهر تـارة، وبالحوار الهادىء تارة أخرى..

غير أن التـواصل يكـون ذا أهمية كبرى بين الـدول والمجتمعـات التي تجمعها حضارة واحدة، حينما تتعرض للتدمير والانهيار لاسباب داخلية أو خـارجيـة، أو هما معـا، فتدعـو الضرورة الى التنبيـه لاعـادة البنـاء، وتصحيح المفاهيم والاوضـاع، حتى لايقع ما لابـد منه، وحينـذاك تكون الكارثـة قاتلـة ومدمرة يصعب تـداركها وإيقـاف نتائجهـا السلبية التي تجعل ابناء الامة الواحدة شعوبا متباعدة، إن لم تكن متنافرة ومتباغضة، يتآمر بعضـها على بعض..

وبالرجوع الى كتب الرحلات المغـربية، ودراستها دراسة متأنية لاشك أن القارىء سيدرك من خـلالها ماآلت اليه الحضارة الاسلاميـة والعربية في بعض الفترات الحالكة من تقهقر وانحطاط خصـوصا بعد فترة الظلام التي سيطر فيها العثمانيون على العالم الاسلامي باستثناء المغرب، الشيء الذي يدعو الى الاستغراب، والـرثاء على ذلك الحال الذي وصلت اليه، بعد أن حملت للعالم مشعل الهداية والنور... وحاولت القضاء على كل ما كان يكبل البشرية من اغلال العبودية والقهر والاستغلال والفساد...

وبحوار علماء المغـرب لنظرائهم في المشرق، ووصفهـم لمظاهـر الحياة المختلفـة التي شـاهـدوهـا، ومشـاركتهم في المنـاظـرات والمجـالس العلمية...ندرك شعـورهم وإحساسهم بالقلق، لما آلت اليـه الاوضاع هنا وهناك، وندرك من جـانب أخر تنبيهات المغاربـة التي لا تخلو من دلالة على تميز المغـرب عن المشرق في بعض المظاهـر والحالات، حتى في المجال الذي لايقتضي الاختـلاف فيه، مثل العبـادات، فما بالك في أشيـاء أخرى. ويتضـح هذا جليا من قول أبي سـالم العياش،[3] في رحلته :

3) احد رجال الفكر والثقافـة في نهاية القرن الحادي عشر الهجري (ت : 1090 هـ)، انظر (صفوة من انتشر لليفـرني ص 291 - 296 ط حجرية دون تـاريخ، والتقاط الدرر ص 212 - 213، تحقيق هاشم العلوي، دار الآفاق بيروت 1983، ونشر المثاني 2/ 254 - 264، نشر محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط 1986).

((... وبالجملة فعرب الدرب والحجازوتهامة ونجد أجهل العرب، وأكثرهم جفاء، قلما تجد أحدهم يحسن شيئا من رسوم الشريعة الظاهرة، وصلاة وصيام إلا القليل، وعوام الاعراب والبربر بمغربنا بالنسبة الى هؤلاء فقهاء، فلا تجد عاميا بالمغرب وإن بلغ الغاية في الجفاء إلا وهو يعلم أن الصلاة ذات ركوع وسجود، وإن كان لا يحسن ان يقرأ فيها، ويعلم وجوب صوم رمضان، بل هو عندهم أشد من الصلاة بخلاف هؤلاء فقد أخبرني مخبر عن عرب الدرب أنه سأل بعضهم هل صام أم لا، وهو رجل كبير كهل، فقال : إني الى الآن لم أصم، لكن أبي قد صام ثلاثة أيام ! فاستفهمته عن ذلك، فقال : إن الرجل عندنا اذا قارب أوان الهرم والشيخوخة صام ثلاثة أيام، فيقولون فلان صام، وذلك علامة بلوغه حد الكبر، وأما قبل ذلك فلا يعرف صياما ولاغيره...))[4]!!

ونشير في هذا السياق كذلك الى ما أورده أبو سالم في بعض المجالس العلمية التي تصدر فيها بالقدس الشريف لمناقشة أكابر فقهائها آنذاك في بعض المسائل العلمية التي وإن كانت بسيطة فإن الجهل بها يدعو الى الاستغراب ممن اشتهر في تلك الآفاق بسعة العلم وغزارة الحفظ ! يقول أبو سالم : ((وبلغنا بالرملة وغزة ان عالما[5] من علماء القاهرة ورد الى القدس، وأخذ يدرس الحديث وبالغوا في الثناء عليه، وذكروا له محلا عظيما في العلوم الشرعية، فاشتقت الى لقائه لاجل ذلك... ووجدت بعض الحنفية يقرأون عليه المناسك في فقه الحنفية فجرى ذكر يوم التروية، فقال : انه مشتق من الرؤية، فقلت : ان هذا لايصح، وانما هو مصدر تروى من الماء، لانهم كانوا يتروون فيه من الماء لعرفة : لأن عرفة لم يكن بها اذ ذاك ماء على حسب ما ذكر غير واحد، واما من الرؤية فبعيد من اصطلاح أهل التصريف، فأبي من قبول ذلك، واصر على ماعنده، ثم جرى ذكر فسخ الحج الى العمرة، فقال : الاجماع على انه لايصح، ولم يقل به أحد من العلماء، فقلت : كيف ينعقد الاجتماع على أمر أمر به

---

4) الرحلة العياشية المسماة بـ (ماء الموائد) ج 1/ 312ط. حجرية 1316 هـ.

5) يعرف شهاب الدين الحنفي المصري، لم اعثر على ترجمته.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحض عليه قبيل موته بقليل... فأنكر أن يكون ورد في الحديث أصلا... فقلت لشيخنا[6] أخرج لنا ماحضر عندكم هنا من كتب الحديث، فأخرج البخاري وكتاب المواهب[7]، فأخذت الجزء[8] الذي فيه الحج من كتاب البخاري، فسردت عليه حديثا في ذلك ثم آخر ثم آخر، واقرر له وللحاضرين دلالة الحديث على فسخ الحج الى العمرة، وأنا أسرد عليه الاحاديث، وأقول له أكفاك أم أزيد الى أن وجم وسكت... فلم يقم من ذلك المجلس إلا مدحورا الا أنه لجرأته أظهر عدم المبالاة ولم يقم في البلد بعد ذلك المشهد الا يوما أو يومين وخرج راجعا الى مصر...))[9].

فاختصار هذا النص قد لايضع القارىء في الصورة التي أراد من خلالها أبو سالم العياشي ابراز ملامح الثقافة العربية والاسلامية في بعض الاقطار التي زارها، وشاهد معالمها العمرانية والاجتماعية، والتي لم يكن يستهويه فيها الا رجال العلم وأهل الفضل والصلاح...

واذا كانت هذه الرحلة قد تمت ما بين سنتي 1072م ـ 1074هـ فكيف سيكون الحال بعد مضي مائة وست وعشرين سنة ؟ ! الى سنة 1200هـ وهي السنة التي رحل فيها أبو القاسم الزياني الى اصطنبول بتوركيا سفيرا من السلطان محمد بن عبد الله، الى السلطان عبد الحميد العثماني. فكيف أصبح العالم الاسلامي خلال هذه المدة ؟ وكيف صورت مشاهده ريشة هذا المؤلف الرحالة ؟ وكيف نقلت صورة المغرب الثقافية والفكرية

---

6) يقصد ابا حفص عمر بن عبد الصمد ابن الشيخ القطب محمد العلمي اكابر شيوخ القدس في عصره، وقد حضر ابو سالم مجالسه العلمية، وأجازه هو وأصحابه. انظر (الرحلة العياشية 2/ 322 - 333).

7) هناك اكثر من كتاب بهذا الاسم، ومنها (المواهب الشريفة في مناقب أبي حنيفة) للإمام أبي الحسن علي بن زيد البيهقي (ت : 565 هـ)، فلم ادر المقصود بذلك، انشر (كشف الظنون 2 / 1895 منشورات مكتبة المثنى بيروت).

8) الجزء الثاني، باب من لبى بالحج وسماه، وباب قوله تعالى : (ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام)، ومن الاحاديث المشار اليها مارواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : (قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقول : لبيك اللهم لبيك بالحج، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلناها عمرة).. الخ.

9) الرحلة العياشية 2/ 321 – 322 .

والحضارية الى المشرق العربي، الذي كـان يبحث عن نفسه وعن مقوماته التي غشاها عقم الاتراك، واستغلالهم واستبـدادهم وتصديهم لكل بارقة أمل لاحتوائها، ورميها بكل مايبددها ويتلفها، ليبقى العرب والمسلمون في متاهات الغربة والضياع، والحالة هذه وهم محقونون بكل أنواع الـمـناعة التي تكسرت عليها، وستتكسر كل محاولات التشويه والتدجين !!

وهكذا عادت النصـال لتطعن راميها الـذي حاول النيل مـن الحضارة العربية والاسلامية بعد أن شوهها، واخر عطاء ثمارها لقرون عدة، حين تلاشى الظل العثماني، واختفى بعـد عهود من العقم والفساد، يقـول أبو القاسم الزياني : ((ولم يزل امر هذه الدولة يضعف، وهي في مرض من الايام، وهم يعـالجون مرضها بـالسياسة والتـدبير الى ان يتم امر شأن هـذه الدولـة عند هـرمهـا، وحتى هذه الممالك التي تحت حكمهم ببـلاد العرب، لا ينتفعـون منها بشيء، ولا يجبى منهـا مال، كـالجزائر وتونس، وطرابلس، ومصر، والشام، وحلب، والجزيـرة، وبغداد امراؤهم يأخـذون خراجهـا، ولايحصـل لهم منهـا الا الدعاء على المنابر، ورسمهـم علـى السكة...))[10].

تمويل المغرب لنفقات حروب الامبراطورية العثمانية مع أعدائها برسم الجهـاد :

ومع ضعف حكام هذه الامبراطورية، في أواخر عهدهم ((ورغبتهم عن الجهاد الى الدعـة واللهو)) [11]، واهتمامهم البـالغ بـالهدايـا ((التي هي عندهم قانون في الدولة..)) [12]، ومع كل مظاهر التبـذير وإتلاف الاموال في اللهو والملذات))[13] ((فإن المغـرب هو الذي كـان يمول حـروبهم مع الـروم الذين استـولوا على كثير من الاقـاليم مثل طبرستـان، وجرجـان وكيلان، وخراسان، وخوارزم...[14] يقول ابو القاسم الزياني ((وقـد وجه

---

10) الترجمان المعرب ضمن البستان الظريف ورقة 250.

11) نفسه، ورقة 239.

12) نفسه، ورقة 254.

13) نفسه، ورقة 238.

14) نفسه، ورقة 239.

السلطان[15] قبل هذه الخمسمائة الف ريال وخمسين الفا التي على يدنا، ستمائة الف ريال مع القائد مبارك بن همام، والامين الحاج عبد الله الشرفي التطواني في مركب. وسألني يوما مايقول الناس في هذا المال الذي وجهت لاصطنبول ليصرف في الجهاد ؟ قلت : يقولون : لو صرفته في الجهاد بالمغرب لكان أولى، فضحك وقال : واي جهاد في مغربنا ؟ قلت : سبتة، ومليلية، وبادس، والنكور. قال : لا فائدة في عمارة تلك القرى الثلاث... وذلك المال الذي وجهنا للسلطان العثماني الذي هو بصدد محاربة الكفار، وعساكره مقابلة لهم على الدوام، اولى من صرفه بمغربنا، وبقاؤه عندنا عرضة للتلف، فو الله لايصرف بعدنا إلا في المحرمات والحروب بين المسلمين، كما وقع فيما خلفه جدنا اسماعيل رحمه الله، في بيوت الاموال، كله صرف فيما لا يحل، كذلك ما تركه أحمد المنصور من المال لأولاده، كله صرف في الحروب بين المسلمين على الملك...))[16].

ولم تقتصر هذه المساعدات على المال، بل ارسلت الى توركيا كل ما يتعلق بالصناعة الحربية، ومنها ((أربعة آلاف قنطار من البارود، قنطار في كل برميل))، و ((اثنا عشر الف قنطار من ملح البارود))، وأربعة مراكب قرصانية برؤسائها وأسلحتها...[17]

وهكذا كانت خزينة الدولة في المغرب تتحمل أعباء الاستقرار، واستتباب الأمن في الداخل، ونفقات الجهاد ومتطلباته في الخارج... مما يؤكد حرص المغرب على حماية الاسلام والمسلمين على امتداد التاريخ، خارج حدوده كلما تطلب الأمر ذلك، الشيء الذي جعله مؤهلا لزعامة العالم الاسلامي وقيادته بعد وفاة السلطان العثماني عبد الحميد، كما عبر بذلك والي الحجاز الوزير يوسف باشا لأبي القاسم الزياني عند التقائهما في منى فقال : ((اين السلطان عبد الحميد ؟ واين السلطان مولاي محمد ؟ تركانا ايتاما، والله لبطن الارض أحب الي من ظهرها، فقد ظهرت أشراط الساعة ببلادنا، ولم يبق إلا ظهور الشمس من

---

15) يقصد محمد بن عبد الله.

16) الترجمان المعرب ورقة 262.

17) نفسه.

مغربكم...فقد ذهب من كنت تعرفه في المناصب من أهل المروءة والدين، وتصدر بها الاحداث والسفهاء من المماليك والاعلاج، واطراق الناس...))[18].

الحركة العلمية والثقافية في كل من المشرق والمغرب خلال هذه الفترة من تاريخ أمتنا العربية والاسلامية:

ونتيجة لتلك الظروف والاحوال التي تقدم وصفها، فإنه من الطبيعي ان يكون الوضع مختلفا بالرغم من الاصول الواحدة لهذه الثقافة، ولكن ممارستها بهذه الطريقة او تلك، وتوفير اسبابها، ووسائلها، وتشجيعها أو الحد من انتشارها، وحمايتها والذود عنها، أو تشويهها ومقاومتها...هو الذي يؤدي الى الاختلاف في مستواها ونتائجها، والدور الذي تلعبه في تقوية المجتمع وتماسكه، أو ضعفه وانهياره..

وقد نقل لنا أبو القاسم الزياني كثيرا من ملامح الوضعية الثقافية والعلمية بالمشرق، وبكل البلاد الخاضعة للنفوذ العثماني التي زارها، من بداية رحلته الى نهايتها، وإن كان اهتمامه بالتاريخ أكثر من غيره، ومع ذلك يعرض لنا ملاحظات لاتخلو من أهمية، على تأكيد الفارق العلمي والثقافي بين المغرب والمشرق، نظرا لمرامي السياسة العثمانية التي لم تكن تهتم بالمجالات الاخرى اهتمامها بالمجال العسكري، وبسط السيطرة والنفوذ على سائر أقطار العالم الاسلامي، ولم يوقفها عند حدها إلا المغرب الذي صعب عليها اجتياز حدوده خلال مراحله التاريخية، كما هو معروف، بالرغم من أن قبائل بني يزناسن كانوا تابعين لها في بعض الفترات[19].

فالاهتمام بالجانب العسكري، وجباية الاموال والضرائب بالحق والباطل، وإهمال التحضر والتمدن، ونشر المعرفة والعلم... كل ذلك أثر على الحركة الثقافية في تلك الأقطار، وضرب عليها الحصار والتعتيم حتى صار البحث عن قشور الاشياء من الصعوبات الجمة، فما بالك بلبها

---

18) الترجمانة الكبرى مخط خ. ح رقم 3252 ورقة 83.

19) انظر الجيش العرمرم لاكنسوس 1/ 70 وما بعدها ط. حجرية 1336 هـ، والاستقصا 7 61/ البيضاء 1956.

وأسسها وأصولها.. وهاهي تلمسان القريبة من المغرب تبدو مجدبة قاحلة، كما يقول ابو القاسم الزياني :

((... ثم عدت منها –وهران – لتلمسان، فدخلتها ولا أعرف بها إنسان، وخرجت رجلاي من ذلك الربق[20]، وخلصت من ذلك الرق[21]، وأقمت بجوار ابى مدين[22] بالعباد، واخترت العزلة عن العباد، فانهال على طلبة ذلك العصر، وفقهاء ذلك المصر، للانس والمذاكرة، والمسامرة والمحاضرة، إذ فن التاريخ والادب عندهم غريبا[23]، بعد ان كان في القديم لأهله في ذلك الوطن مرعا خصيبا، وأتحفونا بما عندهم من كتب الأخبار، وتواريخ من كان ببلدهم من الأخيار...))[24].

ولم يخفف من هذه الصورة القاتمة التي يغطي ظلامها سماء الامة العربية في هذه الفترة الحالكة الا النور الذي ينبعث هنا وهناك من بعض الائمة الاعلام الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم ونشره تدريسا وتعليما وتدوينا، بوسائلهم الذاتية، وما وفره لهم رجال الخير والصلاح، ففي مصر التقى ابو القاسم الزياني بالشيخ الفقيه الاديب عبد الرحمن بن حسن الجبرتي[25] الذي قال عنه : ((فكنت أجلس معه وافاوضه[26] الى ان

---

20) الربق بكسر الراء : الحبل تشد به الغنم لئلا ترضع، وفي الحديث : (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه) (اللسان – ربق).

21) المقصود بالرق هنا التقيد بمسؤولية الدولة وتسيير الحكم فيها.

22) أبو مدين هو شعيب بن الحسن (أو الحسين) الاندلسي التلمساني، صوفي، اصله من الاندلس، سكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، من مؤلفاته (مفاتيح الغيب لازالة الريب وستر العيب)، (ت : 594 هـ). انظر مصادر ترجمته في (الاعلام للزكلي 6/ 166 ط. 6).

23) في الاصل (غريبا) ليناسب السجعة وهو جائز، انظر (الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة) لمحمد بن علي الجرجاني ص : 300 ت ح : عبد القادر حسن، مصر.

24) الترجمان المعرب، ورقة 202.

25) مؤرخ مصرفي عصره، نسبته الى جبرت في بلاد الحبشة، جعله نابليون حين احتلاله لمصر، من كتبة الديوان، وهو صاحب كتاب (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) أربعة أجزاء، ابتدأه بحوادث سنة 1100 وانتهى 1236 هـ (ت . 1237ب) انظر مصادر ترجمة في (الاعلام 3/ 304).

26) المفاوضة في الحديث : المشاركة فيه، ومفاوضة العلماء ان يعطي كل واحد ماعنده للآخر.. (اللسان – فوض).

تمكنت الصحبة، وتمحضت المودة، فكان يأتيني لبيتي، ويعزمني لبيته، وحصل لنا بسبب معرفته الاتصال بكثير من فقهاء مصر.. وكنت كثيرا ما ابحث عن كتب التاريخ للشراء...))[27].

ويظهر من خلال هذا الاتصال بين رجال العلم والادب ان بعض الأحداث والوقائع التي تجري في المغرب لم تكن تصل الى المشرق، وربما بإيعاز من الاتراك خوفا من أي تأثير لاينظر اليه بعين الرضى.. وتبقى قنوات الاتصال الوحيدة لتكسير هذه الحواجز وكشف ذلك التعتيم، هي رحلات العلماء، كل في مجاله، وحسب مكانته العلمية، وماتسمح به ظروفه.. ومما قاله ابو القاسم الزياني عن المؤرخ المحدث الاديب الشيخ سعد الدين حفيد الشيخ عبد الغني النابلسي[28]، الذي التقى به في دمشق : ((وكان اعزه الله...يجاريني في تواريخ المغرب ودوله التي لم تصلهم..))[29].

بيع الوظائف الشرعية بالمزاد العلني في المشرق..

ومع هذه الاستثناءات المضيئة، وفي غياب التوجه العام المدعم بالقوانين لحماية الدين، وفرض الاهداف التي قامت من اجلها رسالة الحق.. تبقى مع كل هذا الصورة باهتة وقاتمة ومظلمة... فكيف نتصور عالما اصبحت فيه المناصب الشرعية تباع بالمزاد العلني، يتولاها من يقدر على دفع المبلغ الكبير، حتى ولو لم يكن مؤهلا لذلك، وما أكثرهم في زمن التردي والسقوط ؟ !! كيف يصبح بعد هذا العدل قائما، والدين سالما، والامن منتشرا، والعلم مزدهرا، والادب منتعشا ؟ ! لم يبق مع هذا الا الجور والظلم والفساد والنهب...

---

27) الترجمان المغرب، ورقة 209.

28) لم نعرف اسم هذا الحفيد لعدم القرائن الدالة على ذلك، ويظهر من خلال الترجمانة ورقة 140 ان له مشاركة في العلوم، اما جده المشار اليه، فهو عبد الغني بن اسماعيل، الشاعر الاديب المتصوف الرحالة، من تأليفه : (الحضرة الانسية في الرحلة القدسية) وذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الاحاديث) فهرس لكتب الاحاديث الستة، وديوان شعر، وغيرها من المؤلفات التي تجاوزت العشرين (ت : 1143 هـ)، انظر مصادر ترجمته في (الاعلام 4/ 32 - 33).

29) الترجمانة الكبرى ورقة 140.

ولنستمع الى حسرة أبي القاسم الزياني واساه، وهو يصف هذه الحالة السيئة والشاذة، فيقول بعد ان دحض مع جماعة من الاعلام أحد الاعتزاليين الروافض[30]، ببحث لأبي سالم العياشي في الموضوع[31] باعتماد أهل السنة الادلة النقلية في العقائد : ((وانتم بالعكس تحكمون عقولكم وأوهامكم، فتحملون الأدلة الشرعية كلها المقطوع بها على ما يوافق أهواءكم وأراءكم...

هذه إحدى المسائل التي فضل بها المغرب على المشرق، والثانية هذه المناصب الدينية من القضاء، والفتوى، والتدريس، والامامة، والتوريق – كذا – والخطابة، والشهادة، لاتباع ولاتشترى كعادة أهل المشرق كلهم ببلاد الروم، والشام والعراق، ومصر والحرمين، فإنها تباع، فإذا مات صاحب خطة يشتريها من الولاة غيره على أي حال كان، وما رأيت قاضيا ببلد من هذه الاقاليم كلها يقارب : ما يشبه ان يكون شرعيا، ومدار أحكامهم على الرشا وقبض المال في الحق والباطل، وينقض الحكم في الأمر الواحد مرارا، ولاحياء، ولا من يرده عن هواه...))[32].

ويقول في مكان آخر : ((فانظر لهذا العجب، وهذه عادة قضاة المشرق كلهم نسأل الله السلامة والعافية من الورطة التي وقعوا فيها، فقد عمت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها. باعوا آخرتهم بدنياهم... فليس للوعظ، فيهم عمل ولا تأثر، فكأنها عندهم جباية من أصول، ويسمونها بالمحصول..))[33].

أما في المغرب، فإننا نجد العلماء الذين تصدروا للقضاء، وللمناصب الشرعية عموما، تحملوا هذه المسؤلية بخوف ووجل من الله عز وجل،

---

30) الروافض هم خمس عشرة فرقة، أصل مذهبهم الغلو في الامام علي، وذم ابي بكر وعمر، وبغضهم يعتقد ان الوحي غلط في محمد عليه السلام، وانما كان لعلي.. انظر : الملل والنحل) للشهر ستاني، والترجمان المغرب ورقة 276).

31) الرحلة العياشية 1/ 282 – 283.

32) الترجمانة الكبرى ورقة 106 – 107.

33) نفسه، ورقة 141.

ومارسوها بصدق وأمانـة، لايخافون في أداء هذه المهمة خيفـة لائـم[34]، بل منهم مـن كـان يتحـامق ((ويظهـر من نفسـه البلـه والافعـال الخسيسة))[35]، خـوفـا من ان يجور في يوم من الايـام، فيحكم بغير مـا انـزل الله، ولنستمع الى قـول العلامـة الفقيـه الصوفي العـربي بن احمد الفشتالي[36] في جواب من سأله عن خطة القضاء : ((فالذي يظهر لي فيها انها صداع الراس، وسم قـاتل في الجوف، وسلسلة في العنف، وسنارة في الحلق، وهذا مـا ظهر لي فيها، وقد علمت ان درأ المفاسـد مقدم على جلب المصالح...))[37].

احتقار الاتراك للجنس العـربي وغيـره.

هـذا حال المغـرب، وتلك حال الـدولـة العثمانية من اصطنبـول حتى الجزائر، كما صورها لنا أبو القاسم الزياني، بل كشف عن حقيقة أخرى كـان العثمانيون يخفـونها، وإن كـان فعلهم يظهرهـا ويصرح بها، وهي كـراهتهم للعرب واحتقـارهم، والاستخفاف بهم، من خـلال الحديث فيما بينهم، أحيانـا كثيرة، بلغتهم التي كان الـزياني يتظاهـر بعدم معـرفتها، فكان يسجل تلك المواقف التـي تساوى فيها الـرئيس والمرؤوس، والعالم والجاهل، فـلا يسع رحـالتنا والحالـة هـذه الا أن يكتم غيظه في نفسـه، ويتحسر على ضيـاع العـالم الاسـلامي في أمـة لاتسـوسـه الا بـالنهب، والاستغلال والحقـد الدفين، فيقـول : ((من مساوىء الاتـراك مع دينهم واكرامهم للغرباء، وأهل البيت والعلماء وأهل الخير، بغضـهم لجنس العرب كلهم، وإن كانوا غير عرب وهم يتكلمون بالعـربية أو البربرية أو الهندية

---

34) انظر مثلا تراجم الاعلام : محمد بن الحسن المجاصي (ت : 1103 هـ) نشر المثاني 3/ 55 – 58، ومحمد بن ميارة (ت : 1144 هـ) النشر 3/ 353 – 354، ومحمد بن عبد الصادق الدكالي (ت : 1175 هـ) النشر 4/ 143. وغيرهم.

35) محمـد بن الطيب القـادري في ترجمـة أحمـد بـن علـي الجرنـدي (ت : 1125 هـ) انظـر (نشر المثاني 3/ 215).

36) من شيوخه محمد بن ناصر الدرعي، والحسـن بن مسعود اليوسي، وعبد القادر الفاسي، ومن تلامذته عبد السلام بن الطيب القادري (ت : 1092هـ) انظر، النشر 2/ 297 – 300).

37) نشر المثاني 2/ 298.

أو الجناوية، واستخفافهم بهم، وحقارتهم ومهانتهم مجبولون على ذلك، متخلقون ببغضهم خاصتهم وعامتهم ببلادهم وغيرها، حتى علماؤهم وأشرافهم وأولو الامر منهم، فسبحان من ابتلاهم بذلك، ولو بلغ العربي ما بلغ من العلم والشرف والصلاح ما عظم بين أعينهم، شاهدت ذلك ببلادهم كلها، وبحضرة المملكة العظمى، وكثيرا ما كنت أتحدث مع فقهائهم وأمرائهم وأجاريهم في الكلام على لسان الترجمان في كل أمر أمر، ويثنون الثناء الجميل، ويعترفون بالفضل لأهله، ويذكرون ذلك بينهم بلغتهم، وكنت أفهمها، ولا أتكلم بها لأطلع على ما يخفونه مني، وأكون على بصيرة من كل طائفة وقعت بينها... وكنت أرى من فرق المبتدعة من يسمونهم بالشعوبية، وهم الذين يفضلون العجم على العرب، فلما دخلت بلاد الترك، واستقريت أحوالهم، وجدت عامتهم على هذا الوصف، وهم أكثر الأمم، فلم يبق لي التفات لتلك الفرقة الشعوبية القليلة التي هي من أفراد الناس وخاصتهم، واحتقرت أمرها...))[38]

وكاد أبو القاسم الزياني يتعرض للهلاك في البحر على يد أحد السفراء الاتراك الذين صحبوه الى المغرب لأخذ بعض الاموال سلفا لتوركيا، في تمويل حروبها مع أعدائها كما سبقت الاشارة الى ذلك و وهذا السفير كان من اختيار الزياني، لما له من المشاركة في العلوم، وخصوصا التنجيم، وقد اتفق مع رئيس المركب، وهو من جنسية فرنسية على أمور سرية، إذ كان لكل منهما رغبة يريد أن يحققها على حساب أبي القاسم الزياني، ظنا منهما أنه لايعرف اللغة التركية، فإذا به سمع كل ما دار بينهما في هذا الشأن، فصاحب المركب يريد الذهاب الى مرسيلية وهي بلدته، والآخر يريد الذهاب الى اسبانيا ليقضي بها بعض الأيام، طمعا في الحصول على الهدايا والأموال، كما حدث لمحمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي[39] الذي كان موجودا باصطنبول في تلك الاثناء، ((فظن ان

---

38) الترجمانة الكبرى ورقة 186.

39) أحد وزراء السلطان محمد بن عبد الله، وسفيره الى كل من اسبانيا، ومالطا، والنمسا، واصطنبول (ت : 1213 هـ)، من مؤلفاته (الإكسير في فكاك الأسير)، و (البدر السافر لهداية =

ذلك يكـون لكل مـــن دخـــل بـــلادهم، خصـــوصا بـــاشـــادور العثماني...))[40].

واكتشف الزيـاني المؤامرة حينما وصل المركب الى مليليـة التي تتفرع منها الطـرق البحريـة الى كل من اسبانيـا، وفرنســا، والمغرب، لأنــه كان يعرف وسائل السفـر في البحر كما يقول عن نفســه : ((وتقدم لي اطلاع وأنا بـالمغرب على الخارطة ومعرفـة طرقها ورياحهـا والسفر بها، فكنت أقبض من النصراني الخارطـــة وأنظـر سفـرنـــا وأين بلغنـا... ولما أراد النصراني أن يترك طريق المغـرب، ويعوج – كذا – على مرسيليـا، منعته، وقلت له : ابق على طريقك، فوالله إن تنحيت عنه لأقتلنك قال : بالغصب ؟ قلت : بالغصب، فنـزل للتركي وأخبره، فطلع وقال : يا أخي مـا هذا ؟ قلت : هـو ما تـرى، فإن كنت متـوجها الى المغـرب فهـذه طريقـه، وإن وجهوك لفـرنسية فسر إليها... وكان معـه أربعة من الترك لا غير، ومعي نحو العشريـن من أصحابي وغيرهم، كـانوا بالاصطنبـول فحملتهم فلم تكن له طاقة...))[41]

ولما ظهرت له جـزيرة ميورقة، قال لـه صاحب المركب : إن الماء فرغ لنا، فأذن لـه بالتـوجه الى مرســاها، وكـان القصد الحقيقي هـو الايقاع بالزياني، إذ بعث من هنـاك شكوى للسفير الفرنسي، الذي حضر في اليوم الموالي، فأكد له رئيس المركب والسفير التركي أن الزياني حاول قتلهما في البحر، وبعد محاورته بواسطة الترجمان، واطلاعه على وثيقة السفر التي تحدد بداية الـرحلة ووجهتها ونهايتها، تأكـد للسفير الفرنسي حماقة كل منهما ثم قـال : ((وهل : هـو بـاشـــدور لاصبـانيـة ؟ قلت : لأفضحك القـونسو وقـال : والله لاشرب الماء في اصبـانية ومـرسيلية الا بـالثمن، أحرى غيره... فقال للرئيس أبلغهما لاصبانية وانزلهما..))[42].

= المسافـر الى فكاك الاسارى من العدو الكـافر) سفارته الثـانية لمالطا ونابـولي، و (إحراز المعلي والرقيب في حج بيت اللـه الحرام، وزيارة القدس الشريف والتبرك بقبر الحبيب) سفارة ثـالثة لاصطنبـــول والحجـاز، انظـــر : (الاستقصـــاء 8/ 57، والاتحاف 4/ 159- 168ط. 1/ 1932. والاعلام 6/ 257 – 258).

40) الترجمان المغرب ورقة 257- 258.

41) نفسه ورقة 258.

42) نفسه.

وهذا السفير التركي يسمى محدأ فـاندي، وفيـه وفي الاتراك عامـة يقول أبـو القاسـم الزيانـي[43] (بسيط).

لاتركنن لتركـي وإن عظمـت منه العبادة حتى طار في السحـب
إن جاد يوما فذاك الجود عن غلط . وإن تـمـرد عـن أم لـه وأب

قيام الحركة الاصلاحية الوهابية في الجهاز وموقف الزياني منهـا :

هـذا السلـوك الفـردي والجماعي، وهـذه الـوضعيـة المتردية على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدينيـة والسياسية، وما أفرزته من محن ومآسي في سائر الاقطـار الاسلامية والعربيـة أدت الى قيام الحركة الاصلاحية في الحجـاز بزعامة محمد بن عبـد الوهاب[44]، وعبد الله بن سعود[45]، وقـد بعث هذا الاخير رسـائل[46] الى علماء العـالم الاسـلامي دعاهم فيها الى التمسك بالسنة، ومحاربة البدع والضلالات..

ولم تكتف الدولة العثمانية كما هو معروف بمحاربة هذه الدعوة بقوة السـلاح فقط، بل جنـدت العلماء والفقهـاء لتكفير[47]، متزعمهـا ورميه بالـزندقة والالحاد. الشيء الـذي جعل العلماء في المغرب ينقسمـون مابين مؤيد لهذه الدعوة، ورافض لها وقد بعث السلطان سليمان وفدا علميا[48]،

---

43) نفسه، والبيتان وردا في نزهة الحادي لليفرني ص 4 ملزمة 5 دون ذكر قائلهما.

44) ولد في العيينـة بنجد ونشأ فيها، درس على اعـلام المدينة، وتنقل في مدن الشـام والعراق، ثم جاهر بالدعوة الى نبذ البدع، وتطهير الاسلام من الشعوذة والخرافات.. (ت : 1206 هـ) انظـر. مصادر ترجمته في الاعلام 6/ 257.

45) اقتسم الرياسة مع محمد بن عبد الوهـاب الذي كان هو صاحب الاجتهاد في الدين، والمترجم يمثل الجناح العسكـري، حاربته جيـوش العثمانيين القادمة من مصر بزعـامة ابراهيم بـاشا (توفي 1234 هـ)، انظر مصادر ترجمته في الاعلام 4/ 89.

46) انظرها في الترجمانة الكبرى ورقة 211 - 213، والاستقصا 8/ 119 - 120.

47) الترجمانة ورقة 277.

48) وكان الـوفد يتضمن بعضا من أعـلام المغرب وفقهائه، منهم أبـو الفضل العباس بن كيران، وأبو عبد اللـه محمد العربي الساحلي، وأبـو اسحاق ابراهيم الزداغـي.. انظر (الاستقصا 8 / 121).

برئاسة ولده ابراهيم الى الحجاز، حمله جوابه الى زعيم الحركة الوهابية، وكلفه بالوقوف عن كثب على اهدافها وعقائدها، والرجوع بتقرير في الموضوع.

ومما يستغرب له ان ابا القاسم الزياني الذي أدرك بالخبر لا بالخبر فساد الاوضاع الدينية والاجتماعية في سائر اقطار الامبراطورية العثمانية، يتصدى لمن ايد هذه الحركة الاصلاحية من علماء المغرب، ولم يتردد في نعتهم بأقبح الصفات وأحطها، ومنهم الفقيه الاديب حمدون[49]، ابن الحاج الذي قال عنه :

((فقد وقفت على قصيدة[50]، لفقيه افقه، وأديب وقته، وهو من صدور الدولة بزعمه، وأهل الصولة والجولة فيها بلسانه وقلمه، بلغ به المقت الى مدح المبتدع الوهبي في رسالته..))[51]. ويقول كذلك : ((.. ولما شاع خبره بالمشارق والمغارب، تبع مذهبه أهل البدع من كل صوب وجانب، فظهر بمغربنا وبحضرة فاس، شيطان وسواس خناس، انضاف له طائفة من خدام الدنيا وأهل اليسار، وتمذهبوا بما يسوقهم لدار البوار وأطباق النار...))[52].

والبدع التي حاربها محمد بن عبد الوهاب في المشرق لم يسكت عنها علماء المغرب، في كل زمان ومكان، وذلك بشهادة الزياني نفسه حيث يقول : ((وسئل الشيخ المسناوي[53]، رحمه الله، عمن ادعى ان الله ورسوله اذنا له في تربية الخلق، وأن يتكلم في جميع اقواله بإذن الملك الحق... وانه يفرق بين الشقي والسعيد... فأجاب رحمه الله ان هذه

---

49) هو أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن السلمي الفقيه الأديب. له عدة مؤلفات منها : (حاشية على مختصر السكاكي)، وديوانين شعريين أحدهما في الامداح السليمانية، حققه الاستاذ أحمد العراقي، (ت : 1232 هـ)، انظر (الاستقصا 8/ 133، والاعلام 2/ 275).

50) انظرها في الترجمانة ورقة 208.

51) المصدر نفسه.

52) نفسه ورقة 209.

53) هو أحمد بن محمد المسناوي مفتي فاس في عصره، واحد ادبائها الكبار (ت : 1136 هـ) انظر (التقاط الدرر ص 327، ونشر المثاني 3/ 265- 278، وسلوة الانفاس 443/-47ط. حجرية 1316 هـ).

الدعوى لاتقبل الا ممن كان كامـلا، ومتمكنا واصلا... وفي هذا الزمان لم يبق غير المبتدعين، وبـالكذب على الله والتلبس على عبـاده مرتفعين، وأهل المناصب واليسـار متبعين... فقد طـال خرقهم واتسع، قـال تعالى : (انما نملي لهم ليزدادوا اثما)[54]، فإذا اخذهم لم يبق لهم رسما)[55].

وفي هذا السيـاق الاصلاحي العـام، ونتيجة القنـاعة بفسـاد الاحوال الدينية والاجتماعيـة، وضرورة مواجهتها بحدة مايحتمه خطـرها، توضع خطبـة السلطان سليمان التي وجههـا الى خطباء المسـاجد لقـراءتها على النـاس في كل انحـاء المغرب، بعـد ان تـوعـد فيها أهل البـدع والضـلال والفساد بأشد العقاب، ومنها قوله :

((... واتركوا عنكم بدع المواسم التي انتم بها متلبسون – والبدع التي يزينها أهل الاهـواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعا، وانتزعـوا الاديان والاموال انتزاعا، بما هو حرام كتابا وسنـة واجماعا، وتسموا فقرا، واحدثوا في دين الله مـا استوجبوا سقرا... فأنشـدكم الله عباد الله هل فعل رسـول الله صلى اللـه عليه وسلم لحمـزة عمـه سيد الشهـداء موسمـا ؟ وهل فعل سيـد هـذه الامـة ابو بكـر لسيـد الارسـال صلـوات اللـه عليـه وعلى جميع الاصحـاب والآل موسما ؟ وهل فعل عمـر لابي بكر مـوسما ؟... وكأني بكم تقـولـون في نحـو المواسـم المذكـورين، وزخـرفـة اضرحـة الصـالحين، وغير ذلك من أنـواع الابتداع حسبنـا الاقتـداء والاتباع، (إنـا وجدنا آباءنا على امة...)[56]، الآية، وهذه المقالـة قالها الجاحدون (هيهات هيهات لما توعدون)[57]، وقد رد الله مقالهم ووبخهم وما أقالهم، فالعاقل من اقتـدى بآبـائه المهتدين وأهل الصـلاح والدين... وهـانحن عباد اللـه أرشدناكم وحـذرناكم وانذرناكم، فمن ذهـب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقـد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى ابناء جنسه (وتله للجبين)[58] وخسر الدنيا والآخرة (ذلك هو

---

54) آل عمران / 178.
55) الترجمانة ورقة 261 – 262.
56) الزخرف / 22.
57) المؤمنون / 36.
58) الصافات /.103.

الخسران المبين)[59]. (فليحذر الذين يخالفون عن امره)[60] الأية...))[61].

فأي سند علمي وديني اعتمد عليه ابو القاسم الزياني في محاربته للحركة الاصلاحية الوهابية ومؤيديها ومنهم حمدون بن الحاج كما تقدمت الاشارة الى ذلك ؟ يظهر لي ان تعليل الاستاذ عب الله كنون، رحمه الله، لهذا الموقف بكونه مجرد ((فورات نفسية)) سرعان ما تزول، يحتاج الى تأمل ومراجعه في الآن نفسه، كقوله : ((ومما يدل على سلامة صدره، وأن تلك الحملات التي كان يحملها على كثير من أهل عصره، انما هي فورات نفسية لاتلبث ان تخبو، ويذهب اثرها الى الأبد، ماتجده في رحلته الترجمانة بصدد الشيخ حمدون بن الحاج، فتارة يمدحه ويحليه بأغلى وأحسن[62] الحلى، وتارة يقع فيه ويصليه من انتقاده نارا حامية))[63]. دون ان يكلف الدارس نفسه ذكر السياق الذي جعل ابا القاسم الزياني يرفع الرجل الواحد الى اعلى مراتب المجد حينا، ويقذف به الى قعر الدناءة والحقارة حينا آخر !! وعلى اعتبار انها ((فورات نفسية)) أكانت تحدث دون سبب؟!

وهكذا يتضح لنا أن ابا القاسم الزياني وقع تحت تأثير الدعاية العثمانية، كما وقع لغيره من علماء المسلمين الذين كفروا الواهبيين، واتهموهم بالزندقة والالحاد، فرحالتنا الوزير السفير لم ينس الاحترام والتقدير الذي لقيه من أمراء أقطار الدولة العثمانية وحكامها في اصطنبول وخارجها، وماناله من الحظوة وأحرزه من هدايا في ذهابه وإيابه.

ولم يتردد في التنويه بقائد الحملة العسكرية العثمانية التي ذهبت من مصر للقضاء على الوعابيين بزعامة ابراهيم باشا، ولد محمد علي، فقال:

---

59) الحج / 11.
60) النور / 63.
61) الترجمانة ورقة 256 – 258.
62) انظر رسالته اليه في الترجمانة الكبرى ورقة 319 – 321.
63) ذكريات مشاهير رجال المغرب عدد 2 ص 33، دار الكتاب بيروت.

((قال صلى الله عليه وسلم : (أن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)(64) وقد ظهر، والحمد لله، مصداق قـوله عليه السلام، قد بلغنا أن والي مصر من أمراء الدولة العثمانية تصدى لهذا الظالم المبتدع...))(65).

فهذا الموقف من أبي القـاسم الزياتي ينم عن توجـه سياسي، لأنه لم يكن يـريـد البقاء في المغـرب، نظـرا لأوضاعـه الـداخليـة المتسمة بعـدم الاستقرار، ونظـرا لما عاناه كـذلك من سجن وتعذيب، الشيء الـذي جعله يناصب العداء للحـركة الوهابية، ومن يناصرها داخـل المغرب وخارجه، مادام متيقنـا أن استقراره في بلـده محفوف بـالمخاطـر كما عبر عن ذلك بصريح العبـارة حيث قال : ((.. وورد علينـا خبر مـوت الخليفة سيـدي محمد بـن الله وبيعة اليـزيد، فتفـرقنا، وحصلت في قبضتـه، ووقعت في نكبته، وتقلبت في سجون المغـرب، ونهب المتاع، واقمت في قعر السجن الى أن مات اليـزيد، وبـويع السلطـان سليمان بحضرة فاس، فقلـدني ولاية وجدة فـاستعفيته فلم يعفني، واسترحمته فلم يـرحمني فأزمعت الرحيل عن المغرب، وعدم العود إإليه...))(67).

ويـؤكد هـذا الموقف السيـاسي للزيـاني من الحركـة الـوهابيـة ومن أنصارها كذلك، أنه حاول بعد رجـوعه من رحلته هاته سنة 1210هـ أن يحط الرحـال في تلمسان، ويلقي عصـا التسار بها لكونـه عاهـد الله في الحرمين الشريفين على أن لا يلي عملا بقيـة عمره(68) فأرسل مكاتبات الى المغرب لتسهيل نقل مخلفاته به من أهل ومتاع الى المدينة المذكورة.

غير أنه تـوصل بأجوبـة من السلطان سليمان(69)، وأخيه الامير عبـد السلام ومن صهره القـائد عياد، وصاحبه أحمد اليمـوري، يلحون فيها على ضرورة عودته الى المغرب، دون أن يكلف بما لا يريده من المسؤليات

---

64) انظـر الحديث في صحيح البخاري كتـاب الجهاد والسير، بـاب إن الله يـؤيد الـدين بالـرجل الفاجر 4/ 88، وكتاب المغازي، باب غزوة خيبر 5/ 169.

65) الترجمانة ورقة 276.

66) ايام ولايتـه سجلماسة، حيث كان يتعهـد الامير سليمان وهو في فترة الدراسـة والطلب، انظر (الترجمان المعرب ورقة 202).

67) نفسه، وانظر كذلك خطبة الترجمانة الكبرى.

68) الترجمانة الكبرى ورقة 203.

69) نفسه ورقة 202 – 203.

في تسيير الـدولـة... فأسندت اليـه بعـد ذلك مـراقبة مـراسي الشـواطىء وتدوين مستفادها وخراجها، ثم عين حاجبا للساطان سليمان ووزيرا له.

إلا أن الـدسـائس والمؤامـرات أبت إلا أن تحيط بـــه من كل جـانب، بالإضـافة الى مارزىء بـه من فقد ابنه وأهلـه، فحاول أن يشد الـرحال لمغادرة المغرب من جـديد للمرة الرابعة، ولم يجد أمامـه ما يخفف به عن هـذه النكبات إلا مـا ورد في مدح الصبر والتحلي بـه، من كـلام الله عـز وجل، وشعر الشعـراء وكلام الحكماء ورجال التصوف كقـوله : ((وما رأيت إلا التأسي بجميل الصبر في المضيق والـوعر، والـرضى بالمقـدور في جميع الامور، ويكفي في مـدح الصبر آية سورة[70] السجدة، ومن أحسن ما قيل في الصبر قول بعضهم : (طويل)

هي النفس ما حَـمَّـلتهـا تتحمل ولـلدهـر أيـام تجـوز وتعـدل
وعاقبـة الصبر الجميـل جميلـة وأحسن حالات الرجال التفضل
ولاعـار إن زالـت ن الحر نعمـة ولكنَّ عـارا أن يـزول التحمـل
وما المال إلا حسـرة أن تركتـه وغنم، إذا قدمتـه، متعجـل))[71]

كما عكف على قصيدتين جمعتـا من الحكم والمواظ والسياسة الـدينية والـدنيـويـة مـا يغني قـارئهما عن كل مشير ومعين، ونـاصح وأمين ، إحداهما نسبها للـوزير المغربي[72] الحسين بن علي، المسماة ب (اثمـد الاماق) مطلعها[73]: (كامل).

صرمت حبالك بعد وصلك زينب والدهـر فيه تغيـر وتقلـب

70) لعله يقصد قوله تعالى :(وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون). السجدة / 24.

71) الترجمانة ورقة 205.

72) وزيرمن الـدعاة العلماء الادباء، يعرف والـده بالمغربي، ولد بمصر وتـوفي سنة 418 هـ بميا فارقين، وحمل الى الكوفة، له (ديوان شعـر ونثر، و (مختصر اصلاح المنطق).. انظر (وفيات الاعيان 2 / 172- 177تحقيق إحسان، دار الثقافة بيروت، والاعلام 2/ 245).

73) تسمى القصيـدة الـزينبية. انظهـا في معجم الادبـاء 12 / 8 - 9 دار إحيـاء التراث العـربي والمحاضرات لليوسي 2/ 662 - 666، تحقيق محمد حجي، واحمد الشرقـاوي إقبال، دار الغرب الاسلامي بيروت 1982، والترجمانة ورقة 205 - 207.

وهي منسوبة في مصادر أخرى لصالح بن عبد القدوس[74]، والثانية لأبي الفتح علي بن محمد البستي[75]، مطلعها[76] : (بسيط).

زيادة المرء في دنياه نقصان وربه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لاثبات له فإن معناه في التحقيق فقدان
ياعامرا لخراب الدهر مجتهدا بالله هل لخراب الدهر عمران

ونتيجة للاستقرار النفسي الذي حصل له بذلك، تفرغ للتأليف والتدوين يختم به رحلته في الحياة، ويمضي الى دار البقاء سنة 1249هـ قائلا مع القائلين : (خفيف).

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وهكذا يتضح دور المغرب في المجال العلمي والثقافي والديني، خصوصا في المراحل المظلمة التي مرت بها الامة العربية والاسلامية خلال سيطرة الاتراك العثمانيين على أقطارها، وماخلفه ذلك النفوذ من آثار وخيمة العواقب والنتائج، أدت في نهاية المطاف الى تسليم المنطقة للغرب الذي كان ولايزال يتربص الدوائر بالعرب والمسلمين، وينخرهم من الداخل، كما كانت تركيا العثمانية تفعل بهم من قبل، وهي ترتدي لباس الاسلام، لاهم لها الا فرض الضرائب وجباية الاموال... وتبين لنا كذلك من خلال رحلة أبي القاسم الزياني وغيرها من الرحلات ومن خلال حوار أصحابها لعلماء المشرق ووصفهم لما يجري فيه، لماذا تمسك هذا الجناح من العالم الاسلامي بوحدة المذهب في العقيدة الدينية، وبروح الشريعة

---

74) ابو الفضل شاعر حكيم، كان متكلما يعظ الناس في البصرة، قتله المهدي وهو كبير على الزندقة سنة 167هـ انظر (وفيات الاعيان 2 / 492 – 493، وفوات الوفيات 2 / 116 – 117 تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، والاعلام 3/ 192).

75) كاتب عصره وشاعره، ولد في بست قرب سجستان، وكان من كتاب الدولة السامانية في خراسان، له ديوان شعرصغير، وفي كتب الادب كثير من شعره غير مدون، (ت: 400هـ) انظر (وفيات الاعيان 3/ 376 – 378، والاعلام 4/ 326).

76) انظرها في المحاضرات 2/ 652 – 661، والترجمانة ورقة 217 – 218.

الاسلامية التي أعطت للفقيه مكانة خاصة في المجتمع المغربي، وخاصة إذا كان من العلماء الأكابر، وإذا أضفنا الى هذا وضع المغرب الجهادي خلال مراحل تاريخه أدركنا كذلك سبب تحكم النظرة الجادة في الغالب على التوجه الفني والأدبي، كما يعكسها لنا علي مصباح الزرويلي [77] في قوله [78] : (مجزوء الرمل)

ما نظمت الشعر حتى كنت ادعى بالفقيه

---

77) من شعراء العصر الاسماعلي مثل ابن زاكور وابن الطيب العلمي (ت : 1130 هـ)، له ديوان شعر حققه محمد الحسني، وآثار أخرى مازالت مخطوطة مثل (سنا المهتدي الى مفاخر الوزير اليحمدي) و (أنس السمير في نوادر الفرزدق وجرير)، انظر (التقاط الدور ص 437، وتاريخ الضعيف ص 38 ومابعدها تحقيق أحمد العماري الرباط 1986، والاعلام 4 / 259، ودراسة صاحب البحث عنه المرقونة بكلية الآداب بفاس ومكناس).

78) ديوانه مخط. ح رقم 6938 ورقة 73.

بيوتات مكناسة الزيتون
على عهد المولى إسماعيل

ذ. محمد بن عبد الجليل
كلية الآداب – مكناس

ملخص :

الدراسة التي تناولت الوثيقة الاسماعلية عملت على :

1) ابراز الدور الثقافي على عهد المولى اسماعيل.
2) تصنيف البيوت وأصحابها وموطنهم الأصلي فتبين أن شريحة سكان مكناسةالزيتون على العهد الاسماعيلي ضمت نسيجا سكانيا عناصره عرب وامازيغ.
3) حددت بعض خطط وحارات المدينة على العهد.
4) شَكَّلَتْ بعض الاسماء تجنبا للخطأ.
5) وصفت أحيانا وصفا مدققا بعض معالم الاحياء وميزت بين أسماء الاسر المتشابهة الاسماء بها.
6) أشرت الى الوهم الذي وقع فيه دكتورنا المرحوم عبد الله عنان بأن جعل الوثيقة من انشاء مجهول ورجحت أن تكون بقلم الفقيه العرائشي لقرائن مذكوره.
7) فصلت بين الدراسة وبين البيوتات.

كان بودي ان تتخد مشاركتي في ندوة مكناس طابعا أخر القصد منه ابراز (العمل المحلي) لفقهاء مكناسة الزيتون من خلال مقارنة العمل المكناسي بالعمل الفاسي وذلك من خلال استقراء بعض النوازل والاحكام من كتابي – "السهل الموروود في شرح المقصد المحمود" للفقيه احمد بن

ابـراهيم الجنان ومقـارنـة هـذا الشرح – الـذي بني أسـاسـا على كتـاب عرف"بـوثائق الجزيزي" – بـالعمل الفاسي وبـالتالي ابراز معـالم البيئة المجتمعيـة والنفسية والعلميـة.لكني اصطدمت بطـول الكتاب وبعـده عن الدار فـانتقلت إلى كتاب آخـر له نفس السمـة بعنوان "التنبيـه والاعلام ومستفاد القضاة والحكام" المعروف بـ "المجالس المكناسية " لكن العمل فيه صعب لايهبه الوقت خصوصا والنسخة التي بين يدي قد تلاشت أو كـادت لذا قـررت ان اشتغل ببيـوتـات مكنـاسة الكبرى على عهـد المولى اسماعيل : وهي رسالة صغيرة تقع في ثلاث ورقات من مقاس 16،5/22 بكل ورقة 25 سطرا كتبت بخط مغربي جميل تقع ضمن مجمـوع يوجد بالخزانة الحسنية العامرة تحت رقم. 3207.

وهاته الرسـالة المخطوطة يسميهـا صاحب المجلد الاول من فهـرسة الخزانة الملكية الاستاذ عبد الله عنان "بيوتات مكناس" وهذه التسمية لم ترد في صلب الكتاب وهذه أول ملاحظـة ينبغي الانتباه إليها لذا آثرت ان أضيف صفتين الى الاسم المقترح قيـاسا بما فعل الاقـدمـون والمحدثـون الذين نقلوا عـن الكتيب المختلف شأن مؤلفه المعروف بـذكر بعض أعيان فاس الكبرى في القديـم، والمنشور باسم بيوتات فـاس الكبرى ومما يلفت النظر بعد العنـوان تلكم التوطئة التي حشد فيها صـاحب الكتاب عبارات التبجيل والتمجيد للمـولى إسماعيل كما ملأها بكثير من أخبـار السلطان الجليل سـواء منها مـا تعلق بالاعمال العسكـرية أو المدنيـة أو الامنية في حين أننا لانجـد أثرا لهذه المقـدمة في كتاب بيـوتات فـاس مثلا وان كنت أميل حـدسا مـادام أن أصل بيوتـات فاس قـد تصرف فيها النسـاخ أن المقدمة قد حـذفت بعد أن قام الشيخ أبوزيد باختصـاره اختصارا شديدا ثم أتى المؤرخون فسموا الاختصار (بيوتات فاس الصغرى).

وبما أن التوطئـة قد ضاعت ضمن مـاضاع فان بيوتـات مكناس على عهد المولى اسماعيل قد احتفظت بهذه المقدمـة ذات الفقرات الغير المتوازية فقد تطـول الجمل الدعائيـة.وقد تقصروينتقل صاحبهـا من خبر الى آخر دون مراعـاة للمناسبة كـذكره لاعتنـاء المولى اسماعيل بالتعمير ثم ينتقل فجأة بعد حشد من جمل الدعاء الصالح الى ذكر المولى اسماعيل واعتناءه

بأمر الاحبـاس ثم يعود للدعـاء وذكر أعمال السلطـان ليخلص بعد ذلك لـلأمرالمولى الصـادر الى (خـديمة الانجب الحضى الاقـرب الانصح ربي نعمته الشريفة القائد أحمد بن الفقيـه المقدس سيدي ابي يعزى العرائشي جدد الله عليـه ملابس الرحمة بمنه فقام في ذلك شكـر الله وفاءه وجعل معروف اعتقـاد مولانا الجميل كفـاءه على ساق الجد أتم قيـام مستعينا باللـه تعالى وبركة السلطـان نصره الله فأنتج ذلك على يده أصلا وفـرعا وتبين...)).

قد تدلنا هذه الفقرة على أن مؤلف هـذه الورقات هو خديم السلطان : العرائشي. إذا لماذا قـال الاستاذ عنان عنـد تقديمـه للوريقات ان مـؤلفها مجهول؟

هل لعدم وجود اسم واضح عليها ؟

ام اكتفى بالقول إن المجموع والوريقات تقع ضمن مجموع كما سبق لا يكون من قلم انسان واحد ؟

ام العبارة الاخيرة الواردة في المخطوط بعد قـوله ((انتهى و قد اخذنا لك من النسخة عن عجل لتبحث عن ديوان اصلها...والله الميسر...)).

أظن أن هـذه العبارة قـد اوهمت الاستـاذ الكبير فذهب الى القـول إن مؤلف الكتاب مجهول في حين أن المؤلف كما أميـل، وحتى يظهر ما ينافي ماذهبـت اليه هـو العلامة العـرائشي أو اُخريـن لقرينتين احـدهما ذكرت بـالنص " ديوان " وأخـرى وجدت خـارج النص، وهـي عبارة عن أمـر المولى اسماعيل لـرجلين من ثقات رجـالـه هما السيدين ادريس بن عبـد الـوهـاب العلمي واحمد بن عمـر العلمي فقـامـا بتأليف ديـوان في نسب الاشراف فكل استعمل كلمـــة " ديـــوان " وهى كلمـــة وردت كثيرا في النصوص المغربية والاندلسية القديمـة والمثير المفيد أيضا في هذه التوطئة تحديد المناطق التي تعتبر منحـدرا واصلا أوليا لمترجم لهم فيذكـر أحيانا القبائل فقـط وأخرى يـذكر بطونها بـل حاراتها وعنـدما تتشـابه أسماء بعض البيوت فانه يعمد الى التميز بينهـا باحدى الطرق الاتية : أما الحي او الزقاف واحيانا المنزل أويـذكر الفخدة التي ينتمون اليها نحو البيت :

السادس اولاد بن عثمان مسطاسيون البيت 52 اولاد بن عثمـــــان اهل الرحيبــة ولا ينص على صلة نسب بينهما اولاد راشـــد الجيــار من عدوة بني مالك يميل أحيــانا الى التميز عن طريق الرســم كما فعل حين حديثه عن بيت حميش قائلا : أولاد حميش مــن اهل باب عيسى من بني حمش (الاولى أمالها والثانية كانت دون أماله).

اولاد الدغــوغي اهل درب سيدي بن عيســى من مدشر زغبونــة من قفصة. وعند ذكــره لبعض البيوتات يذكر اهلهــا بتحلية قبل ذكر الاسم الشخصي كنحو مــا فعل في البيت 61 حيث قال اولاد السيــد عبد السلام اصقال سوسى مغراوي.

وقل أن يفعل ذلك عنــد ذكــر البيــوتات الاخــرى ذكــر المؤلف أيضــا بيــوتات أنــدلسية بتخصيص أو اطــلاق اذ بعــد ذكــره الاسم يذكــر – النسبة : من الاندلــس او اندلسي، ثم يذكر البلدة الانــدلسية التي ينتسب اليها المترجم نحو : (اولاد ابــو الرضا اندلسي من غــرناطة البيت رقم 83 اولاد أزرين أندلسي من غرنــاطة البيت رقم 86 اولاد القلفطي اندلسي من غرناطة البيت رقم 87... اولاد البارو هكذا ضبطت من اشبيلية رقم 152 اولاد القباب انــدلسي. من المرية رقم البيت 156 اولاد التسولي اندلسي من مالقه رقم البيت 157.

أولاد القصري أنـــدلسي من اولاد بــرقـــوق رقم البيت 163 – اولاد صفندلة انــدلسية البيت رقم 164 واذا قمنا باحصاء للجــالية الاندلسية التي كانت متــواجدة بالمدينــة ونجد أن عددهــا يفوق 40 بيتــا شمل اهم القواعد الاندلسية التي كانت تزخر بالتجارة والعلم والفلاحة...).

وثمة ملاحظة أخرى تــربط بذكر الاسر التي سكنت مكناس على عهد المولى إسماعيل و تبرز بشكل واضح هي ان الانــدلسيين قد استقــروا في احيــاء خاصــة بهم ذاك ان ذكرهم جــاء في الوثيقــة موزعــا الى قسمين : القسم الاول و يبــدأ من البيت رقم 83 الى 90 ثم تعود الاسرة الاندلسية لتطفو من جــديد بعــد ذكر مجموعــة من البيوت أي بعــد ذكر بيت أولاد الجلباتي الذين هم فرع من أولاد زياد من بني مالك البيت رقم 146 وهذا يقودنــا الى ملاحظــة أخرى هل تم تتبع الاحيــاء وإذا كان هــذا صحيحا

فبأي حي ابتدأ ومـا اسم هذا الحي وهل ظل يحمل نفس الاسم أو غير؟ أرى أن الاجابة على هـاته التساؤلات رهينة بالاطـلاع على الرسوم وعلى الإشهـادات وغيرهـا من الـوثائق التـي لا محالة تـوجـد عنـد كثير من البيوتات...

ويبدو كذلك عند القـراءة المتأنيه للنص ان الكاتب كـان يعتمد على ما بين ايـدي العـائلات من رسوم أو يعتمـد على بعض الحوالات الحبسيـة للتحقق من الانتساب وهذا يبـدو واضحا من وقفة قصيرة مع بيتين من بيوتـات المدينة هما اولاد زغبوش قـالوا نحن زغـابشه (البيت 93) كأنه يشك ولكنه لايملك الا التصديق عملا بقـول بن خلدون الناس مصدقون في انسـابهم واذا كان لازال يخامـره في هذه النسبـة شك فان هـذا الشك يمحى عنـد حديثه عـن بيت اولاد حاتمه من صنهـاجة تم يـردف بكلمة ضبط فكأنه شك لكن الحجة قطعت ما خامـره. نستفيد من الوثيقة كذلك تحديـد حارات بعض المنـاطق المجـاورة للمـدينة لاسيما زرهـون وبهذا تتضح حـاراتها القديمـة واتسـاع عمرانها مثل اولاد اسطيلي زراهنـة من المدشر الاحمر (البيت 136) اولاد فارس زراهنه جناديون البيت 44). اولاد حموش زراهنـــة من المدشر الاحمر (البيت 66) اولاد وعزان زراهنـة من المدشر الاحمر البيـت 68) وبالـوثيقة اشـارات طفيفة الى خطط مكنـاسة ومعـالمهـا كباب عيسى عنـد حـديثـه عن بني حمش (البيت 57) درب سيدي بن عيسى عنـد الحديـث عن اولاد الدغوغي 58.

الرحيبة عند الحديث عن اولاد بن عثمان (53) العقبة عند حديثه عـن اولاد الموذن البيت 12 ورغم أن المؤلف لم يعمـد الا في القليل النـادر الى ضبط نطق الكلمات بل لم يتعـد هذا الضبط اكثـر من مـرة واحدة عهـد أحيـانا الى الضبط عن طـريق الكتـابة وهكـذا وجدنـا اسم حمش يكتب مرتين مرة بياء وقصد به الاسرة ومرة دون ياء وقصد به القبيلة كما أنه عند الحديث عن اولاد بن يشو كتبها بألف بانيشو البيت 137 – والجدير بالذكر أن هذه الاسرة من أقدم البيوتات أشار اليها ابن غازي في الروض الهتون قائلا مـا مفاده أن الاسم تغير من بن يشو الى تـلا جدوت وكان بيتهم مزارا يـرتجى ولقد اورد مثلا يفيـد ماذهبنـا اليه دار الكرامـة تلا

جدوت (دار الضمانة) وتمة ملاحظـة أخرى تتلخص في كون المؤلف لم يتبع في ترتيب الاسر تـرتيبا أبجديـا او ترتيب الحروف ولم يترجم لاول بيت عنده "اولاد العرب" وبالوثيقـة أخطاء قليلة لاتتناسب مع الاسلوب البليغ الذي كتبت به الفقرات فهل الاخطاء الموجودة من عمل النساخ ؟ لا شك. وهل في الامكان ان نعتبر العرائشي ناسخا استبعد هذا الاحتمال وان لم ينف ذلك أن المصـــادر تحكـي عن المولى اسماعيل انـــه عـــزل بعض القضاة لاخطاء لغوية ارتكبوها.

الوثيقـــة :

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيـدنا ومولانا محمد وآله وبعد :

فان اللـه تعالى جعـل اصلاح هذا العـالم واقطاره المعمـورة ببني آدم منوطة بـالايمة الاعلام والملوك الذين هم ظل اللـه على الانام واصطفاهم من بيت نبيه عليه السلام فطاعتهم سعادة والاعتصام بحبهم المتين فوزا بالحسنى والزيادة وإن الله تعالى قـد اختار من هذه المغارب من سعد به الحاضر والبادي والشاهـد والغائب من بلاد الاسلام ظـل الله على الانام السلطان المطهر أبـو النصر مولانا اسماعيل..... وقواعد ملكـه به راسخه راسيه ومعالم فضله ساميه عاليـة وخلد في سبيل الجهاد مفاخره الباقية لما ولاه امـر عباده وبسط يـده في أرضه وبـلاده واستقـر ملكه الشـامخ البنـاء بالمدينـة التي عظم منها الشأن وأقـرت بفضلها البلـدان مكناسـة الغراء صـانها الله ووقاها وحفظ بها خـلافة الاسلام وأبقـاها جعل هم نفسه الكريمة اكتساب المناقب الفاخرة وبعد تحصيل الفوز بالدنيا حديث الآخر ووراء تمليك الامـة المسلمة قتال الامـة الكافرة مجاهـد في الله حق جهاده حتى استخلص من أيدي الكافـر رقاب عباده وحصون بلاده من مدن أذن اللـه في افتتاحهـا بسيوف هذه الامـة الكريمـة ورماحهـا وبلا إهظار بأرواح دمها الغـرار وأوسع فيها من دعا مع الله الاها آخـر هوانا وصغارا وخضب به في الاماكن التي بعد بذكـر الله عهدها وتعمر سريعا مـا تعطل منذ أعصـار وأزمـان بتلاوة القـرآن والتهليل والآذان وعبـادة الواحد الديان وما زال نصر الله اعـلامه بحمد يمنه بلدا عبد فيه الصليب

لبى على البعد نداءه وعاجل من يد الكفر فدائها حتى خفقت رايته النصرية على حصن من الحصون اهل الكفر من سكانه وعاد فيه الاسلام الى مكانته فعزائه في الجهاد على اولها ومكارمه تنسه الماضي بمستقيلها أبقاه الله يخلد الاثار الكريمة في نصره ويعامل الله على اظهار دينه واعلاء أمره ولما نصر الله حزب الاسلام على المعاند لدعوته السامية الاعلام والمخالف وأظهر دين الحق على الاديان انجازا لوعده السابق في الزمن السالف وبوأ مولانا هذه الرتبة الجهادية التي هو أهلها بواجب الاستحقاق وقام بعرض كفايتها عمن دونه من ملوك الافاق صرف نصره الله نظره المقرون بالبركة في جميع مساجد حضرته العليه دار ملكه مكناسة الغراء السنية وأسس لدين الله قواعد واركانا وملك من المغرب بلادا معتبرة وأوطانا وجددما اندرس من المعامر وشيد ماتركه الاوائل للاسلام من المآثر وشرف لعبادة الله المساجد وشهر لادامة الله المعاهد وحين نظر النظر الجميل للحبس وعين من يقوم به أبقى الله رياض النصربة يانعة وكواكب السعد بأفاقه طالعة راى والله كفيل بنجح رأيه ان هته الحضرة التي جعلها الله بنجوم عزه مدارا ولدعوة ملكه دارا وقرارا نزلها العرب وغيرهم ممن جهل نسبه واختلطت انسابهم فلم تعرف لهم بها اصالة اليها بنسب فاشتد الامر وذلك اعز الله به الدين وفتح ببقاء نسله الشريف الاسلام والمسلمين لمن يقوم به أتم قيام وببحث عنه ويتتبع اصوله ووضوح خواص الناس واعيانهم وحسبائهم من غيرهم بحيث تعرف أصولهم وفصولهم وتبقى المراسم بادية والمراشد هادية مهما احتيج اليها وليرووه ديوانا يرفعه المولى المؤيد الى خزانته الملوكية بداره أبقى الله بناءه السعيد محوط من نفائس الدخائر مالم تحطه خزائن الملوك الاوائل والأواخر وهو خديمه الانجب الحضى الاقرب الانصح ربي نعمته الشريعة القائد احمد بل الفقيه المقدس سيدي ابي يعزى العرائشي جدد الله عليه ملابس الرحمة بمنه فقام في ذلك شكر الله وفاءه وجعل معروف اعتقاد مولانا الجميل دعاءه على ساق الجد أتم قيام مستعينا بالله تعالى وبركة السلطان نصره الله فانتج ذلك على يده املا وفرعا وتبين حسما يوافق امر المولى السلطاني المؤيد بالتائيد الرباني وأله الله من مقامه العالي الرضى والقبول وبلوغ القصد المامول

بالنبي واله اللهم كما جعلت امير المومنين ضيـاء تبلج عن الفجر الصادق صباحـه وخطبا عليه مـدار هذا العالم وصلاحـه فاكرمتنـا اللهم ببقائه واحمله من تـوفيقك على سوائه واعن اللهم على مـاوليته من امـور العباد وانصره نصرا عزيزا على من سعى في عناده اوكاد. اللهم اجعل مولانا امير المؤمنين لانعمك من الشـاكرين ولآلائك من الـذاكرين وبطـاعتك وطاعـة رسولك من العـاملين وعلى رهبته من المشفقين وسخـره لعبادك المومنين واجعل له من لدنك وليا واجعل له من لدنك نصيرا يارب العالمين.

وقيد بـاوائل المحرم الحرام فـاتح عام احـدى وعشرين ومائة والالف 1121 هـ. وهـذا اول ما به لغرض السلطـاني المؤيد بالتأييد الـرباني في شأن سـاكني حضرتـه العلية الاقـربين منهم وغيرهم امـر بتـدوين ذلك ديوانا حسنـا تعرف به احسابهم وتحفظ من الـريب انسابهم وفوض في ذلك لمن ذكر بـاتم وجوه – التفويض واكملهـا ثقة منه ايـده الله ونصره لأنه يعـرف نصيحته وخـدمته من لـدن ركابـه العالي السلطـاني المتفق بالعلم والاحسان ويعرف خالص نيتـه وصفاء خدمته. والله يصل لمولانا عوائد النصر والتمكين والفتح المبين وهو المسؤول سبحانه انه يتولى متابته بما يتولى به من اعز شعائر الدين وعظمها ورعى وسائله واقرها.

ملاحظـة :

ستنشر البيوتات في عـدد قادم.

من أجل مقاربة سوسيولوجية للإعاقة العقلية

تأليف : ن. دييدريش
ترجمة : ذة . فنان أمينة
كلية الآداب – مكناس

ملخص :

كان ما يسمى بالمرض العقلي أو النفسي، ولازال، محل جدالات كثيرة تتارجح بين قطبين : الاول بيولوجي، يختزل الظاهرة المعنية الى عوامل عضوية والثاني سيكولوجي يفسرها بعوامل نفسية.

والمقال الحالي يستمد أهميته من طرح رؤية مغايرة للاعاقة، كسلوك "غيرسوي" تنفتح على البعد الاجتماعي للظاهرة، هذا البعد الذي، انطلاقا من معاينة ودراسة عينة ميدانية واسعة، يمكن من الوقوف على أن وجود المعاق يرتبط أساسا بنمط اشتغال المجتمعات الحديثة.. إقصاء فئات محددة من السكان مسالة تضمن تنشيط وتحريك قطاعات صناعية ومهنية وعلمية.

لقد بدا لي من خلال قراءة مجموعة أبحاث أنه غالبا ما يتم مقاربة الإعاقة Handicap وعدم التكيف من زاوية فردية. ولا شك في أن ذلك يعود إلى التكوينين الطبي والنفسي للمحترفين، غير أن التعقيد الذي تطرحه كل حالة خاصة له بدوره مساهمة في هذا المجال.

وسأقترح هنا مقاربة سوسيولوجية تستوجب مسعى تتلاشى فيه الحالة الخاصة لصالح رؤية كلية. ومقاربة من هذا النوع من شأنها أن

تسلط أضـواء جـديدة على الإعـاقـة العقليـة وعدم التكيف بـاعتبـارهما ظاهرتين اجتماعيتين.

لكن، إذا كانت المقـاربتان الطبيـة والنفسية لاتحتاجـان الى تبرير فإن الأمر على عكـس ذلك حينما يتعلق بالمقـاربة السـوسيولوجيـة، ذلك أنها يمكن أن تبدو شديدة الغموض وكثيرة التجريد بالنسبة للممارسين الذين يوجـدون يوميـا بمواجهـة مشاكل جـد واضحة. ولـذلك سيحـاول هذا العـرض، في مرحلـة أولى، أن يوضـح البعـد الاجتماعي للإعـاقة العقليـة خـاصـة وأن هـذا البعـد، فيما يبـدو، يلعب دورا حـاسما ليس فقط في الأسباب العميقة لهذه الظاهـرة، بل وأيضا في الشكل الذي تأخذه والتأثير الذي تمارسـه في نمط تنظيم مجتمعنا، وفي مـرحلة ثـانية سأتحدث عن بحث تم اجراؤه في هـذا المجال، موضحـا وجود كفـالة تفاضليـة لخدمة أغـراض خارج – طبيـة. وسأتطرق بعـد ذلك للعواقب الثـانويـة للتعيين والكفالة على مستويي الفرد والمجتمع.

سأحاول أولا إظهار، وبكيفية مختصرة، كيـف يمكن للاعاقة العقليـة أن تشكـل موضوعاسوسيولوجيا.

لقد تـرتب عن تقـدم التطبيب والتربية تمديـد لحياة القاصريـن عقليا وتطوير فردي لهم لدرجة أن حقيقة الإعاقة العقلية ستفرض نفسها أكثر فأكثر في كل مجالات الحياة الاجتماعية.

وسنجد أن البعد الاجتماعي – ولو أنـه لازال قليل الاستكشاف – هو الأصل في تعيين الأغلبيـة الواسعـة من الاطفـال والمراهقـين الـذين يسمـون بـ" معوقين عقليين " وهذا في أربعة مستويات على الاقل :

أولا :

فيما مضى كان يوجد بين السكان عدد معين من الأفراد تطلق عليهم ألقـاب " متخلفين "، " أغبيـاء "، "بلـداء" الخ... إلا أن هـذه الحالات كـانت محدودة. وذلك لايعود، في الـواقع، الى ضعف معـدل حياة هـؤلاء الأفراد بقدر ما يعود الى شيوع إخفاء العائلات لهؤلاء المتخلفين عن أعين

الجيران، ذلك أن ميلاد طفل من هذا النـوع في عائلة ما كـان ينزل عليها شينا اجتماعيـا شديد الثقل. كان مجرد جضـوره يفسح المجال لاحتمال وجود " نقائص " عائلية أو ارتكـاب " خطايا " لم يعترف بها. ويبدو، من خلال بعض الاعترافات، أن هذا السلوك لازال سائدا الى اليوم. غير أن عاملين أساسيين سيتدخلان ليلعبا دورا كبيرا في تعديل هذه الوضعية:

– التقـدم الطبي الـذي سيسمح بإعادة التفكير في المشـاكل، وبصفـة خاصـة التأكيد على انتماء هذا النوع من الأفـراد الى الجماعة، وتشخيص تطور أصبح ممكنا.

– إجبارية التعليـم الذي لا يهم مباشرة هذا النوع مـن الأطفال والذي سيخلق نوعا جـديدا من غيرالأسوياء، وهم القـاصرين. ويمثل هذا النوع حاليا حوالي 90٪ من الاطفال المعينين كمعوقين عقليين.

سيصبح هذان العاملان، وخاصة إجبارية التعليم، حاسمين في ظهور ما يناسب أن يسمى اليوم بالإعاقة العقلية كظاهرة اجتماعية.

ثانيـــا :

من خلال الاختيـارات المفصلة للأدوات والمنـاهج المستعملة لمسـاعدة وجـود القصـور العقلي نـدرك حضور معـايير قيميـة تترجم تصـورات مهيمنة وتمررها مختلف الأجهـزة الايديولوجية للدولـة والمدرسة بصفة خاصـة. من الأفضل إذن تحليل النظريات والمنـاهج المستعملة، ذلك أنها مع تطلعها لأن تكـون محايدة وعلمية تخفي البعـد الاجتماعي في الواقع، وستعتبر مرضا فرديا ما هو في أساسه ظاهرة اجتماعية.

ثالثـــا :

يتم تصـور الإعاقـة العقليـة، في الغـالب، كإحـدى الشروط الحياتيـة الصعبة المفروضة على بعض فئات المجتمع.

ذلك أنها لاتمس كل الاوسـاط الجتماعية بنفـس الطريقـة، وهناك لا مسـاواة تجـاه المخاطـر المتلاشية مـع الولادة، المتخلفة عنها التي تجعل

احتمال الحصـــول على طفل معـــوق أمـــرا متـــزايـــدا لـدى العـــائلات المستضعفة.ومن جهة أخرى فإن عمليـة التعيـيـن بالقصور العقلي تمس أساســا، الفئات الاجتماعية غير المحظـوظة. وبذلك يمكن القـول إنه كلما كـانت عائلـة ما مستضعفـة إلا وتعرضت لـرؤية أحـد (أو الكثير من) أطفالها يعين كمعوق.

رابعـــا :

وفي النهاية سيصبح المعوق عقليا مبـدعا لفضاء اجتماعي واقتصادي جديد لاستقبال هذه المجموعـة من الاطفال الذين لا ترغب المدرسة فيهم سيتم خلق عـدة قطـاعـات متخصصـة. وسينـزل أحيانـا هـذا القطـاع الاقتصـادي الجديـد بثقل لا يستهـان بـــه على بعض المنـاطق كما تـــم التصريح بذلك رسميا في تقرير الـ .T.G.A.S [1].

ومن أجل تطـويق الثقـل الاقتصـادي بكيفيـة أحسن يجب أيضـا أن يؤخذ بعين الاعتبار كل من المجـلات المتخصصة، والكتب، وفرق البحث، والمستخدمين الاداريين، والأدويـة والعلاجات، الخ. وبذلك نجـد أنفسنا في الواقع أمام وضعية أقل ما يمكـن أن يقال عنها : إن كل طفل معاق عقليا يكلف وحـــــده (لا إراديا بطبيعة الحال).

– من أجـل تقليص البطالـة – أكثـر مما يكلـف أغلـبـــيـة السكـان الأسوياء ".

سيصبح الطفل المعوق عقليا – بمثابة مـادة أولية – موضوعا يبحث عنه، يستهدف ويمكـن أن نقول : يبدع / بل ويمكن القول بأنه سيصبح شيئـا يصنع. لقد ســاهم كل من التعيين والمأسســة institutionnalisation بكيفية واسعة في ترسيخ صورة معينة للشاب المعوق.

لكن ألن يؤدي تـرسيم وضـع نوعي – أصبح ممكنا بقانـون التوجيه الصـادر سنة 1975 – إلى اقـرار نهائي لهـذه الســاكنة في وضـع تفـريقي تجهل عواقبه النهائية ؟

---

1) المفتشية العامة للتعاون الاجتماعي.

إنني لم أرد هنـــا ســـوى رســـم الخطـوط العـــريضـــة للمظـاهـــر السـوسيولـوجية لما يسمى بـالاعاقـة العقلية. ويبـدو لي أن هذا المجـال للتحليل الذي مـازال متروكا في حيز الاهمال مجال عميق لـلاستكشاف : يمكنه المساهمة في أن يعيد للظاهرة المدروسة أبعادها الخاصة.

وفي هـذا القسم الثـاني من عرضي سأتطـرق لنتـائج بحث أتيحت لي فرصـة انجازه بالتعاون مع بـاحثين آخرين (س. بيك ود. فيش[2]) في إطار الـــ .I.N.S.E.R.M [3] يتعلق هذا البحث بخصائص السكان والأطفال والشباب المتواجـدين سنة 1972 في مجمـوع البنيات المخصصـة لعـلاج المعوقين، أو غير المتكيفين، بمقاطعة ليصون " Essonne " [4].

ترتكز النتائج على10376 موضوعا موزعين على 102 مؤسسة تعمل تحت وصاية كل من وزارات الصحة، والتعليم، والعدل والـ.D.D.A.S.S [5]. أما الفـرضية المركزية التي تـوجه هذا البحث فتقـوم على افتراض وجود كفالة تفاضلية حسب محددات اجتماعية.

يبدو أن هناك عدة عوامل تتدخل لتؤثر في نوعية الكفالة.

الجنـس :

تعتبر القـوة التمثيليـة السـاحقـة للذكـور، بـالقيـاس الى الإنـاث، في المؤسسات (2 ذكورمقابل فتاة واحدة) مفاجأة كبرى. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بافتراض وجود تصفية جد هامة إزاء الذكور حيث تكثر الاشارة إليهم وبالتالي سيصبحون أكثر تعرضا للوقوع في قبضة الكفالة بالقياس إلى الاناث. ولكن هذا يدل، أيضا، على وجود حساسية كبرى تجاه الذكور حيث يستوجب عليهم الامتثال – أكثـر من الفتيات – إلى نوع من الأوامر

---

2) ن. دييديريش، س. بيك، د. فليس "اختلافات في الكفالة التفاضليـة، دراسـة شاملة لمجموعـة مؤسسات للاطفال والمراهقين والمعوقين / غير المتكيفين لمقاطعة : الاصون". ستظهر في مجلة : neuropsychiatrie de l'enfance et l'adolescence

3) .I . N . S . E . R . M : وحدة البحث في الصحة العقلية وانحراف الطفل والمراهق.

4) الـ . Essonne : مقاطعة توجد جنوب فرنسا (م).

5) المديرية الاقليمية للنشاط الصحي والاجتماعي.

الاجتماعيـة. فعـلاوة على الخطـــر والخوف الـذي يمكن أن يشكلـوه على الآخـرين أو يوحـوا إليهم بـه، يجب على هؤلاء الفتيـان أن يمتثلوا، عنـد بلوغهم سن النضـج، إلى قيـم اجتماعية صعبة الخرق تمرر منهـا مفاهيم مسؤولية الإنسـان تجاه عائلته عبر قناة العمل أساسا.

سنجـد في عينتـنـا، إذن، عـددا كبيرا مـــن المـوضوعـات التي تبدي قصورا في مستـوى التمـدرس " بوجه خاص.

أمـا بالنسبـة للفتيات فيبـدو أن التساهل معهن يتم بصـورة كبرى : إنهن لا يثرن خوفـا أكثر مما يثيره الذكـور. لكن القيمة الاجتماعية التي تهمهن تختلف : فحتـى حينما تضعف كفـــاءتهن الفكـريـــة لا يكـــون مستقبلهن غامضـا بصورة كليـة، وهن يعرفنـه أكثر ممـا ينتظر منهن عادة : معـرفة الحبك، القيـام بأشغال المنـزل، التزوج وإنجـاب الأطفال. بعبارة واحدة توجه قوة عملهن الى سوق الزواج أكثر مما توجه الى سوق العمل. تقود هذه التمثلات الاجتماعية إذن الى :

– تكفل مبالغ فيه ببعض الذكور.

– نقصان في التكفـل، مهما كان شكله، ببعـض الفتيات ولـو أنهن قد يكن في أمس الحاجة إليه.

غير أنه يبدو هنـاك عاملان آخران يتدخلان في الكفـالة، ويتعلق الأمر بمصدر طلب الكفالة والأصل الجغرافي للشخص المتكفل به :

لا يمكن إنكـار أهميـــة تأثير المحيط المؤسســاتي، اذ يمكـن للـوضـع المؤسســاتي للطفـل الـواحـــد أن يختلف اذا كـان هـــذا الطفل يسكن في المنطقةالجنوبية (القروية) للقطاع القليل التجهيز بالمؤسسات المتخصصة – وبصفة خاصة في العلاجات المتقطعة – عنه إذا كان نفس الطفل يسكن في القسم الشمالي (المميز بكثافة السكان) الذي يتوفر على مجموعة كاملة من المؤسسات.

يمكن لهذا الاختـلاف في التجهيز أن يـؤدي الى كفالـة تفاضليـة ذات وجهين:

1 – إذا كان هناك نقص في التجهيز فذلك يعني أن الاطفال سيجدون صعوبة كبيرة في العثـور على مؤسسات للاستقبـال، وبذلك لن يبق لهم الخيار سوى بين ولوج المستشفيات الداخلية أو المكوث وسط عائلاتهم.

2 – وعلى العكس من ذلـك، إذا تـوفـرت التجهيـزات فإنـه يمكن للمؤسسات أن تدخل في منافسات بينها فيقـودها ذلك الى ساكنة لم تكن موجهة أصلا الى بنيات (علاجية) متخصصة.

في الواقع يفرض الاشتغال بـ " ثمن يومي " بعض القواعد : فإذا لم تشتغل هـذه المؤسسـات بأقصى طـاقـاتها فإنها ستتعـرض لا محالـة للإفلاس.

فمن جهـة، لن يكون للطفل الـذي يقطن بعيـدا عن مركـز العلاجـات المتقطعة سـوى حظوظ قليلـة في الاستفادة من الكفالـة الخفيفة في حـالة تعرضـه لصعوبـات عابـرة، ذلك أن عائلتـه ستضطر لبـذل مجهود (في التنقل) لايمكن بأي حـال من الأحـوال مقارنتـه بالمجهـود الـذي تبذلـه العائلات الواقعة (جغرافيا) بمقربة من هذه المراكز.

ومن جهة أخرى، يمكـن لأصل الطلب أيضا أن يؤثر بكيفيـة حاسمة في نوعيـة الإختيار، وبذلك يجب الإشـادة بالاهمية التي تكتسيهـا طبيعة التدخـل الأول بوصفه الجواب المبـاشر على مشكل محدد، ثم طرحـه من طرف الموضوع في لحظة معينة، إذ يمكن لهذه " الحبة من الرمل " التي دخلت في دواليـب الميكانيكـا الاجتماعـيـة المزيتـة أن تصادف مخرجـا يختلف باختلاف درجـة إساءتها للمدرسة، بصفة خاصـة، أو العائلة، أو الحياة الاجتماعية بصفة عامة. من هنـا سيجد الطفـل الذي تم ضبطه في " حالة تلبس بسلوك هامشي " نفسه منذ هذه اللحظـة موجها في أغلب الأحيان نحو البنيات المتخصصة، وما يرتبط بها من وضع.

هكـذا يفضل أصحـاب الطلب الاتجاه الى المؤسسـات الـواقعـة تحت وصايتهم أو تلـك التي تتناسب بكيفيـة أحسن مع تصورهم للمسـاعدة المرغوب في تقديمها لموضوعات تمر مـن وضعية صعبة. وهذا يقودنا الى الإعتقاد بأن أي كفالة تعتمد إلى حد كبير على الدعوة الممهدة لها.

في الواقع يمكن لمجرد تمظهر اضطراب ما – يتسم استدراكه في لحظة ما من حياة الموضوع من طرف هذا الوكيل المؤسساتي، أو ذاك، المعني [بشكل من الأشكال] لحظة ظهور هذا الاضطراب – أن يؤثر في، بل وحتى أن يحدد مهمة مؤسساتي في سلسلة نوعية.

يمكن للعامل السوسيو – مهني للآباء أن يلعب دورا حاسما في هذه الحالة مادامت كل العوامل الاجتماعية تتأثر، بشكل خاص، بالنظرة التي تكونها عن الموقف الذي تواجهه : فالطفل مثلا الذي سبق لإخوانه وأخواته أن "استدركوا " سيتم تعيينه بسهولة كمرشح للتهميش، وهنا يطرح كل من مشكل الوسم ومشكل الدور الاجتماعي الذي ينتظر من الطفل أن يقوم به بحيث يمكن لهذا الدور أن يحث الطفل على التطابق مع الصورة التي كونت عنه.

وعلى العكس من ذلك ستتم المطالبة غالبا بكفالة نفسية عن طريق العلاج المتقطع لصالح الطفل المنحدر من وسط ميسور خال من سلبية من هذا النوع.

العامل السوسيو – مهني

لقد تحدثت عن التأثير الذي يمارسه العامل السوسيو – مهني في عملية الكشف، وسأتحدث الآن قليلا وبالتفصيل عن التأثير الذي يمارسه هذا المحور في الكفالة.

نلاحظ أولا أن أكثر من نصف الساكنة المدروسة (60 ٪) يتركب من أطفال ينتمون إلى فئات : العمال، مستخدمي المصالح، والفئة التي سنطلق عليها اسم " غير النشيطة " حيث تجمع أساسا الأفراد المستفيدين من مساعدات اجتماعية أو نفسية، حوالي طفل على 5 (18 ٪) من السكان ينتمي لهذا المحور.

وإذا ما أخذنا بعين الإعتبار تقسيم مجموع الأطفال، دراستنا بين مختلف أصناف المؤسسات، فإننا سنلاحظ وجود تقسيم غير عادل للأطفال بحسب محورهم السوسيو مهني. فعلا يبدو أن كل المؤسسات

– باستثناء مؤسسات التربية المتخصصة (I. M. P [6]. I. M. Pro)[7] ذات التوزيع الإجتماعي المتكافىء جدا – تتجه بصفة تفضيلية إلى قطاع معين من السكان.

تستقبل مؤسسات حالات اجتماعية ساكنة تنحدر في أغلبيتها المطلقة من الأوساط شديدة الفقر، ويمكن أن يبدو هذا منطقيا.

غير أن الإنتقاء في باقي أنواع المؤسسات يستدعي نوعا من التفكير. فبتأمل تقسيم مختلف الفئات المهنية، المصنفة إلى 4 طبقات، بين 6 بنيات مختلفة، يمكننا ملاحظة أن :

– الطبقة I (المركبة من الأطر العليا والمتوسطة) ممثلة بكيفية واسعة في الكفالات الخفيفة من نوع العلاج المتقطع اذ نلاحظ وجود فوق – تمثيل ب ط 67 ٪.

– الطبقة II (المكونة من العمال)، التي آثرنا عزلها نظرا لأنها تشكل طبقة منفصلة ذات سلوك يميزها عن باقي المجموعات، مرتفعة التمثيل في قطاع العدالة (+ 66 ٪).

– يتواجد العمال ومستخدموا المصالح بكثرة في S. E. S (+ 89 ٪).

– أما المجموعة IV، والتي سميناها «غير نشيطة»، فإنها توجد أساسا في مؤسسات حالات اجتماعية (289 ٪) ويتعلق الأمر هنا بفوق تمثيل ضخم لطبقة اجتماعية في أحد أصناف هذه المؤسسات.

من جهة أخرى، نلاحظ غياب اجتذاب طبقة اجتماعية خاصة حينما يتعلق الامر بالتربية المتخصصة. إذ يخف تمثيل كل الفئات الاجتماعية باستثناء الفئة التي توجد في وضع تحت – تمثيل (– 46 ٪) (غير نشيطة). أخيرا، وفيما يتعلق بال.H.P [8] ينخفض عدد الاطفال المقبولين بها بالقياس إلى سائر باقي المؤسسات. ومن تم يغدو من الصعب جدا تقديم نسب مائوية لفوقية التمثيل أو تحتيته. لكن هذا لا يمنعنا من

---

6) المعهد الطبي ـ التربوي.
7) المعهد الطبي – التربوي – المهني.
8) مستشفيات الأمراض العقلية.

ملاحظة أن أطفال الفئة IV هم وحدهم الفوق – ممثلين (+ 12) الشيء الذي يؤكد عددا من النتائج التي توصلت إليها أبحاث أخرى أظهرت أن مستشفى المجانين هو أداة يتم حفظها غالبا للفئات الاجتماعية الأكثر استضعافا.

وبتدقيق التحليل قليلا يظهر أن مستوصفات العلاج المتقطع هي، بدون نقاش، أكثر المؤسسات انتقائية. ذلك أننا إذا عزلنا الأطفال حسب الفئات الاجتماعية التي ينتمون إليها فسنلاحظ وجود حركة متناقضة كلما نزلنا في السلم الاجتماعي. فأطفال الساكنة المدروسة المكفولين بالعلاج المتقطع (حيث 7 على 10 منهم هم في C.M.P.P.[9]) حوالي 9 على 10 منهم آباؤهم أطر عليا، وحوالي 8 على 10 آباؤهم أطر متوسطة. وعلى العكس من ذلك، لا يمثل أطفال العمال في هذه المصالح سوى بنسبة 4 مرات على 10 حيث 3 منهم هم في ال C.M.P.P.

أما أبناء " مستخدمي المصالح " وأبناء " غير نشيطين " فهم لا يمثلون على التوالي سوى بـ 3 و 1 مرة على 10.

لقد تَمَكَّنَّا من ملاحظة أن هوية الساكنةالمكفولة قد خضعت لمنطق اجتماعي معين : كلما كان العامل السوسيو – مهني راقيا كانت الكفالة خفيفة، وعلى العكس من ذلك يتم تهميش العوامل الاجتماعية الاكثر استضعافا في سياقات احتجاز حقيقية.

في الواقع، يبدو أن هذا التباين في توزيع الفئات الاجتماعية بين مختلف المؤسسات يخضع لعوامل ذات طبيعة اجتماعية تخترق التحديدات الرسمية التي يعتبر بموجبها كل نوع من المؤسسات موضوعا لحالات مشتملة على خاصيات محددة عياديا أو قانونيا.

من المؤكد أن الاضطرابات التي تتم معالجتها داخل المؤسسات تتنافى مع التحديد القانوني لوضع هذه الاخيرة وكذا مع اختياراتها. غير أن الترابط القائم بين نمط التكفل والعامل السوسيو – مهني للعائلة يثير من التساؤل مايجعله يستحق الاهتمام. فإلى أي حد يستقل كل من مهنة

---

9) المركز الطبي التربوي – المهني.

المؤسسات – مع ما يرتبط بها من وضع – لطفل ما أو مراهق ما عن الأصل السوسيو – ثقافي لهذا الأخير ؟

إن هذا السؤال وحده يتطلب دراسة جد معمقة تنصب في آن واحد على التمثلات الاجتماعية وعلى نمط اشتغال المؤسسات المتخصصة في الطفولة الغير المتكيفة أو المعوقة.

قبل الاستمرار في اتباع سياسة مأسسة مختلف أشكال الانحراف من المفيد فهم – وبكيفية جيدة – الميكانيزمات التي تحكم البنيات المحفوظة للأطفال والمراهقين المعينين كمكفوفين عقليين أوغير مكيفين. وفي هذا الإطار يتطلب المسعى السوسيولوجي الذي قدمته السماح بإدخال مبدأ التعدد السببي Pluricausalité، وتوضيح تأثير الأصل الاجتماعي لهؤلاء المعوقين وغير المتكيفين على عملية وضعهم في هذه المؤسسة أو تلك.

لا يمكننا إنكارحقيقة أن عواقب الكفالة تكتسي أهمية كبرى حينما يتعلق الأمر بالأطفال والمراهقين سيما وأن مصيرهم يتحدد – الى مدى بعيد – بالوضع الذي تفرضه عليهم هذه الكفالة. ولنتصور ما يمكن لعلامات "étiquettes" ما قبل منحرف "،" ما قبل ذهاني" و "قاصر" أن تحدثه من صدى لدى هؤلاء الشباب حينما تلصق بهم.

أما ضحايا الانتقاء المدرسي من هؤلاء الشباب فينتهون إلى فقدان الامل. لايتمكنون داخل المؤسسات المتخصصة، من الحصول على فرصة استعادة وضع اجتماعي (= ماقبل الالتحاق بهذه المؤسسات) لم يرسم لهم أصلا. يجب أيضا الأخذ بعين الاعتبار العنف الضمني الذي يمارس في حقهم. لقد أتيحت لي فرصة استجواب شباب من الجنسين داخل أحد الـ .Pro المخصص للقاصرين نسبيا وبليغي القصر فأحدثت مرة اقتراحاتهم صدمة لي. لقد كان خطابهم مزيجا من المرارة واليأس، وبإثارة المواقف المهيمنة يعمدون إلى ترقيم كلماتهم بعبارة " أتستحملون هذا ؟ ".

وفاء لتمردهم قليلون جدا هم الذين قبلوا أن أجري معهم حوارا مسجلا بمسجل الصوت، وهذا مؤسف حقا لأنهم حينما يقبلون التكلم

فإنهم يعبرون عن العنف الـرمزي، الـذي هم ضحـاياه، بطـريقة جيـدة لدرجة أنني لا أملك صياغة مثيل لها.

لقد تنـاولت خطابهم في مقـــال جعلت لـه كعنـوان " حياة من أجل لاشيء "، وهو نص التأمل المكشـوف الذي أبدته إحـدى المراهقات خلال الاستجواب [10]. أعتقد أنه من المفيد تقديم بعض المختارات منه :

– إنها حياة من أجل لا شيء !

... لو أحببت... أن أدرس، لـرغبت أن أكون في مكان آخـر... لقد حكم علينا صغارا... جد صغار، أما الآن فالنهاية، سنذهب للعمل...

ـ يبدو أننا متأخرون.

– مدرسة المجانين.

– الكل يقول ذلك ! جيراني يقولونه !

– يقولون إنني أحمق.

– لا أجرؤ على أن أقول لأصدقائي أين أنا، سيقولون إنني أحمق !

– عندما سأرجل من هنا سينتهي الأمر، سأحاول أن لا أفكر فيه.

– لن أقول لأحد أين كنت من قبل.

– سابقـا كنت في الخامسة ثانـوي. تشاتمت مع الأسـاتذة، أردت أن أسخر منهم، فتم وضعي هنا.

– أنا كنت مـريضا ولهذا لم أستطع المواكبـة، لقد احتفظـوا بي أطول من الـلازم، بعـد ذلك أصبحت كبيرا، فكـانوا مضطـرين لجعلي هنـا، لم أتمكن من الالتحاق بالسادسة لم يكن لي الحق في ذلك.

– أنا، بسبب ازدیادي.

ســـؤال : ازدیادك ؟ أي ماذا ؟

– لا أريد أن أقول ذلك.

---

10) ن. دييدريش، "حياة من أجل لا شيء". (تأملات في عواقب تنديد الاطفال والمراهقين المنغوتين كمعوقـين عقليا)، في Santé Mentale, N° 3 - 4 , 1979

بـالنسبـة لهؤلاء الشبـاب، لم يبق لهم سـوى أمل واحـد : مغـادرة المؤسسة في أقـرب وقت ممكن، وأن لا يسمعوا عنها شيئـا على الإطلاق. محاولـة النسيـان والعمل مـا أمكن على أن لا يعيش أطفـالهم – إذا مـا أصبح لديهم أطفـال في يوم من الأيام – مـا يعتبرونه انحطاطا. لقـد أكد احـدهم على هذه النقطـة. "على كل حال، لـو كـان لدي أطفـال فإني لن أرسلهم الى مـدرسـة المجـانين، لا ! لـن أرسلهم إلى هنـا، سـأرسلهم الى مدرسة طبيعية ".

لكن لما سألنا رئيس مصلحة هذه المؤسسة طلبت منه معرفة إن كان لا زال يرى قدمـاء كثيرين، وفي حالة ما إذا كـان لديهم أطفال، هل يأتي البعض منهم الى L'.I.M.Pro، أجابنا وهو يفرك يديه:

– إيه نعم ! لقد بدأوا في الدخول.

كما لو أن الأمر يتعلق باستثمار جيد !...

يبـدو جيـدا – ولا يتعلق الأمـر بمحـاكمـة أشخـاص – أن اشتغـال مجتمعنا، والمؤسسة المدرسية جزء منـه، يدخل في قسم لا يستهان به في خلق ما يسمى بالكفالة والإعاقة وعدم التكيف.

ونحن إزاء نقل لما هـو في الأصل مشاكل مـلازمـة لاشتغال الجهـاز المدرسي تمس بكيفية جماعيـة فئة اجتماعيـة محددة، الى مشاكل فـردية، وسيكون من اللائق إذن التساؤل حول الوظائف الاجتماعية للمؤسسات المتخصصة، والتي يبدو إنها تؤطر الطبقات الكادحة، وذلك قصد اجتناب تحول هذه المؤسسات الى مؤسسات بليغة الخطورة.